

مُلهمات المشاهير

عندما تقف المرأة خلف الرجل .. ترقى معه إلى ذرى المجد ، أو تهوى به إلى قاع الحياة .. ومن هذا وذاك ، يستلهم الفنانون إبداعاتهم .

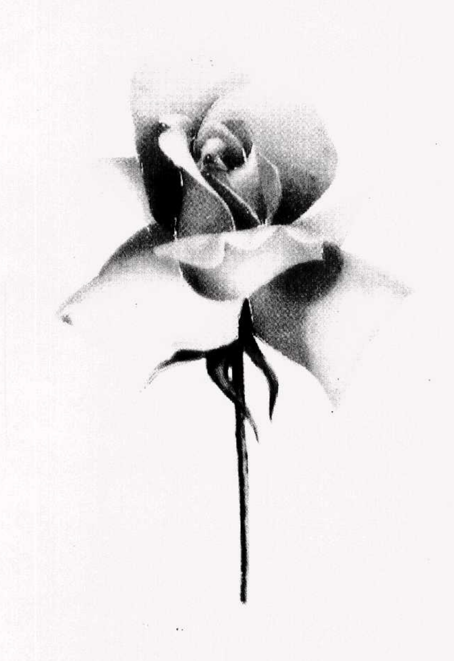
جمال قطب

دار مصر للطباعة
٣٧ ش كامل صدقى - القاهرة
ص ب ١٦ - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

• هذه جولات فنية نستكشف فيها روائع الإبداع عبر قرون التاريخ فنعيش من خلالها مع المشاهير قصصهم العاطفية المثيرة ولنبحث عن المرأة الملهمة فى بصائرهم ووجدانهم . حيث ترقى معهم إلى ذُرى المجد ، أو تهوى بهم إلى قاع الحياة .

والمحبون مهما كانت صولاتهم وجولاتهم ومكانتهم فى تاريخ البشر ، يطويهم النسيان بين تراكمات الأحداث وتوالى السنين . ولا يبقى فى ذاكرة الإنسانية غير الإبداع العبقرى تراثا مهيبا متألقا ينبض بالحياة ! ولولا الفن لضاع الأثر بين ثنايا الغموض والكتمان ! فإذا كان الجمال الأنثوى قد ألهم المحب لسنوات عمر العلاقة بينهما .. فإن هذا الجمال نفسه قد ألهم الفن بمقومات وجدانية وإدراك حسى متجدد عمره عمر البشرية ذاتها . وكلما بَعُد الزمان واندثرت ملامح المكان ، تمثلت روائع الفنانين فى خاطرنا على الدوام قيمة إنسانية خالدة .. تصافح أبصارنا وبصائرنا فى كل حين !!



تقــدمة

الملهمات : الفراشات والشموع

.... كالفراشات الهائمة حول الشموع الساهرة ، تتراقص مختالةً بألوانها المتألقة فى دائرة الضوء الشاعرى الهامس ، وربما سقطت واهنةً لتحترق فى نارها المتوهجة .

.... هكذا كانت الملهمات فى حياة الأعلام والمشاهير عبر مسيرة الفكر ووقائع التاريخ !

والفنان ــ فى غمار هذه العلاقات الإنسانية ــ يدور مع أحداثها بين شقى الرحى ، يستلهم الجمال الأنثوى فيسعد به أو يشقى حسب موقعه من نوره أو ناره .. تعتمل فى نفسه شتى الصراعات والنوازع والأحلام ، ويسرى فى كيانه ووجدانه دفء العواطف ورقة النسمات واللمسات الحانية ، يتمثلها مزجا إبداعيا تتماوج فيه المنظورات والمحسوسات بين الرؤية والرؤيا ، فتتفتح ملكاته عن فن عبقرى خالد يحمل تلك البصمات المتباينة .. ونرنو إلى صور الملهمات ببصرنا وبصيرتنا .. إنهن شذرات من تاريخ الإنسانية ذاتها جادت بها قرائح الفنانين العظام ... بُعثن كائناتٍ حيّةً تروى لنا قصصا عن سطوة الحب وسحر الجمال الأنثوى وشراكه الناعمة ، وتكشف عن غوامض النفوس وأسرار القلوب ... ومن أحداث هذه الإيحاءات العاطفية المثيرة .. كانت لقاءاتنا على هذه الصفحات ، نعيشها من خلال ما أبدعه لنا الفنانون فى روائعهم الخالدة .

● عندما تفتح وعى الإنسان لوجوده ، دبت فى أعماقه نزعة الإحساس بالجمال ، وبالفن معا .. فما الفن إلّا لمسة الجمال على وجه الطبيعة . ومنذ طفولة التاريخ .. جمعت رابطة الحب بين الرجل والأنثى .. وأصبح الشغل الشاغل للرجل هو البحث عن الأنثى الجميلة ، وراحت هى بدورها تتفنن فى اجتذاب الرجل ببواعث الجمال وأسباب التزيّن وأساليب الإغراء الدائبة المتجددة .

ومن يقرأ تاريخ الحضارات القديمة ، يجد أن المرأة الجميلة كانت محور الأحداث وموضع العناية والاهتمام .. وكلما كانت شخصيتها آسرةً وجمالها صارخاً وأنوثتها طاغية ... صارت بُغية الحكام والمبدعين ومنطلقا لشتى أنواع العطاء الإنسانى وغاياته فى الحب والحرب والسلام .

● فالمرأة عند الفراعنة .. كانت لها المنزلة الرفيعة والمكانة المقدسة .. فقد اختاروا آلهة من الإناث مثل :

المعبودة حتحور : إلهة الجمال والحب والموسيقى .
المعبودة ستشات : للعمارة والفنون .
المعبودة ماعت : للحق والعدالة .
المعبودة إيزيس : للإخلاص والوفاء للزوج والأمومة ورعاية الطفل .
المعبودة تاورت : للحمل والولادة .
المعبودة عنقت : سيدة ماء النيل .
المعبودة نفتيس : سيدة البيت .
المعبودة موت : سيدة السماء .

أما العلاقة العاطفية وسيطرة المرأة فى المجتمع الفرعونى فنراها فى قول « ديودورس » :

(إن عقود الزواج فى مصر تنص على منح الزوجة السلطة على زوجها ، وكان الأزواج آنذاك يتعهدون بإطاعة زوجاتهم فى كل ما يؤمرون به) .

وقد جلس على عرش مصر الفرعونية ثمانى عشرة ملكة ابتداء من « مريت نيت » أول ملكة جلست على العرش فى العالم فى القرن الخامس والثلاثين ق. م. حتى كليوباترا آخر الملكات .

واشتهرت المرأة الفرعونية ببراعتها فى فنون التزيّن والكشف عن مواطن الجمال فى جسدها والحفاظ على أنوثتها وفتنتها .. وتزخر متاحف العالم بالبرديات التى وردت فيها قصائد الغزل والقصص العاطفية الملتهبة .. ويحدثنا التاريخ عن حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا وغيرهن من فاتنات القصور الحاكمة .. وكيف كان لسحرهن أكبر الأثر من التحولات السياسية والاجتماعية فى مصر القديمة .

• • أما عند الإغريق : فيقول شيشيرون أن الفنان « زيوكيس » أبدع رسم لوحته « هيلين طروادة » فجاءت هيلين مثلًا يحتذى به للجمال الإغريقى ، لأن الفنان أتى بخمس فتيات من أجمل نساء أثينا ، فاستغل أجمل ما فى كل منهن : فالذراعان من واحدة ، والكتفان من أخرى .. والوجه من ثالثة .. وهكذا حتى استطاع تصوير الجمال المثالى فى واحدة .

وذكر « هوميروس » فى « الأوديسا » أن اليونانية الجميلة كانت تشغل بال الرجل ليل نهار .. وكانت بدورها تُعنى بجمالها فتدلك جسدها بالزيوت والطيب لتصون ليونته ، كما كانت تتحلى بقلائد الذهب والمجوهرات لتبرز محاسن صدرها ، ولم تغفل المرايا وتشكيل شعرها وتلوين شفتيها !

وكانت المرأة الإغريقية تفخر بجمال جسدها ولا تخجل من عرضه للأنظار . وقد جاء فى « الإلياذة » أن « مينيلوس » أوشك أن يقتل « هيلين » لخيانتها ، ولكن السيف تجمد فى يمينه حين كشفت له عن صدرها ..

ويزخر تاريخ الإغريق بالمئات من هذه القصص التى تتغنى بجمال المرأة .. ومن هذه القصص ، استلهم الفنانون أعمالهم الخالدة على مدى قرون التاريخ .. وما زال الإلهام يفيض على الوجدان حتى اليوم .. ومن الطبيعى أن تلعب المرأة الأوروبية ـــ وريثة الأمجاد الإغريقية ـــ نفس الدور المثير فى التاريخ الحديث ، فنراها تقف أمام الأعلام أو من خلفهم تدفع بهم إلى ذُرَى المجد أو تهوى بهم إلى قاع الحياة ... بل إلى ما تحت الرماد !

كانت تشعل الحروب وترسم الحدود وتأسر القلوب .. فيتألق السعداء منعمين بالحب والنجاح والجاه والسلطان .. ويتساقط البؤساء محطمين فى ساحات الحب المحرم وكنوز الفتنة الموصدة فى وجوههم !

ومما زاد العلاقات العاطفية غموضاً وإثارة فى مجتمع الأرستقراطية الأوروبية أن الزواج الملكى كان ـــ عادة ـــ زواجاً سياسيا بعيدا عن علاقات الحب والروابط العاطفية .. ويكفى أن تنجب الزوجة وليا للعهد وتتوج ملكة ، ولا يجب أن تشغل نفسها بأكثر من ذلك ، أما العبث ونفوذ الخليلات .. وغير ذلك من قصص فاتنات المجتمع المغامرات فى مخادع القصور ، فكانت هى القوى المؤثرة فى صياغة القرارات وصناعة السياسة والتحكم فى مجريات الأمور والأحداث . ولم تحظ القيم الخلقية ولا المثل العليا بأدنى قدر من الاحترام أو الاعتبار .. ويحدثنا تاريخ تلك الفترة (القرن السابع عشر مثلا) أن لويس الرابع عشر ـــ ملك فرنسا ـــ أرسل غانية من أصدقائه إلى تشارلز

ــ ملك إنجلترا ــ لتستولى على عقله وتتجسس عليه ، فنجحت فى مقصدها ووصلت العلاقة بينهما إلى ذروتها فى أكتوبر عام ١٦٧١ حينما اتخذها تشارلز خليلة له .. وكان أول قرار أملته عليه أن يُعلن تحالفه مع لويس الرابع عشر ضد هولندا .. فكان ذلك نجاحا تاريخيا للغانية « لويز دو كوروال » التى سجلها تاريخ فرنسا كواحدة من أجمل نساء باريس آنذاك ومن أخلص العاملات لصالح السياسة العليا ! أما القرن التاسع عشر .. عندما حظيت فيه المرأة بقسط أوفر من الحرية وإثبات الذات والشخصية المستقلة .. نرى فيه حشدًا هائلا من سيدات المجتمع والشاعرات والأديبات والفنانات .. ولكل منهن عالمها ومغامراتها ونزواتها وصولاتها وجولاتها ..

وتتوالى القصص . بإفاضاتها الرومانسية على الوجدان الأوروبى ليعيش فى هذه العوالم .. الرحبة الممتعة الملهمة !

ولقد كانت مقاييس الجمال فى تغير مستمر ــ على مر العصور ــ تبعا للعادات والتقاليد والثقافات والقوميات وأساليب الحياة ، وكان لكل عصر طابعه فى الجمال النسوى . أما طابع القرن العشرين ، فهو توحد مستويات الجمال فى العالم تقريبا ، ولعل للسينما أثرا كبيرا فى هذا التوحيد ، فقد أصبحت «الأفلام» و «التليفزيون» ووسائل الإعلام المختلفة تنقل إلى النساء فى كل مكان فى العالم ــ أولا بأول ــ تطورات التزين ومقاييس الجمال والأزياء .. وليس هذا « التطور » إلا ما يفرضه صناع « الموضة » فى عالمنا المعاصر .. فقد يرتدون بهذا « التطور » إلى ملابس نفرتيتى أو إلى تصفيفة شعر فينوس وأزياء مارى أنطوانيت أو إلى أناقة الأميرة ديانا .

●● وقد أجهد الأقدمون أنفسهم ووضعوا شروطا هى بمثابة قانون الجمال للمرأة الفاتنة .. وهذه النقاط هى :

ثلاثة بيضاء : البشرة والأسنان واليد .

ثلاثة سوداء : العين والحاجب والأهداب .

ثلاثة حمراء : الشفة والخد والأظفر .

ثلاثة طويلة : القوام والشعر واليد .

ثلاثة قصيرة : الأذن والأسنان والقدم .

ثلاثة ضيقة : الخصر والفم والكاحل (ما بين الكعب والساق) .

ثلاثة ممتلئة : الردف والذراع وباطن الساق .

ثلاثة طرية ناعمة : الإصبع والشفة والشعر .

ثلاثة صغيرة : الأنف والرأس والثدى .

ثلاثة عريضة : الجبهة والصدر وما بين الحاجبين .

ومع هذه المتغيرات الشكلية والإثارة الجسدية .. تبقى القيم الكامنة فى النفوس .. كما تخلد المثل العليا المتمثلة فى عطاء الأمومة والجاذبية والثقافة وقوة الشخصية والسيطرة الروحية .. تلك هى القُوىَ السحرية التى يهبها الله للمرأة فى غير تصنّع أو تكلّف أو تجمّل .. بل إنها الجمال العبقرى الذى يقفز فوق كل المقاييس والشروط والحدود !

وعلى أية حال ، فهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ ، حرصت فيه على الجمع بين الإلهامات الأنثوية الروحية والجسدية والعقلية .. بكل مواهبها المتباينة .. وأختتم هذه التقدمة العاجلة بقول الفيلسوف الفرنسى « جول نيشيليه » : إن المرأة معجزة تألفت من متناقضات إلـهية !

جمال قطب

حكم الهوى ومجلس حكماء البلاط

● كادت تجلس بجواره على العرش .. ولكن أقرب الناس إليها هوى بها إلى الأرض فسقطت من عليائها محطمة كسيرة الفؤاد !

● إن اللقاءات الساخنة والآهات الملتاعة .. لا تجدى نفعا أمام تقاليد الحكم ومؤتمرات الساسة ومؤامرات القصر العريق !

● .. وتناست تحذيرات الوزير الوقور .. وخيل إليها أنها ملكت قلب حبيبها لتحيا فى عالمه الحالم وأطيافه الوردية !



فى عصور الجمال والفروسية والرومانسية الأوربية، كانت باريس — فى الفن والفكر — مركز الإشعاع . ومنتدى الخلايا الإبداعية والنهضة الفكرية ، تجذب إليها أنظار العالم ، كما تستقطب بصائر المفكرين ووجدان المحبين والمغامرين الذين يفدون إليها كالفراشات الهائمة تسعى إلى رحيق الزهرات اليانعة وتستهويها الأضواء المبهرة .. فى ليالى السهر والسمر والعطور النافذة والأنغام الحالمة !

وكانت القصور الفرنسية الحاكمة مثلا يحتذى به فى الترف والتأنق والبذاخة التى تتضاءل بجانبها ليالى ألف ليلة ، فما من حاكم أو نبيل أو فنان أو مفكر شهير ، إلا وقد حام حول البلاط الملكى من قريب أو بعيد .. يقدم ولاءه وإبداعه ، ثم ينغمس بدوره فى قصص الحب .. ويغترف من فيض العواطف الدافقة .. ليضيف أسطراً أو لمسات مبدعة فى تاريخ العاصمة الزاخرة بأسباب الشاعرية ! وكان طبيعيا أن تحتل فاتنات المجتمع وغانياته مركز الصدارة .

فما بالنا بلويس الرابع عشر نفسه وقد علا جبينه تاج فرنسا بكل ماتتمتع به من السلطان والنفوذ والجمال ! فلا غرو أن تطالعنا كتب التاريخ بلوحات الفنانين العظام لصور الملوك والحكام فى القرنين السابع عشر والثامن عشر — بوجه خاص — وبجانبهم صور الفاتنات والخليلات والمغامرات . ولم يقتصر دور هؤلاء الحسان على الجوانب العاطفية فحسب ، ولكنهن كثيرا ما لعبن الأدوار الرئيسية فى مسيرة الأحداث والتحولات السياسية ، وفى كلتا الحالتين تخلد صورهن فى أروقة المتاحف ، وبين صفحات التاريخ بجانب القادة والزعماء والمفكرين والعباقرة سواء بسواء !

وضمن جميلات التاريخ ، نرى لوحة رسمها الفنان العالمى « بيير منيارد » الذى عاش فى القرن السابع عشر فيما بين عامى ١٦١٢ — ١٦٩٥ لفتاة ذات وجه شهى القسمات ويتدفق سحرا وجاذبية .. إنها فاتنة عصرها « مارى ما نسينى » .. وقد ارتبط اسمها



فى التاريخ بصاحب عرش فرنسا لويس الرابع عشر .. تلك الفتاة التى كادت أن تتبوأ العرش بجانب حبيبها .. لولا أن هبت رياح السياسة ومؤامرات القصر .. فأحالت هذا الحب الكبير إلى ركام وسهد وأنين .

فمن هى تلك الساحرة التى سلبت لب الملك .. وأحدثت الصواعق فى أرجاء القصر الفرنسى والقصر الأسبانى فى الوقت ذاته ؟ من هى ذات الحسن والجمال التى تسابق الفنانون العظام إلى رسم صورتها وتخليدها فى كتب الفن والتاريخ ؟!

الفتنة المبكرة

كن شقيقات خمس ، يجمع بينهن الجمال والذكاء والتألق الأرستقراطى فى العائلات العريقة : لورا — مارى — أولمبيا — ماريان — وهورتانس . من أم وأب إيطاليين . أما الأم ، فكانت شقيقة الكاردينال الشهير « مزاران » الذى عين وزيرا للبلاط الفرنسى فى عهد لويس الثالث عشر ، وخلفه لويس الرابع عشر . وبعد أن تزوجت شقيقته « هرونيما مازارينى » من النبيل الإيطالى (لوران ما نسينى)



الكاردينال مازاران

أنجبت منه هؤلاء الفتيات الجميلات . ونشب خلاف عائلى حاد بين الزوجين أدى إلى انفصالهما .. فأصبحت هرونيما وبناتها فى كنف الكاردينال مزاران .

ولكى يضمن الخال الذى أصبح عائلا لهن حياة مستقرة للفتيات بعيدا عن المشاكل والمنازعات صحبهن معه إلى فرنسا .. وفى الوطن الجديد أصبحن فرنسيات .

وانخرطن فى المجتمع الباريسى بين العائلات العريقة .. وتزودن بأرقى الثقافات وفنون العصر .. وقد أفسح التاريخ الفرنسى لكل منهن مجالا اجتماعيا مميزا يزخر بشتى صنوف العلاقات والمغامرات .

ومايهمنا فى هذا الاستعراض هو بطلتنا «مارى ما نسينى» لكى نحكى قصة القمة .. فقد استطاعت أن تستحوذ على قلب صاحب التاج المتربع على عرش الدولة .

● ولدت مارى عام ١٦٣٩ ، وعندما صحبها خالها الكاردينال معه إلى باريس ، كانت فى الرابعة عشرة من عمرها ، ولم تعرف غير الإيطالية . فالتحقت بمدارس اللغات لعدة سنوات . أكملت بعدها دراساتها المختلفة فى الأدب والتاريخ والفن والموسيقى وغيرها . وكان لويس ملكا تحت الوصاية فى نفس عمرها تقريبا أو يكبرها بسنة واحدة ، وبحكم مكانة خالها المميزة حرص القصر الملكى على دعوتها فى الحفلات الرسمية كغيرها من فتيات العائلات الأرستقراطية .. وفى إحدى هذه الحفلات المترفة .. لفتت مارى أنظار الحاضرين رجالا ونساء بجمالها وإناقتها ورقة سلوكها .

وكما هى العادة فى حفلات القصر ، كان لويس يجامل ويغازل ويراقص من تروق فى عينيه من الفتيات .. وكل منهن تحلم بأن تتاح لها فرصة العمر فيفتح لها قلبه .. أو — على الأقل — تشاركه قصة غرام خاطف تتغنى بها منتديات العاصمة ! ولكن الملك الشاب رأى فى بطلتنا « مارى » شيئا جذبه



(ماريا) أو مارى مانسينى ـــ للفنان بيير مينيارد
PIERRE MIGNARD



لويس فى شبابه المبكر

نحوها فأخذ يراقصها معظم ساعات الحفل .. وعندما خفتت أضواء الشموع وانتصف الليل نأى بها إلى ركن شاعرى فى حديقة القصر .. وسرى همس تذوب فيه الحروف مع الأنفاس اللاهثة !!

عندما تعتصر السياسة قلوب المحبين

وتعددت لقاءاتهما التى حسباها لا تعدو أكثر من صداقة أو نزوة جامحة .. ولكنها تحولت مع الأيام إلى عاطفة جياشة وحب جارف .. وعرفت القلوب كيف تستجيب لنداء العواطف الملتهبة لأول مرة فى حياتهما وهما فى عمر الزهور !

وأصبحت الفتاة تلازم فارسها فى معظم رحلاته وسهراته ، كما تشاركه الرأى والأفكار والطموحات والأحلام ، وكيف لا وقد فضلها على أجمل أميرات القصر .. كما أن خالها وولى أمرها له مكانته المرموقة فى البلاط ؟! وفى عام ١٦٥٨ مرض لويس مرضا مفاجئا وهو فى زيارة ملكية لمدينة « كاليه » وكانت فى معيته كعادتها أو كعادته فى دعوتها لمرافقته جولاته ونزهاته . فلازمته مارى وهو فى فراش المرض ، تسهر على رعايته وتمريضه طوال الوقت . مما ضاعف من تعلقه بها .. وما أن تماثل للشفاء ، حتى صمم على أمر خطير : لقد فاتحها فى أمر اتخاذها زوجة له ، لتكون رفيقة حياته ملكة تشاركه عرش البلاد !

... وكادت الفتاة أن تطير من الفرح .. إنه شىء فوق احتمالها .. وقد فاق كل طموحاتها وأحلامها ! وعاشت أياما لا تكاد أن تفيق من ذهولها .. وتمالكت الفتاة .. وطلبت أن تتحدث مع خالها الوزير فى شأن من الأهمية بمكان ..

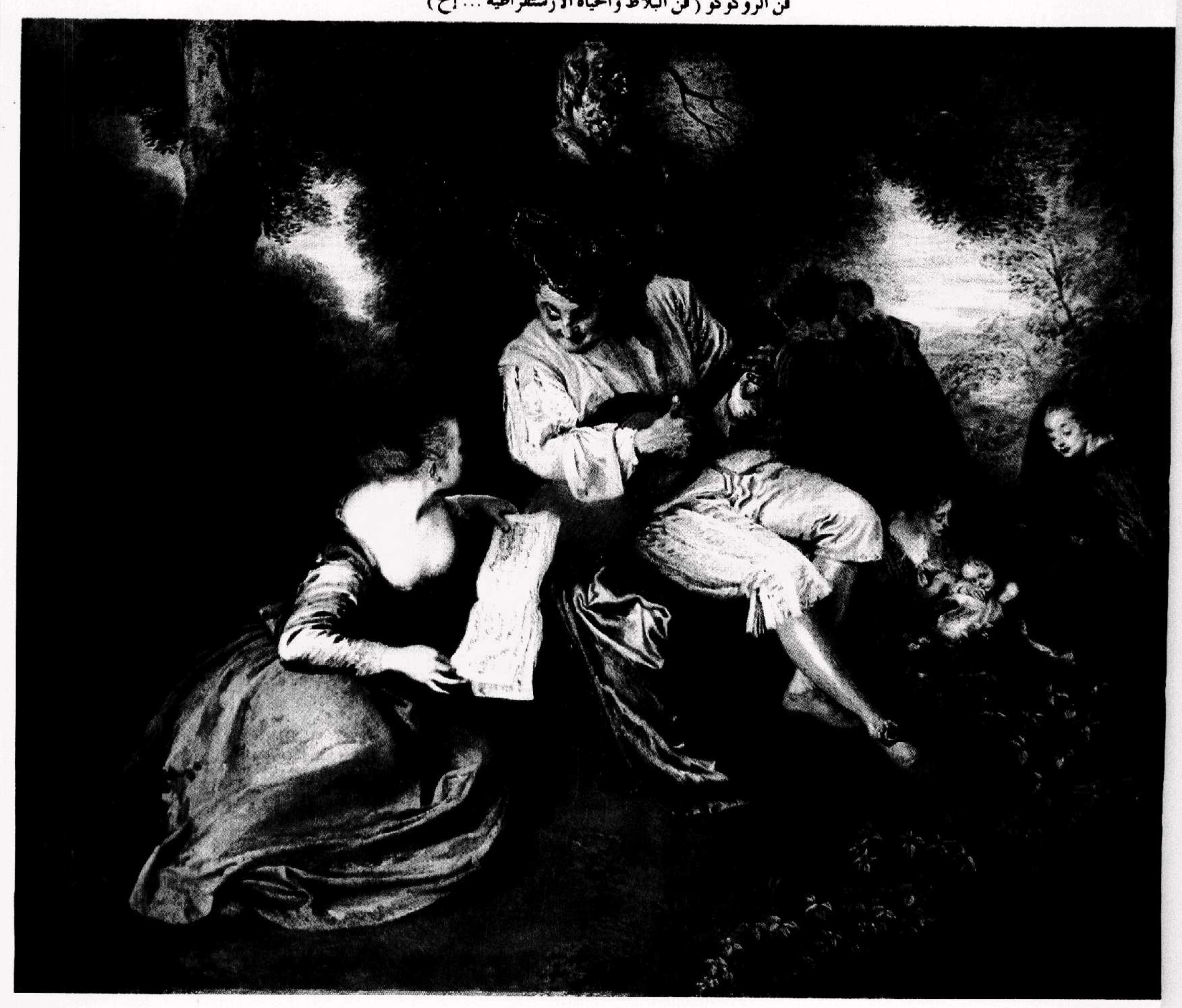
وما أن جلست الفتاة بين يدى الكاردينال الوقور وأخذت تحكى له عن أحوالها وما كان من أمرها مع حبيبها المتيم .. وكيف طلب الزواج منها .. حتى امتقع وجه الرجل .. إنه يعلم الكثير عن خبايا

القصور .. والمؤتمرات السياسية ، والمؤامرات العائلية التى تحاك فى الظلام .. وهى جاهلة تماما بالتحزبات والزيجات السياسية التى تعقد بين الملوك وما هى فى حقيقتها إلا تحالف بين دولتين أو بين قوتين لهما تأثيرهما فى تسيير عجلة التاريخ ولعبة الأمم .

قال الوزير : يابنيتى .. لو كان الأمر بهذه البساطة ، لكنت أسعد الناس على ظهر الأرض .. إننى وزير الملك ومستشاره الأمين .. وإذا أصبح زوجك وصرت ملكة على فرنسا .. سأكون الحاكم بأمرى بلا منازع .. ولكن خفيت عنك حقائق ما كان لى أن أخوض فيها أمامك .. إن عقبات شتى ستقف فى طريقكما لا محالة لتحول دون زواجكما ، فليس زواجك منه زواجا سياسيا يقوى مركز فرنسا كما هو متفق عليه بشأن ملكنا الشاب .. إننى أحذرك قبل أن نصبح نهبا للدسائس والمؤامرات التى قد تودى بك وبى فى الوقت ذاته ، فزواجك المزعوم هذا هراء يجب ألا تفكرى فيه أبدا .. بل من الحكمة ألا يخطر لك على بال !

... وتمر الأيام متثاقلة باهتة .. ومارى لا تتصور أن تحرم من حبيبها فى خضم هذه الطقوس الملكية المعقدة .. ولكن الحقائق قد كشفت عن وجهها سريعا . إن السياسة هى السياسة ، ومصالح الدولة فوق العواطف .. وفوق كل اعتبار ! فقد نجحت المفاوضات .. واجتمع مجلس القصر برجالاته

فن الروكوكو (فن البلاط والحياة الأرستقراطية ... إلخ)



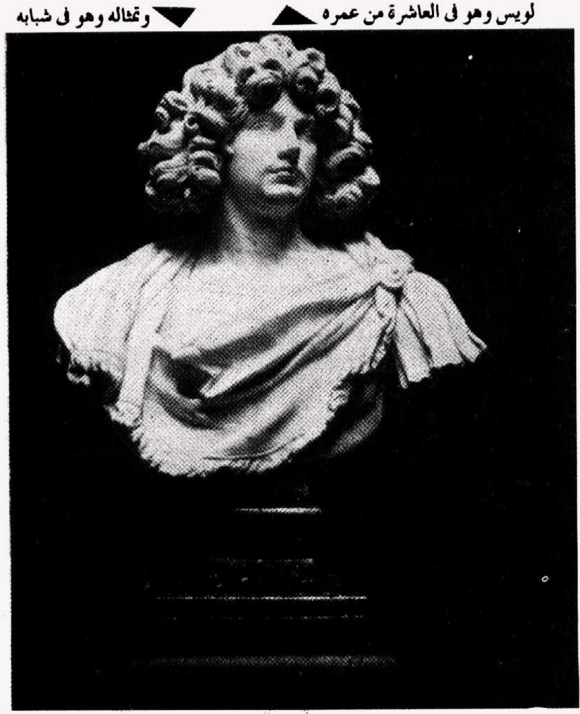
ووزرائه ومستشاريه . وأجبر لويس على قبول الزواج من الأميرة الأسبانية « مارى تريز دوتريش » ومن العجيب أن المجهودات السياسية التى أثمرت عن هذا الزواج . كان وراءها سياسى محنك ، هو الكاردينال مزاران نفسه .. لقد وجد أن زواج ابنة أخته بالملك ، إضعاف للقصر وللدولة وفجوة سحيقة بين خطط الحكم الطموحة ، وبين ما تئول إليه أحوال الأسرة من التآمر والأحقاد والدسائس والمكائد .. وفى هذا انتكاس وترد إلى الهاوية ! لقد أمر مزاران على الفور بأن تزال صور الفتاة تلك التى تسابق الفنانون فى إبداعها إرضاء وتقربا إلى عاهل القصر ، وأن تحل محلها صور الملكة المنتظرة مارى تريز لتعلق فى أبهاء القصر وحجراته .. وأخذ المستشارون يحيطون الملك بأخبار خطيبته الساحرة ويعددون مفاتنها التى حباها الله بها .. ويذكرون له صباح مساء مزاياها وثقافاتها الواسعة وشخصيتها الفذة الرائعة .. أى أن عملية (غسل مخ) قد اتفق عليها وقادها مزاران ليبعد كل شبح عن مخيلة الملك لصورة حبيبته مارى مانسينى !

وخشى الرجل بل توقع — بحكم مسئوليته — أن تفشل كل محاولاته ولا سيما بعد أن رأى من لويس تشبثا بفتاته .. إذ أنه أعلن أمام مستشاريه ، أنه حتى لو تزوج من أميرة البلاط الأسبانى ، إلا أنه لا يستبعد أن تكون حبيبته بدلا منها فى يوم من الأيام ! .. فاجتمع أهل المشورة وأساطين التشريع وطلبوا من مزاران أن يتصرف على وجه السرعة . وهنا .. اتخذ الكاردينال قرارا حازما وحاسما .. لقد أمر بنفى مارى ما نسينى إلى بلدة نائية تدعى « برواج » وحدد إقامتها هناك ، وأصدر أمرا بعدم مغادرتها لهذه البلدة إلا بإذن شخصى منه !

.. وتوالت القرارات والأوامر والمراسيم .. وهيهات أن يتصدى شراع المحبين الذى تتقاذفه الأمواج لهبوب العواصف الجامحة والتيارات الجارفة التى تعربد فى أجواء القصر الكبير !



لويس وهو فى العاشرة من عمره ▲ ▼ وتمثاله وهو فى شبابه





ماری الطفلة الوادعة

ماری والحب المحرم

● واستسلم لويس ، كما استسلمت الفتاة الهائمة « ماری ما نسینی » للأمر الواقع .. ولكن ما استقر فی القلب وسكن فی الوجدان .. من العسير أن تذهب به الأوامر والمفاوضات والمراسيم والنصائح .. فما أن أفاق الملك من فورة الأحداث اللاهثة من حوله ، وتتابع القرارات والمؤتمرات واستقبال الوفود المهنئة بالأمجاد السياسية المرتقبة ، حتى سكن إلى نفسه ، ينقب فی قلبه الدافیء ، فلا يجد إلا حبيبته متربعة على عرشه ، وقد ملكت عليه كل وجدانه !

إنها ماری ما نسینی رفيقة سهراته وجولاته وآماله



الكاردينال مازاران ـــ لوحة من فن الحفر للفنان نانتويل (NANTEUIL)

وأحلامه ! يكاد أن يستنشق عبيرها ، بل وتلفحه بأنفاسها الحارة التى صهرتها نار الحب فى لقاءاتهما الممتعة ..

وتحول الملك الشاب إلى فيلسوف يحب العزلة ويهوى التأمل .. فها هو ذا يملك العرش ، وتتلألأ درر التاج من فوق جبينه ، ولكن لحظات حب صادق بجوارها ، أحب إليه من عروش الدنيا وتيجانها ! وهذه هى طبيعتنا نحن البشر ، لقد أودع الله فينا أثمن ودائعه .. ألا وهى الحب ، تتفتح قلوبنا لمن نهواه ، ونحلق فى أفلاكه فرحين غير عابئين بقوانين الحساب وقواعد المنطق ونداءات العقل وركائز الحكمة ، إننا ننسى كل ذلك أو نتناساه ، وفجأة .. نسقط من تحليقنا وعليائنا ، ونشعر بأوجاع السقطة من المرتفعات الشاهقة ، وإذا تجلدنا وصمدنا ، دب اليأس فينا ، وتحولنا إلى أدوات صماء تدور فى عجلة الحياة مستسلمة بدون وعى ولا استمتاع ولا مبالاة !.

وهكذا فعل لويس ، فقد انصاع لمجلس الحكماء وقرارات المستشارين والمخططين ، ولكنه بكل كيانه .. هناك .. مع حبيبته المغلوبة على أمرها ، حبيسة الأوامر السياسية الصارمة !

طيف الحبيب

تصرف الشاب المحب تصرف المجنون .. يجول ببصره فى أرجاء القصر الفسيح فلا يرى إلا .. أطيافا ترسم صورتها فى خياله .. يناجيها .. يعاتبها ..

يناديها .. وكان ينفر من الاجتماعات والاختلاط بالناس .. ويفضل العزلة والانطواء .. وعندما يأتى المساء يقضى سكنة الليل فى إعداد الخطط الجسورة لكى يستطيع أن يقابلها سرا فى منفاها ، يخاطر ويكابد العثرات والعقبات فى سبيل أن يحظى بلحظات معها .. ويتمثل لقاءهما فى خياله .. وقد بللت وجهه بدموعها الشاكية .. وذابت آهاتها الملتاعة فى جحيم القبل والأنفاس اللاهثة .. وكان يجمع أتباعه وخلصاءه ، ليعرض عليهم خططه ، فكانوا يحذرونه من مغبة أن تنكشف المغامرة ، ويثبطون من عزيمته ، فكان يقول لهم متضرعا : أيها السادة .. ماذا تئول إليه الأمور بأسوأ مما أنا فيه ؟! أفلا تريدون أن تمدوا إلى يد العون وتساعدونى لكى أغنم لحظات فى قربها ؟!!

●● لقد ذكر التاريخ أن لويس الرابع عشر قد بكى لأول مرة فى حياته عندما أبلغوه بزواجه من الأميرة الأسبانية وأن عليه أن ينسى حبيبته !

كما سجل التاريخ رسالته التى تقطر أسى .. تلك التى أرسلها إليها وقد اختلطت فيها دموعه الحارة بمدادها الأسود .. قال فيها :

« ... حبيبتى : إننى مستسلم لمجلس الحكماء اللعين ... وأرضى — مرغما — بالزواج من الأميرة الأسبانية .. أميرة لا أعرفها و لم أرها إلا من خلال صور رسمها لها فنانو القصر من وجهة نظرهم .. إننى — يا فاتنتى — لابد أن أقبل بمقتضيات التقاليد ، ولكننى أحبك أنت .. وحدك .. ولم ، ولا ، ولن أحب غيرك ، إنه زواج سياسى فيه مصلحة الوطن .. ولكن مصلحتى أنا وسعادتى الكبرى تكمن فى حبنا الكبير !

نفوس تتحطم وقلوب من حديد :

كان المحرك الرئيسى لأمور الدولة العليا هو رجل البلاد الأول الوزير الداهية .. مزاران ، وكان فى إخلاصه لفرنسا وللقصر الملكى ، أن جعل مصلحة الدولة فوق كل اعتبار ، وعندما وجد العلاقة المستعرة بين ابنة أخته ولويس — بالرغم من نفيها إلى « برواج » — مازالت قائمة ، وأن هناك أخبارا تتوالى على مسامعه بلقاءات سرية يدبرها الملك فى الخفاء ، أمعن الرجل فى تشديد الحراسة عليها ، وبث عيونه التى لا تغفل من حولها .. بل وفرض الرقابة على مراسلاتهما كذلك ! وجاء إليه الجواسيس برسالة منها إلى حبيبها .. فض الوزير الرسالة وقرأها ، تقول فيها :

... « إلى من تتركنى ؟ وكيف أحيا بدونك وقد تآمر على قدرى .. وأهلى .. وأنا أقضى الأيام والليالى الطويلة فى عزلة ووحدة قاتلة ؟! حبيبى .. هل هانت عليك أمسياتنا الشاعرية الممتعة .. كنت تبثنى لواعج نفسك وشجون قلبك .. فسلبت لبى وعقلى حتى صرت أرى الدنيا بناظريك .. وأسمع وقع الحياة مع دقات قلبك .. أراك فى صحوى تملأ على كل وجدانى .. وفى منامى تصحبنى فى أفلاك سماوية فوق رقاب البشر .. جعلت منى كائنا تنبض عروقه بدمك .. وتتوقف حياته عند بابك إذا أوصدته ترفعا أو جحودا أو تناسيا فى وجه حبيبتك .. إن صوت الحب فى أعماق يهتف بندائك .. ولكن صوت العقل فى هدأة الخواطر المتصارعة يؤنبنى ويقول لى : إنه الملك ، وللعرش أحكام يجب أن يخضع لها ، بل ويجب أن نمتثل لها جميعا .. حبيبى : أكاد أن أفقد عقلى ، ولا أستطيع أن أميز بين ما هو واجب وما هو واقع ، وما هو محسوس وما هو ملموس .. كل شىء فقد لونه ومذاقه !! إننى يائسة ضائعة .. ولا أريد أن أقول الوداع .

حبيبى هل انتهت القصة ؟؟!! » .

... وقلب الكاردينال مزاران رسالة الفتاة بين أصابعه بعد أن قرأها .. فارتسمت على وجهه علامات الحزن والأسى .. وتراقصت الدموع فى مقلتيه ، وهو الرجل الحديدى الصلب الذى لم يعرف اللين أو التهاون أو التخاذل .. ولكن ، ها هو ذا لم يستطع أن يقاوم فى نفسه عاطفة الأبوة ، بل نوازع الإنسانية ..

لقد أحس الرجل بمرارة انفطر لها قلبه ، فلولاه —

بحكم أنه عائلها — لما تعرضت هذه الفتاة الرقيقة لمثل هذه الأزمة النفسية الساحقة .. لقد قربها من القصر لما له فيه من مكانة كبيرة .. وما كان يظن أن مارى الوديعة — وهى فى مكان ابنته — ستكون نهبا لأمور السياسة وتقاليد البلاط المتوارثة .. ولكنه الأمين على مجريات الأمور .. ومهما وصلت إليه الأحوال ، فلا يجب أن يتراجع !! لقد أصبح الكــلّ فى حيرة .. يتجرعون مرارة الجحود والألم !

الاستسلام :

لقد فكر مزاران بمنطقه السياسى لكى يضع حدا لهذه المتاعب التى تطوى الجميع فى دواماتها .. فقرر أن يزوج الفتاة من أحد نبلاء باريس .. علّها تبدأ معه حياة مستقرة تنسى فيها نزوات الماضى .. والأيام كفيلة بأن تجعل من الماضى مجرد تاريخ تندثر معالمه يوما بعد يوم ..

ووقع اختياره على الأمير كولونا مــن أشراف نابولى .. وهو من بيت عريق يرتبط وعائلة مزاران بصلة قرابة بعيدة .. ورضخت مارى لقرار خالها مرة أخرى .. وأخذت تعد نفسها لأن تساق إلى بيت النبيـل الإيطـالى فى استسلام ورضى بالقسمـــة والنصيب !

ولكن الأقدار شاءت أن يموت الكاردينال قبل أن يتم عقد الزواج بأيام .. وكان بوسع الفتاة البائسة أن تعدل عن الزواج .. ولـكنها سكـنت إلى نفسهــا المكـدودة .. ومـا أكثر مـا خلــدت إلى التأمـــل والتفكير .. وأخذت تمعن النظر فى ظروفها وما طرأ على حياتها وما آلت إليه أمورها :

لقد حرمت من حبيبها إلى الأبد .. ثم ماذا بعد ؟ فعندما يحب الإنسان ، لا يرى فى الدنيا كلها غير حبيبه ، تنحسر الرؤية إلا عن صورته هو .. والكل من بعده سواسية ! وها هى ذى ترى الرجال من بعد حبيبهامتساوين .. فلا خيار ولا تفضيل .. الكل على هيئة واحدة .. فليكن الشريف الإيطالى .. أو ليكن غيره .. ولتعتز بذكرى خالها العظيم .. ولتنفذ رغبته وفاء له بعد موته !

الزواج الحزين :

وفى عام ١٦٦١ ، غادرت الحسناء التى أرهقت قلبها الغض تقاليد القصور .. فرنسا فى موكب رائع ، يتقدمه جنود الملك ، حاملين الهدايا الثمينة قدموها إليها باسم صاحب العرش .. ذلك العرش الذى كان على قيد خطوات منها بالأمس القريب .. وأصبحت مارى مانسينى زوجة لأمير كولونـا .. وحملت لقب : أميرة كولونا .. وعاشت الزوجة المسالمة المستسلمة فى كنف زوجها .. وقد حاولت جاهدة أن تروض نفسها على معايشته والوفاق معه ..

ورزقت منه بثلاثة أبنـاء .. أودعت فيهم كل حبها وعواطفها وأملها فى السنوات القادمة ! ولكن أخبار فرنسا .. وعاهل فرنسا .. تملأ الدنيا وتقيمها ولا تقعدهـا .. وتطفر صورة حبها القـديم أمــام ناظريها . فتضعـف مقاومتهمــا وتجمــع شتــات ذكرياتها .. فتكاد أن تهتف من أعماقها باسم حبيبها وكيف لها أن تنتزع قلبها من جوفها حتى تعيش فى مأمن من شبح غرامها الكبير ؟!

... ومرت الأيام بحلوها ومرها .. وعاما بعــد عام ، نضجت أميرة كولونا ، وتفتحت مكامــن أنوثتها الصارخة ، فـأضفت عليها جمالا وجاذبيــة تشوبها مسحة حزن دفين .. وبحكم مكانتها العائلية بجوار زوجها ، صارت سيدة المجتمع ، ليس فى نابولى فقط ، بل وفى مجتمعات إيطاليا بأسرها .. وقد كتب المؤرخ الإيطالى الشهير « بوزانتى » يقول عنها : إن أميرة كولونا أصبحت ملهمة فنانينا العظام ، ولا غرو فإن بنات مانسينى أجمل نساء هذا العصر ، ومارى مانسينى هى بلا شك أجمل الأخوات الخمس على الإطلاق ، بل أجمل فتاة جمعت بين الجاذبية والرشاقة والثقافة ! .. وسارت أمورها الزوجية رتيبة .. وإن كانت تزخـر بالنشاطات الاجتماعيـة والواجبــات العائلية ، إلا أنها خالية من الدفء العاطفى الذى تتوق إليه كل امرأة لها قلب ينبض ووجدان تداعبه أحلام الغرام ! إنها تقف أمام مرآتها للتزين كل صباح ..



ماری والوحدة القاتلة فی منفاها البعيد

ولكن لمن تتزين .. إنها تناجى المرآة ، وتحكى لها لواعج نفسها وشحوب وجهها ! وأحس الزوج الغيور بما يعتمل فى صدر زوجته الحسناء .. وكيف أنها تعيش معه جسدا بلا روح ولا مشاعر .. وصبر وتجلد حتى فاض الكيل .. ولم يعد فى مقدوره أن يحتمل بأكثر مما تحمل ..

انهيار القمة .. وصراع المحبين

●● دب الخلاف بين الزوجين بعد أن أحس الرجل بأن حبها للملكها الفرنسى لم تزده الأيام إلا رسوخا فى قلبها.. وبدأ الهمس واللمز يطارده من حوله فى المجتمعات والمنتديات الإيطالية.. فقرر أن يريحها ويستريح منها .. فاتفقا على الانفصال المؤقت فى عام ١٦٦٦ ، ودارت بها الدنيا وتحطمت آمالها وأحلامها فوق رأسها من جديد .. وأصيبت بالاكتئاب .. وانزوت فى قصر منعزل فى أطراف المدينة ، تعيش حياتها فى سكينة واستسلام .. وأخذت تمارس حياتها المعتادة وكأن شيئا لم يحدث ! فقد علمتها الأهوال التى كابدتها فى السنوات الماضية أن كل شيء يساوى لا شيء .. وأن الحياة تسير ، وتشد البشر ليدوروا دورتها ويمضى تعاقب الليل والنهار حتى يتبدد العمر وتندثر الذكريات .. وتتتابع الأجيال .. وتتحطم الآمال .. ولكن الأرض لن

تكف عن الدوران ! وجن جنون الزوج الغيور .. وأحس أن زوجته لا تبالى بمكانته ، ولا تأبه بـه ولا بعائلته العريقة .. وكأنه شيء عابر فى حياتها ، فأخذته العزة بالإثم وتمادى فى أهوائه وعبثه .. إمعانا فى الانتقام منها .. وكان فى حقيقة الأمر ينتقم من نفسه .. فقد ترك لنزواته ومجونه العنان .. فهام على وجهه فى ليـالى نابـولى الحمـراء وحانـاتها وبيـوتها المغلقة .. يتخذ من الساقطات والخليلات من يؤنسن وحدته ، ويملأن فراغ وجدانه ! وكما يفعل المهزومون فى حبهم عادة .. أقدم على تصرفات صبيانية مثيرة .. يرسل من حين لآخر رسله وعملاءه إلى زوجتـه ليهمسوا فى أذنها بأخباره ومغامراته .. ولـكنها لم تنفعـل ، ولم تعر هـذه المهاتـرات أى اهتمام ! إن مشاعرها الفائره فى أعماقها ما زالت هنـاك .. فى باريس ، حيث ملكها ومالك قلبها يرفل فى حلل المجد والسعادة ، ويعلو رأسه تاج العرش ، بين التألـق والتأنق والترف والرفاهية .. إن شغلها الشاغل أبدا ، هو التفكير فيه .. وهل ما زال يحبها وقد صعد نجمه إلى عنان السماء حتى أطلق عليه — آنذاك — مـلك الشمس العظيم ؟!

الهجرة والمطاردة :

قررت مارى ما نسينى (أميرة كولونا) أن تترك نابولى.. لتقيم فى مدينة البندقية.. وما أن علم زوجها بوجهتها حتى استصدر أمرا قضائيا بمنعها من مغادرة المدينة.. لقد بلغ تعنته مداه.. وكلما تمادت هى فى إهماله غير مبالية بأخباره وتصرفاته ، ازداد رعونـة إزاءها عله بذلك يخفف من آلام قلبه الجريح !

و لم تجد الزوجة اليائسة بدا من أن ترحل عن إيطاليا كلها سرا دون إعلان.. فاضطرت إلى التنكر فى ثياب رجل.. وواصلت هجرتها إلى مدينة الذكريـات.. إلى باريس !

وما إن حلت بالعاصمة الفرنسية ، حتى طفت على السطح مشاكل وتحسبات قـديمة .. فـأسرع المستشارون يعقدون المؤتمرات فى القصر الملكى .. ويتخذون القرارات حفاظا على مشاعر الملك وكيان العرش ووحدة الرباط الأسرى الذى تنعم فيه فرنسا بمصاهرتها لأسبانيا !

وروعت المحبة التعسة ، بأن فوجئت بقرار ملكى من صاحب التاج يأمر فيه بأن ترسل مارى ما نسينى إلى الدير .. لتقضى حياتها فى العبـادة .. ولتتـرك مشاغل الدنيا بأسرها ! ذهلت الفتاة لما آلت إليـه أحوالها .. إن حبيبها الذى سلبها كيانها وحياتها يأمر بإيداعها فى الدير .. إنه السجن المهذب .. أو السم الزعاف فى كأس من ذهب .. فبدلا من أن ترى حبيبها يرحب بمقدمها ويفتح لها أبواب قصوره .. بل ويفتح لها قلبه وأحضانه .. رأته يتنكر لها ويحطم ما بقى من صوابها بضربة واحدة .. وهى التى كانت تعد الساعات وتستعجل اللحظات فى أثناء رحلتها الشاقة الجسورة مهاجرة إليه .. وتتمادى فى أحلامها وتصوراتها ، فتتخيـل نفسهـا تجلس بجانبـه على العرش .. لينتصر الحب فى النهاية بعد طول فـراق وحرمان .. ولكن .. ما أقسى الواقع المرير !!

وأفاقت من أحلامها .. لتثوب إلى رشدها وتفكر جديا فى واقع الأمور .. بعقلهـا لا بقـلبها .. لقـد أدركت أنه لا أمل لها فى استئناف الحياة السعيدة — أو غير السعيدة — فى فرنسا من جديد .

وفى يأس قاتل .. عادت إلى إيطاليا سرا كما غادرتها بالأمس القريب .. واستقر بها المقام فى مدينة ميلانو لتحيا حياتها الفارغة من كل مضمون .. بأى شكل وعلى أية صورة .. ولن تعد الأيام بعـد ذلك .. تتلاحق أو تتباطأ .. فليس هناك من هدف تسعى إليه .. أو أمل ترجو أن يتحقـق .. فقـد تبـددت الأهداف والآمال فى قصر باريس الكبير !

وما أن علم الزوج المهجور بوجودها فى ميلانو ، حتى أرسل فى طلبها محاولا أن يعيدها إليه ، فهربت مرة أخرى إلى شمال البلاد .. ولم يكف عن تعقبها والتربص بها ، فاستصدر أمرا بالقبض عليها حيث تكون .. وكانت فى بلجيكا .. واستغـل الـزوج مكانته ، وسعى إلى حكامها لكى ينفذوا أمر القبض عليها .. ولما تعثرت المحاولة ، استصدر أمرا قضائيا بإرغامها على دخول الدير فى بروكسل ! وحينذاك ، أدركت الزوجة المحطمة أنه لا سبيل للتخلص من



ملاحقة زوجها إلا بالفرار إلى بلد خارج حدود سلطانه ، فتمكنت من الهرب إلى أسبانيا فى سنة ١٦٧٤ .. وبالرغم من أن إقامتها قد طالت نحو خمسة عشر عاما .. إلا أنها لم تنعم خلالها بالاستقرار .. ولم تذق طعم راحة البال فى يوم من الأيام ..

فقد جرت العادة آنذاك ، أن يتعاون الملوك والأمراء فيما بينهم لقضاء مآربهم الشخصية ، لاسيما وأن مارى ما نسينى — بالرغم من شهرتها كسيدة مجتمع حسناء لها صولاتها وجولاتها إلا أنها فى ظروفها التعسة هذه ، لم يكن لديها من الخلصاء أصحاب النفوذ من يشفع لها لدى البلاط والحكام .. لا فى فرنسا ، ولا فى أسبانيا ، ولا فى إيطاليا .. !!

ولهذا نراها حائرة تتخبط فى ترحالها من بلد إلى بلد ، وتهرب خفية فى حلك الظلام هنا وهناك ، وهى لا تدرى من أمر نفسها شيئا ، ولا تعرف يقينا إلى أين تتجه ، فزوجها الذى أحبها .. أودى بكيانه حبًّا .. فتحطم ، وقد نذر نفسه لأن يحطم بدوره ما بقى منها .. إن كان قد بقى منها شىء ! لقد ضاقت بها الدنيا على رحابتها .. وأغلقت كل الأبواب فى وجهها ، ولم يبق إلا أبواب الأديرة لتسجن بين أسوارها العتيقة ما بقى من عمرها !!

الحرية .. أخيرا

وفى مغامرة يائسة أخيرة فرت إلى النمسا .. وكان زوجها يتعقب خطاها أينما ذهبت ، حتى إنها صارت لا تخرج لقضاء مصالحها إلا خفية فى جنح الظلام !

ولكنه أسرع خلفها يستعدى السلطات عليها .. حتى استطاع أن يتم القبض عليها وأن تودع فى أحد السجون هناك .. على أن تكون حريتها مرهونة بأمر زوجها .. وكيف السبيل إلى أن يصفح عنها أو أن يغفر لها ما أنزلته به من الدمار والضياع ؟!

... وظلت فى سجنها .. وها هى ذى قد بلغت



موكب لويس الرابع عشر
للفنان شارل لوبرون
منفذة بالجوبلان

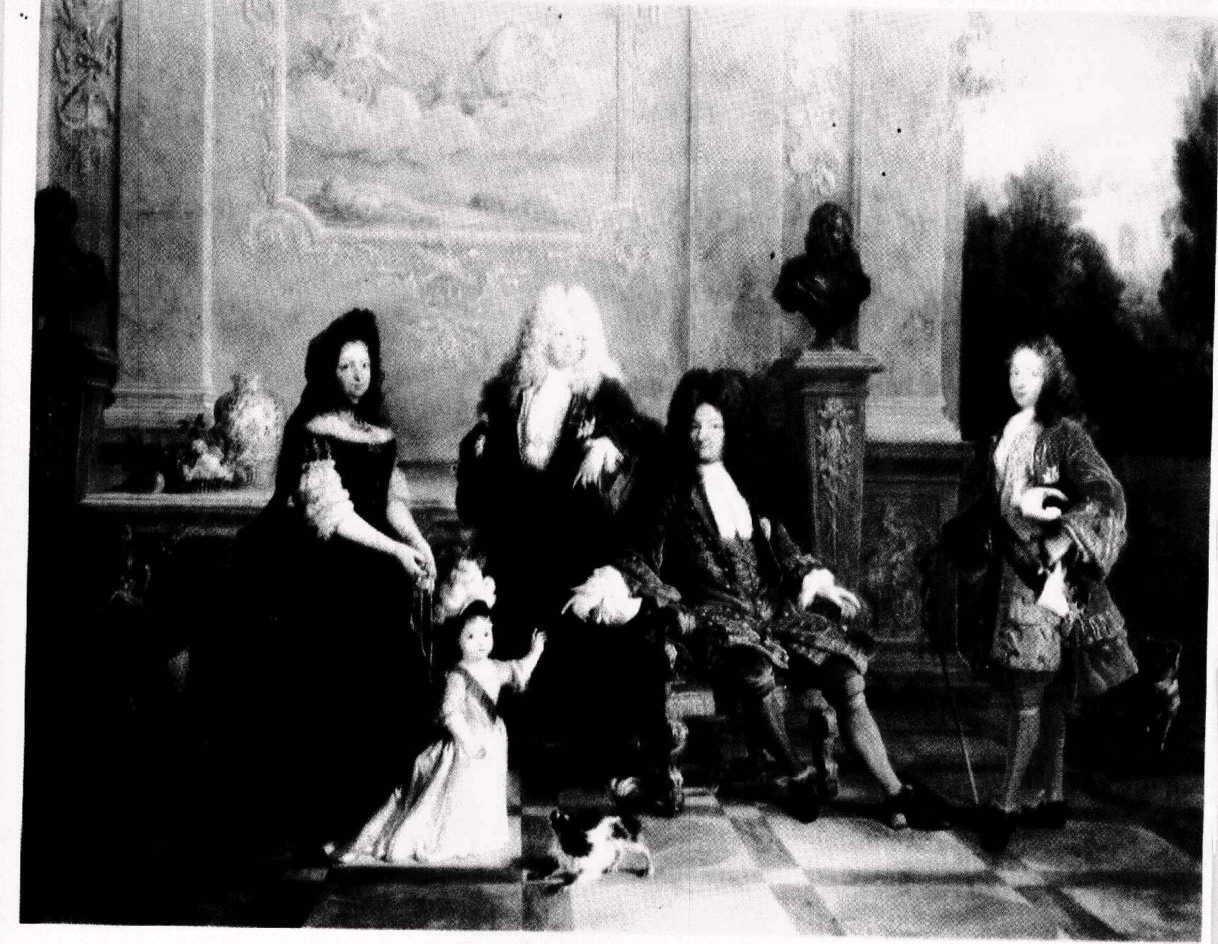
الخمسين من عمرها .. ولم تمض خلف القضبان سوى شهور قلائل .. حتى جاءها الفرج .. لقد مات زوجها أمير كولونا ، لعله مات كمدا ويأسا .. وصدق القائل : ومن الحب ما قتل !!

.. وحينئذ فقط .. أصبحت مارى ما نسينى حرة من كل القيود !!

يالسخرية القدر ! لقد أتتها الحرية أخيرا بعد أن بلغت الخمسين .. وربما كانت سن الخمسين عند بعض النساء هى قمة النضج والشباب .. ولكنها بكل ماحاق بها من أهوال ونكبات ، تجد نفسها وقد ذبل جمالها قبل الأوان .. ونضبت ينابيع الرواء لتنذرها بالحرمان والجفاف ما بقى من عمرها ، وأصبح جسدها نحيلا .. يكاد أن يتساقط من فوق ساقيها الهزيلتين .. كأوراق الخريف لا يقوى على حملها عودها الواهن المكدود !! ومع هذا اليأس المرير .. أشرقت لها بارقة أمل :

لقد اشتاقت إلى البيت .. والأسرة .. والأهل والصحاب .. ولكنها نبذت إلى الأبد فكرة الزواج من جديد .. فعزمت على أن تلجأ إلى أولادها الذين حرمت منهم طويلا فى صراع ساحق لا هوادة فيه .. تارة مع الزوج الغيور الحقود .. وتارة أخرى مع غرامها اليائس الذى ظنت به أنها تناطح السحاب .. فأضحى حبا محرما .. وسرابا مخادعا يقع فى شراكه الظمأى والحيارى والمتعبون والبائسون ! .

ليس لها اليوم إلا قلوب أبنائها .. إنه الحب الطبيعى فى غير تصنع ولازيف ولا نفاق .. وبرفقة أبنائها أحست بدفء المشاعر لأول مرة فى حياتها بعد طول التخبط والضياع .. وكان أبناؤها الثلاثة أسعد



أسرة لويس الرابع عشر — عام ١٧٠٩ (للفنان نيكولاس لاى لارجيير)

الناس بقدومها إليهم بعد أن انتهت الأعاصير والصواعق ! .

●● ومرت الأيام هادئة آمنة ، وتلقت مارى دعوة من ملك أسبانيا وملكتها للإقامة بينهم فى رعايتهم إذا أرادت .. وتاقت نفسها إلى أن تشعر بالتكريم فى رحاب القصور . ولو لمرة واحدة قبل أن تودع عالم الحياة .. فقبلت الدعوة الملكية .. وعاشت بضع سنوات .. ضيفة على أصحاب العرش الأسبانى .. ولكنها شعرت بوطأة سنوات عمرها تثقل كاهلها .. فعادت إلى أبنائها فى إيطاليا ، حيث ماتت بينهم فى مدينة « بيزا » عام ١٧١٥ . وكانت فى السادسة والسبعين من عمرها ..

وتشاء الأقدار ، أن تموت فى نفس العام الذى مات فيه لويس الرابع عشر ، وهو الذى أوشك فى يوم من الأيام أن يجعل منها ملكة لفرنسا .. وهو الذى خفق قلبه بحبها لأول مرة فى حياته .. كما أنه المحب الولهان الذى بكى مرة واحدة طوال سنين عمره ، عندما أبلغوه بأنه سيتزوج الأميرة الأسبانية ، وعليه ألا يفكر فى حبيبته مارى ما نسينى ؟!

●● وهكذا صارت قصتهما بكل مفآجاتها وأحداثها وأفراحها وأتراحها .. تاريخا يتلى على مسامع الأجيال المتعاقبة .. كما كانت مغامراتهما وغرامهما إلهاما للفنانين عبر العصور .. يخلدونها إبداعا وفنا رفيعا يحفظ فى أطر من ذهب بأروقة المتاحف .. لتظل راسخة فى وجداننا ، ولتتمثل فى أذهاننا على الدوام .. قصة قلبين جمعت بينهما أنبل العواطف الإنسانية ، حتى فرقتهما طقوس التقاليد وأعاصير السياسة وأطماع القصور الحاكمة !

سهام كيوبيد .. وعشر سنوات رهيبة



ما زالت الأساطير الإغريقية التى تمزج بين الخيال والواقع ، منهلا سائغا يروى ظمأ القرائح المبدعة شعرا وأدبا وفنا وتعبيرا وجدانيا بكل أشكاله وألوانه ونزعاته على مر العصور .

فما من فنان خلد التاريخ اسمه فى سجل الإبداع العالمى ، إلا وقد أدلى بدلوه فى هذه الكنوز التراثية وآفاقها الخيالية المثيرة .

●● فى أواخر القرن الثامن عشر ظهرت مدرسة فنية فى

هوميروس والإلياذة

تعتبر الإلياذة من أروع الآثار الشعرية الملحمية عند جميع الشعوب وفى جميع العصور ، وتنسب الإلياذة مع الأوديسا إلى الشاعر اليونانى هوميروس الذى أجمع معظم المؤرخين على أنه عاش فيما بين عامى ١٠٥٠ و ٨٥٠ قبل الميلاد ، ومنذ القرن الثانى قبل الميلاد والخلاف على أشده بين الأدباء ومؤرخى الآثار الأدبية حول صلة هوميروس بالإلياذة ، هل هو مؤلفها الأصلى ، أم أنه مجرد شاعر جوال احترف روايتها وإنشادها ؟ وكيف بقيت موحّدة متكاملة طوال تلك القرون من بين تراكمات شتى من الأشعار والملاحم التى خلفها الأغريق ضمن ما خلفوا من الآثار الادبية ؟

ولقد وقعت الأحداث التى تضمنتها الإلياذة فى فترة من الزمن قبل عام ١١٠٠ ق .م . ويعتقد أن قصائد هوميروس إنما جمعها ودونها « بيزيستراتوس » فى عصر « الشعر الملحمى » أو فى العصر الثانى من عصور الأدب اليونانى ، وهو الذى ينتهى عام ٦٠٠ ق . م . والراجح أن الإلياذة قد استلهمت أو اعتمدت على قصائد شعرية سابقة لهذا التاريخ ، ذلك لأن الكمال البنائىّ الملحمى الذى تتسم به فى الشكل والنظم والبناء معا ، لا يمكن أن يتم فجأة ، ولكنه خلاصة عهود وأزمان سابقة أفرزت هذه الإبداعات الشعرية التى كانت تواكب الأحداث المتتالية .. وقد تم استخلاصها وترتيبها بتؤدة فى وقت لاحق .

ويؤلف عدد من تلك الأشعار الملحمية ما اصطلح على تسميته « الحلقة الطروادية » لأنها تتصل كلها بحروب طروادة التى نشبت بين جيش إسبارطة وحلفائها ، وجيش طروادة .. تلك الحرب التى طالت لعشر سنوات رهيبة ..

وليست إلياذة هوميروس هى الإلياذة الوحيدة فى

العاصمة الفرنسية ، تقوم أساسا على إحياء الكلاسيكية الإغريقية والحضارة الوطنية الرومانية التى قامت على انقاضها ، مستمدة موضوعاتها وأسلوبها من روح تلك العصور المثالية وبطولاتها الخارقة ، ولذلك أطلق على هذه المدرسة الفنية المرتدة اسم : الكلاسيكية الجديدة ، وهى التى ظهرت فى باريس مصاحبة للثورة الفرنسية ، وتزعمها آنذاك الفنان الشهير جاك لويس دافيد . وحتى يومنا هذا ، مازالت الأساطير الإغريقية مثارا لخيال المبدعين المنقبين عن درر التاريخ العريق .

وقصة هيلين « أو إيلينا » فاتنة طروادة .. أو حصار طروادة .. أو حصان طروادة .. كلها أسماء لحدث واحد ، ولكنه حدث ملحمى ممتع ، خلده « هوميروس » فى « الإلياذة » ، فصار أنشودة شعر ، وأغنية حب ، وصرخة حرب ، وآهة غرام واشتياق ، وفى نفس الوقت .. لمسة فنية فى لوحات الفنانين العظام !

الحسناء .. وسهام كيوبيد

ولنبدأ قصة الحسناء التى اقتتل من أجلها الملوك ، واستنفرت فى سبيلها الجيوش لمدة عشر سنوات كاملة .. وأستميحكم عذرا — قراءنا الأعزاء — إذا ذكرت فى سياق حديثنا كلمات « معبود » أو « إله » أو غير ذلك من التعبيرات ، حسب المعتقدات الإغريقية القديمة ، فقد كان لكل شىء فى حياتهم من معنويات محسوسة أو ماديات ملموسة .. إله يمثل الرمز

التراث الأدبى الأغريقى ، ولكن هناك إلياذة « فرجيل » ، وعدة ملاحم أخرى متفرقة ، ولكن أشهرها وأكثرها اكتمالا لمواصفات « الملحمة » هى إلياذة هوميروس ، وحسبنا أنها كانت النموذج الذى اهتدى به أرسطو فى تعريف الملحمة . وقد نقلت الإلياذة إلى جميع اللغات الحية المعروفة فى العالم ، وتأثر بها الشعراء والفنانون فاستلهموا أحداثها وشخوصها ، وتناولها المبدعون فى كل مكان يأخذون منها ويدورون حولها ، ويضيفون إلى وقائعها أحداثا لم تكن واردة فى إلياذة هوميروس .. ولعل رحابة هذه الدراما الملحمية هى التى جعلت منها نهلاً سائغا لكل من أدلى بدلوه فيها .. ولذلك رأينا أن الفنانين العظام على مر العصور قد استلهموا أحداثها فى إبداعاتهم الخالدة كما نرى على هذه الصفحات ، وكانت الشخصيات النسائية مثارا لخيال وقرائح الفنانين فصاغوا منها أجمل لوحاتهم الرائعة !



الملاحم التاريخية الشهيرة التى طالما تغنى بها الرواة على مر العصور

الخالق والمتحكم فى مجريات أمورهم .

●● فى هذه الأسطورة نجد أن « زيوس » أو « جوبتر » كان معبودا جبارا سيء السمعة ، يتعقب النساء ويتلصص على مضاجعهن ، ويكلف أتباعة بالبحث عن الجميلات منهن.وكانت الملكة « ليدا » زوجة « تندارس » ملك إسبارطة أجمل نساء عصرها ، وقد حاولت أن تصد عنها هذا العابث المتلصص ، فاحتاطت من غدره بالتستر والحراسة والرقابة الدائبة ، وأحاطها زوجها الغيور بالجاريات والغلمان المسلحين ، لا يفارقونها حيثما ذهبت . إلا أن جوبتر تخفى فى صورة بجعة بيضاء جميلة تحوم حول القصر الملكى ، وتسبح فى حمام الملكة برشاقة كلما خلعت ليدا ملابسها وهبطت إلى البركة المرمرية لأخذ حمامها صباح كل يوم . وأحبت الملكة هذه البجعة البيضاء التى تشاركها السباحة فى ألفة ودودة .. وأمرت أتباعها بأن يأتوا بها لتصحبها فى نزهاتها الخلوية وجلساتها بين خمائل قصرها .

وقالت الأسطورة : إن ثمرة هذا الغرام بين الملكة والبجعة (أو بين ليدا وجوبتر) جاءت لائقة بمقام الأب وفتنة الأم وروعة الحدث العظيم !

فقد وضعت ليدا طفلة جميلة سمتها « هيلين » اتسمت بالبهاء والجاذبية .. فأطلق عليها الناس : هيلين الفاتنة !

ومرت السنوات .. وكبرت هيلين وأصبحت فتاة رائعة الجمال .. ومات أبوها الملك تندارس ، وخلفه ملك يدعى « منيلاس » على حكم إسبارطة .. وكان منيلاس شابا وسيما يحب الأجواء الشاعرية ويتغنى بالحب ويهيم بالجمال .. أخذ ينقب فى أرجاء مملكة عن أجمل فتاة تصلح زوجة له ، فلم يجد أجمل من هيلين .. فقربها إليه ، وشغف بها حتى أحبها وأحبته .. ثم تزوجها فى حفل ملكى كبير .. وكاد منيلاس يطير من الفرح والسعادة ، فقد اقترن بابنة الإله جوبتر .. هيلين الفاتنة .. أجمل نساء البشر على الإطلاق !

وكانت دولة إسبارطة الإغريقية تتمتع باحترام كافة دول اليونان وتحظى بتأييد جيرانها .. ولم يؤرقها أو يعكر صفو الحياة فيها سوى دولة طروادة القابعة على ساحل آسيا الصغرى .. حيث كانت تنافسها فى السطوة والجاه والرخاء ، وفى قوة الجيوش ومناعة الحصون .

وكان على عرش طروادة ملك مهيب يدعى « بريام » شيّد حولها أبراجا شاهقة وأسوارا منيعة تحرسها جيوش جرارة للدفاع عنها وتوسيع رقعة أملاكها .. كما كانت المفاوضات بين الدولتين تجرى بين وقت وآخر لتنظيم العلاقات بين شعبيهما . وحدث أن أوفد بريام ابنه الشاب « باريس » على رأس المفاوضين إلى ملك إسبارطة « منيلاس » فاستقبل الوفد الطروادى بالحفاوة البالغة ، وأقيم له احتفال كبير فى القصر الملكى .. وفى تلك الليلة الساهرة السامرة ، وقعت عينا باريس على زوجة مضيفه .. على هيلين الفاتنة ! فراعه جمالها .. ولم يحس بشيء مما يدور فى الحفل الملكى .. ولم يشغل باله ويملأ ناظريه ويملك عليه كل حواسه إلا جمالها الساحر !

ولم ينم ليلته ، فقد وقع أسيرا فى غرامها ! وكان جمال الفتى باريس له مفعول السحر فى قلب فاتنته فى الوقت ذاته ! فأحدث بها ذات الأثر ، ونفذت سهام كيوبيد فى قلبيهما كما لو كانا على موعد وكان كيوبيد « إله الحب » يحلق فوق رءوس الحضور ، وبين لحظة وأخرى يصوب سهامه إلى قلب باريس تارة ، وتارة أخرى إلى قلب هيلين حتى نفدت كل السهام فى نهاية الحفل الصاخب الكبير !

خطة أفروديت .

وتقول الأسطورة : وهنا كان لابد أن تتدخل « أفروديت » ربة الجمال ، فتهبط من عليائها إلى الأرض لتبارك هذه العاطفة المستعرة ، وتربط بين الحبيبين برباط الغرام ، ورسمت خطة محكمة للقائهما



بعيدا عن أعين الرقباء .

لقد اختطفت هيلين من خدرها بعد أن أوت إلى فراشها .. كما اختطفت باريس فى نفس الوقت ، وحلقت بهما ، ثم هبطت فى مكان قصى خارج حدود إسبارطة .. فى جزيرة نائية تسمى « كراناى » ، حيث قضى العاشقان شهر العسل هناك ، غير عابئين بما يجرى فى القصر الذى شهد مولد حبهما العظيم ، ولا بما سوف يترتب على هذا الحدث المثير ! ثم واصلا السفر إلى طروادة .

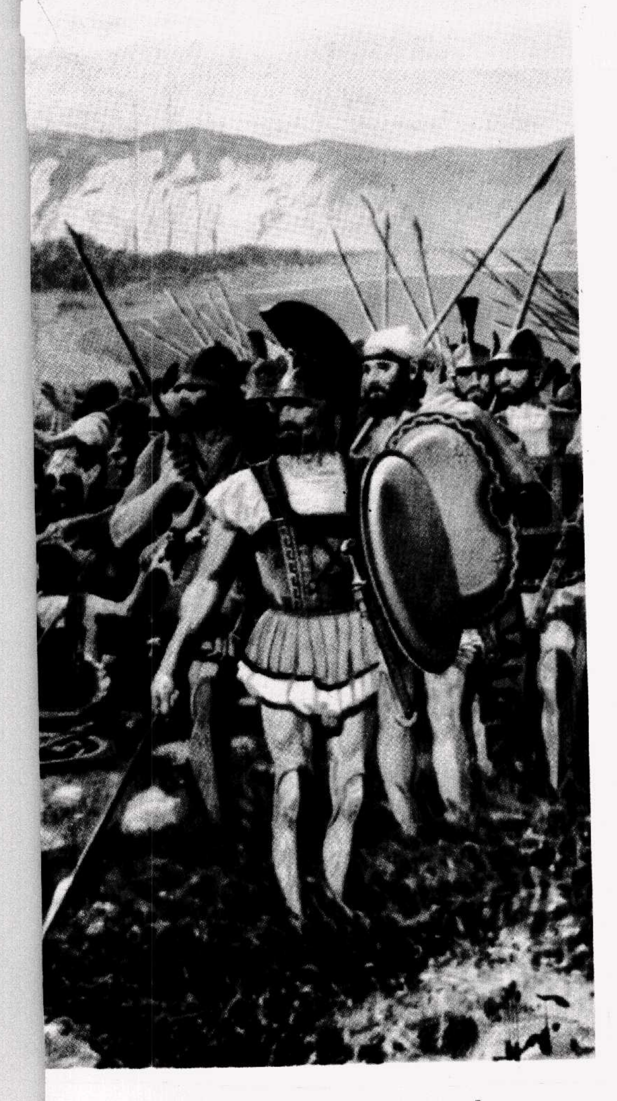
ولكن ملك إسبارطه « منيلاس » أذهلته تلك الفعلة الشنعاء .. وهو يرى زوجته وقد انتزعها باريس من قصره .. ورحل بها دون أن يعمل أى حساب له ولكرامة دولته .. ودون أن يخشى منه الردع والعقاب !

وذعر أهل إسبارطه من هول هذا الحادث الرهيب .. وهبوا مطالبين بالثأر والانتقام .. فحشدوا جيوشهم ، واستنفروا رجالهم ونساءهم وذهبت جموعهم إلى طرواده ، عازمين على دك حصونها وذبح سكانها ورد الزوجة الحسناء إلى ملكهم الذى يحبونه ويكنون له كل الإخلاص والولاء .. وما إن علمت الممالك اليونانية الأخرى حتى أسرعت إلى التحالف مع إسبارطه ، وتطوعوا بالوقوف مع منيلاس ضد طروادة .

ويذكر « هوميروس » فى الإلياذة أن عدد الدول اليونانية التى تحالفت مع إسبارطه قد بلغ سبعا وخمسين دولة .

وعقد الحلفاء مؤتمرا حاسما فى مدينة « ميسينا » حيث نصبوا شقيق منيلاس « أجا ممنون » ملك « آرجوس » قائدا عاما لجيشهم الموحد .

وزحف أجا ممنون على رأس مائة ألف محارب إلى سواحل طروادة وحاصروها ، ثم هاجموا أسوارها ، ولم تكن معركة هينة .. فقد حشد « بريام » وابنه



« باريس » وأعوانهما جيشا عظيم العدد والعدة تحت قيادة « هكتور بن بريام » وهو شقيق باريس الأكبر ، لمنع المهاجمين من الوصول إلى غايتهم ونيل المرأة الفاتنة التى قامت من أجلها الحرب !

الخديعة

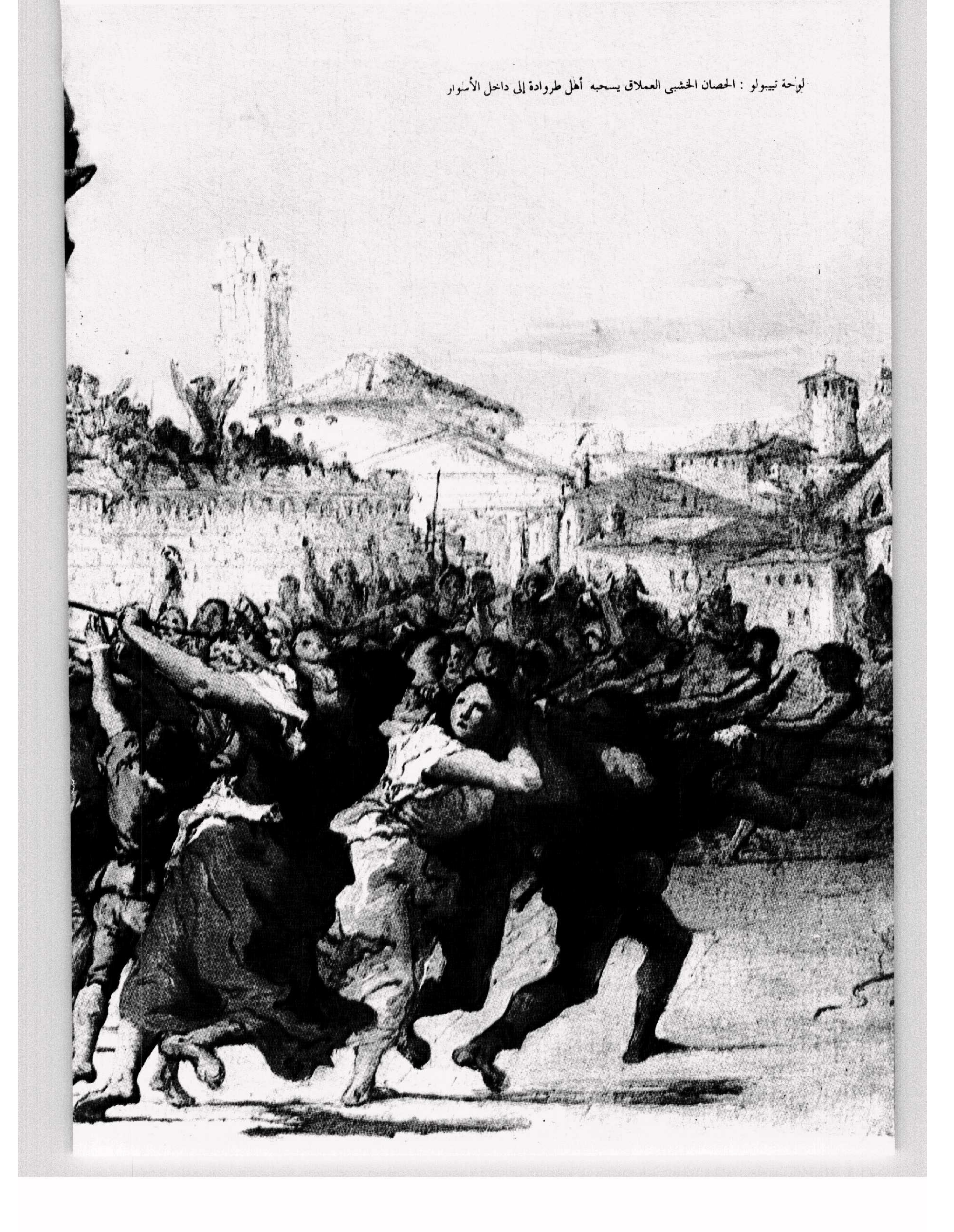
ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة ومذابح رهيبة .. وتوالت الإمدادات من هنا وهناك ، وشهدت أسوار طروادة أعنف مناورات الكر والفر والقتل والدمار ، وظلت المعارك محتدمة عاما بعد عام .. لمدة عشر سنوات كاملة . ولذلك عرفت فى



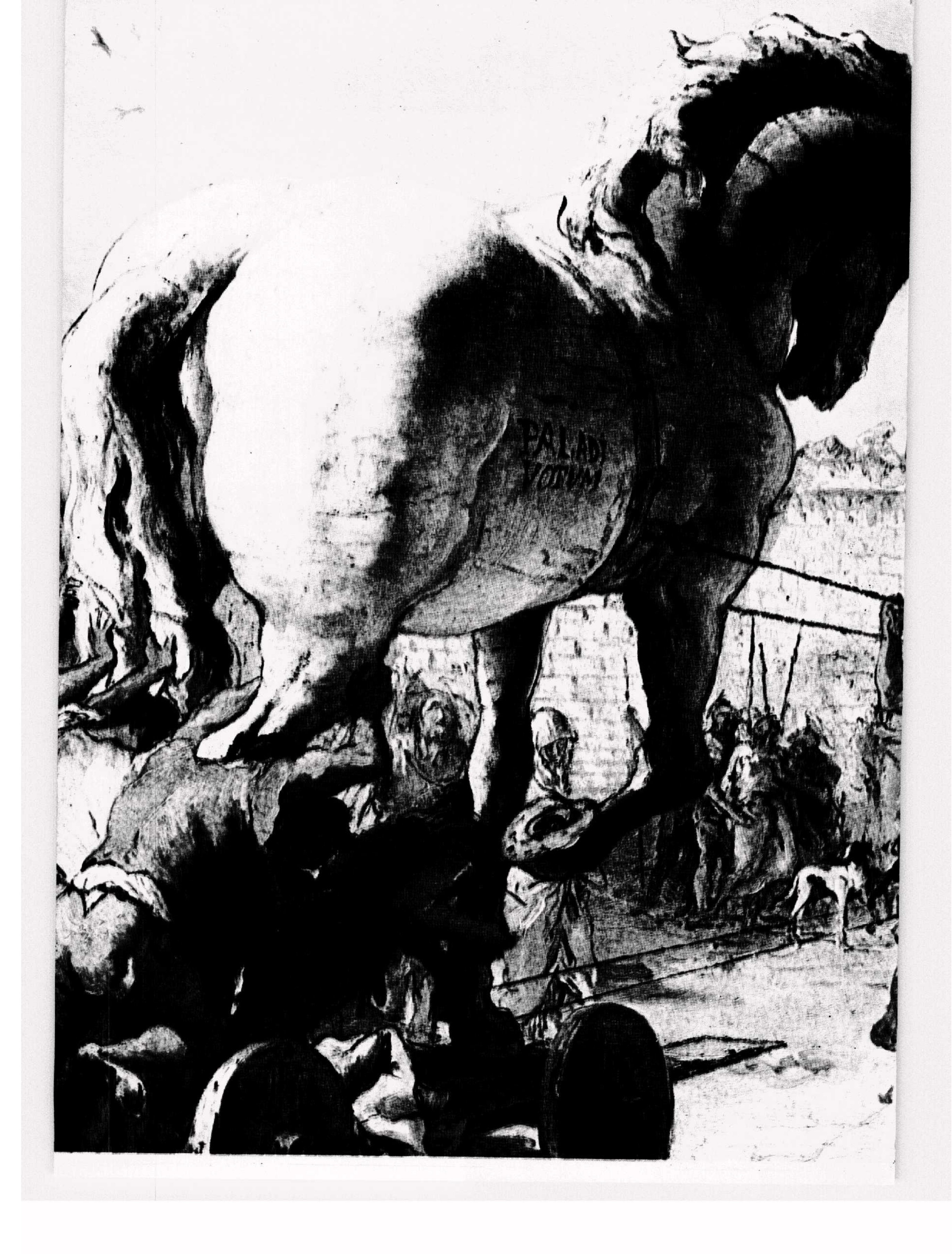
التاريخ بحرب السنوات العشر . وفى النهاية.. اقتحم الحلفاء اليونانيون أسوار المدينة الحصينة بفضل الحيلة التى ابتكرها أحد قادتهم هو « يوليوس » فقد صنع هذا القائد الماكر حصانا عملاقا من الخشب ، اختبأت فى جوفه كتيبة من المحاربين الأشداء ، وتركه عند الأسوار ، متظاهرا بالفرار مع جنوده ، فوجدها الطرواديون فرصة سانحة لتعقبه وجمع الغنائم التى خلفها وراءه .. وعادوا مع حلول الظلام إلى حصونهم وأبراجهم المدججة بالرجال والسلاح .. ولكنهم احتاروا فى أمر هذا الهيكل الخشبى الغريب .. وأجمعوا على أنه مغنم ثمين سيحتفظون به رمزا لقهر عدوهم وانتصارهم عليه .. فسحبوه إلى داخل الأسوار ، وأرسلوا المنادين فى أرجاء العاصمة ليخبروا القادة والحكماء وكل من لديهم الرأى والحكمة ، ليجتمعوا فى صباح اليوم التالى حتى يتناقشوا ويخرجوا برأى نهائى فى أمر هذا الحصان العملاق ..

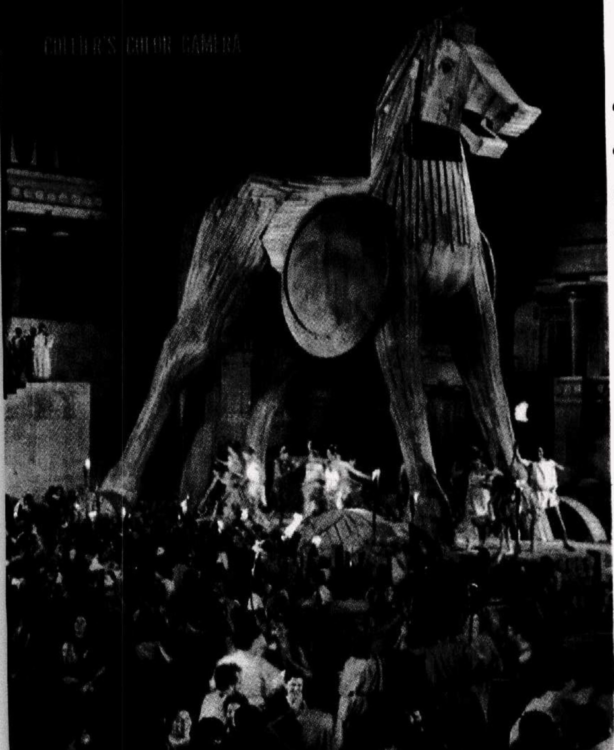
وخيم الليل والسكون على جموع المحاربين المكدودين ، بعد أن أعياهم كفاح يوم طويل مثقل بالنزال وحمل الغنائم والقتلى والجرحى وأكداس السلاح والمؤن والعتاد .. وأوى الجميع إلى فراشهم .. ليستمتعوا بالنوم وبالهدوء والسكينة لأول مرة بعد هذه السنوات الطويلة ..

أما باريس فقد احتفل فى ليلة الانتصار بأن جمع



لوحة تييبولو : الحصان الخشبى العملاق يسحبه أهل طروادة إلى داخل الأسوار


PALADI
VOTUM



تفننت شركات إنتاج الأفلام السينمائية فى إخراج قصة حصان طروادة أكثر من مرة ، وهذا هو حصان طروادة كما رأيناه فى أحد الأفلام الأمريكية



عائلته الملكية حول مجلس فاتنته السكرى بكئوس الحب وأطيافه الوردية وأخذوا يباركون غرامهما من جديد ، وقد أعادت نشوة الانتصار إلى أذهانهم ذكرى المغامرة الجسورة التى أفقدت أسبارطة صوابهم وأهاجت حفيظتهم وأحقادهم على طروادة المنيعة .. وأخذ كل منهم يتباهى ببطولاته فى حرب الأعداء ، ويعدد مواقف رجاله فى وجه أعتى القوى اليونانية الغازية !

وتحولت عواطفهم إلى جانب هيلين وباريس ، بعد أن رأوا فى غرامهما رمزا لمقاومة إسبارطة التى طالما أفزعهم تسلطها وثراؤها وقوة جيشها ، وأجمعوا على أن صراعاتهم الطويلة مع هذه الدولة المنافسة كان لابد لها من سبب يفجر الحرب المتوقعة بينهما بين يوم وآخر ! ولكنهم — كما أعلنوا — لم يتوقعوا أن هذه الشرارة التى أحرقت أعداءهم ستأتى من أجمل النساء .. من هيلين الفاتنة .. لقد أضحت شعارا لاسترداد الكرامة والتفانى فى الحفاظ على قوة الشعب ووحدته وانتصاره ..

وما هذا الحصان العملاق الذى يقف شامخا داخل الأسوار ، يتسامى بقامته إلى مستوى حصونهم المنيعة ، إلا رمز للدولة المنتصرة .. وشهادة بأن طروادة تملك القوة والنفوذ .. كما تملك فى الوقت ذاته المرأة الفاتنة .. هى أجمل نساء الأرض على الأطلاق !

وبعد هذا الحفل العائلى الذى يعبق بعطر النصر والخيلاء انفض السامر .. وراح الجميع فى سبات عميق ..

ولم يدر بخلدهم ماذا يخبئه لهم ظلام الليل الرهيب !

الفاتنة بين الحرب

عندما اطمأن المحاربون الأسبارطيون القابعون فى جوف الحصان الخشبى إلى استسلام الطروادين للنوم والسكينة ، فتحوا طاقة فى بطن الحصان ، وانطلقوا



لوحة الفنان (لورانس ألما تاديما) : هيلين ووصيفاتها يرقبن الأساطيل الغازية

هابطين واحدا تلو الآخر ، حتى إذا ما اجتمع شملهم ، أسرعوا إلى أبواب الحصون ففتحوها لرفاقهم ، وأعطوهم الإشارة المتفق عليها من قبل ، وبدأ الهجوم الساحق من كل اتجاه وخصصوا للقصر الملكى ألفا من أمهر محاربيهم ، كانت مهمتهم الأولى هى الحفاظ على حياة الفاتنة هيلين وسلامتها .. حتى لا يصيبها أى مكروه .. وقام المحاربون بمهمتهم خير قيام .. وبعد أن اطمأنوا على نجاح خطتهم فى استخلاص هيلين ، أشبعوا شهوتهم الجامحة فى القتل والحرق والتدمير ، وما هى إلا ساعات معدودة حتى أحالوا المدينة إلى ركام من الدماء والدمار !

ذلك هو (حصان طروادة) الذى يضرب به المثل منذ ذلك الوقت ، ويرمز به إلى من تنطلى عليه الحيلة والخديعة ، فيسهل على عدوه اقتحام حصونه والانتصار عليه !

وقد كان هذا الحادث حريا بأن يلهم المبدعين بهذا المزج الرائع بين الخيال وتفتق الأذهان والقرائح ، وبين الحقائق التاريخية والقصص الأسطورية المثيرة ، ولا سيما إذا احتوت هذه القصص على لمسات الغرام الحانية وبراعة الحيلة والدهاء وشهوة الثأر والانتقام .. كما تتخلل أحداثها الدرامية مواقف النخوة والفداء .

هيلين بعد العاصفة

أما فاتنتنا التى قامت من أجلها هذه الحروب الدامية ، نراها فى أول الأمر وقد سحر لبها فتاها باريس ، فانقادت إليه مسلوبة الفؤاد ، وبعد أن سكرت بدفء الحب حتى الثمالة فى الجزيرة النائية التى قضيا بين خمائلها شهر العسل .. صحبته راضية إلى طروادة ، غير عابئة بزوجها ولا بوطنها اليونانى المتحفز للانتقام ..

وبينما كان الملوك والأبطال يتطاحنون أمام أسوار طروادة ، كانت الفاتنة تقيم بقصر الملك بريام فى كنف حبيبها باريس .. وبلغ بريام سن الشيخوخة التى زادت من ثقلها على كاهله تلك الحرب الرهيبة ، ولكنه لم يتنكر يوما لهيلين و لم يلقها إلا بشوشا مرحبا بها ودودا إليها عاملا على استرضائها وسعادتها فى وطنها الجديد ! وكان يأمر حاشيته وشعبه بأن ينظروا إليها كزوجة شرعية لابنه باريس . أما هى ، فقد تلاطمت فى صدرها مشاعر متناقضة : فهى تارة تحن إلى بيئتها الإغريقية وتهفو إلى وطنها الذى ترعرعت على ترابه ، وتندم على ما بدر منها نحو زوجها منيلاس ملك إسبارطة من خيانة وغدر ، وهو الذى هام حبا بها ، وتفانى فى إسعادها والترفيه عنها .

وتارة أخرى ، تنسى ذلك كله ، وتتغنى بحب باريس وبكرم الطرواديين ، وبما تنعم به فى القصر الملكى من رعاية وتبجيل . بل إنها كثيراً ما كانت تضرع إلى آلهتها لكى تنصر حبيبها على زوجها وحلفائه !

أما أهل طروادة ، وهم بين شقى الرحى ، فكانوا يحقدون على هيلين فى دخيلة نفوسهم .. فهى التى جلبت عليهم الخراب والقتل والدمار ، ولكنهم فى الوقت ذاته ينظرون إلى تلك الأحداث الجسيمة على أنها دفاع عن دولتهم وكرامتهم ولأن تكون كلمتهم هى العليا أمام الدولة المنافسة لهم فى الثراء والسيادة .. وقد تتعدد الأسباب ، ولكن الصدام بين الدولتين الكبيرتين واقع لا محالة ، وكانوا يتوقعونه بين يوم وآخر .. لأن التنافس من القمة هو سبب كاف لأن تحدث المجابهة لسبب واقع أو مفتعل ، أو لخطأ متعمد أو غير متعمد .. أو لغير سبب على الأطلاق !

ويهمس الظرفاء منهم بهمسات كأنها مناجاة : إن هذا الجمال الرائع الذى تحظى به هيلين ، لجدير بأن تسيل من أجله الدماء ، تروى أرضنا الصلبة ، فتنبت الزهور حول أسوارنا الشاهقة !

وبين هذا وذاك ، دارت معارك الأبطال ، وسطرت الملاحم المجيدة ، وكانت الغلبة فيها للمتحالفين اليونانيين . فدكوا أسوار طروادة ، وأحرقوا الأخضر واليابس ، وذبحوا كل من وقع فى





قبضتهم .. حتى أصبحت المدينة خرائب موحشة لا حياة فيها .. ورأى الملك بريام أبناءه وهم يذبحون أمامه ، فاستسلم للمهاجمين ، ولكنهم صرعوه ليلحق بحاشيته وأبنائه ، ولم يبق فى قصره إلا النساء : هكوبا زوجته ، وكاسندرا ابنته ، وأندروماك زوجة ابنه هكتور (وهو الذى كان قائدا لجيشة المهزوم) . فساقوهم جميعا فى الأسر ضمن ما حملوه من غنائم وأسلاب !

أما هيلين ، فقد خصص لها جيش كامل للعودة بها إلى زوجها وشعبها فى سلام .. واستقبلها أهل أسبارطة بمهرجانات النصر والحفاوة والترحاب ، بعد أن شاع عنها — وصدقوا ما أشيع وقتها — من أنها اختطفت قسراً ، وغلبت على أمرها .. ولم يرحم الغاصبون ضعفها وتضرعاتها وتوسلاتها !!

وكان أسعد الإسبارطيين جميعا هو زوجها منيلاس .. فقد أخذ يلاطفها ويعمل جهد طاقته فى إسعادها والترفيه عنها .. لعله يستطيع أن (يعوضها) عن قسوة الأسر ومعاناة الاغتراب !!

واستخدمت الفاتنة أسلحتها الأنثوية الفتاكة .. وكان يطيب لها أن تحكى الكثير عما لاقته من التعنت والحرمان ! وعن لهفتها للعودة إلى زوجها الحبيب ووطنها وشعبها العظيم .. وترفع الغانية بصرها إلى السماء .. وتناجى آلهتها شاكرة لهم صنيعهم فى نصرة بلدها على الذين اغتصبوها وأذاقواها العذاب !

واستأنفت هيلين حياتها الأولى بدون أن يؤنبها ضميرها على ما فات بل إنها لم تعد تفكر فى تلك المجازر التى نشبت بسببها .. وكيف لا ، والكل من حولها يتمايلون طربا لطلعتها البهية وإشراقتها الوضاءة وهى تطل من شرفة قصرها على شعبها المفتون بجمالها ؟!

وإذا كنتم ممن يذهبون للسياحة فى رحلة الصيف إلى الربوع اليونانية ، فلا شك أنكم ستصادفون الأدلاء المرافقين لكم وهم يشيرون إلى قبرين متلاصقين فى بلدة « تيرابنى » ، ويقولون لكم مستعرضين معلوماتهم التاريخية : إن منيلاس وزوجته الفاتنة هيلين ينعمان بالراحة الأبدية هنا فى هذه البقعة من الأرض اليونانية .. فلا تصدقوهم لأن الأسطورة التى ذكرها هوميروس فى الإلياذة تقول غير ذلك .

إن الإله زيوس « أو جوبتر » قد رأى أنه لا يليق به وبمكانته الإلهية أن يدع الموت يسطو على حياة ابنته هيلين ، فقرر أن يرفعها حية إلى مقره العلوى ! ومن أجلها ، شمل زوجها منيلاس كذلك بهذه المكرمة !!

وتمضى أحداث التاريخ .. بحقائقها وأساطيرها وأسرارها ، ولا يبقى إلا روائع المبدعين ، تذكر بنعم الله على عباده الموهوبين ، ممن اصطفاهم وحباهم شفافية البصيرة والإلهامات العبقرية !

رمبرانت .. العاشق الحزين

●● للفن لغته الخاصة .. وإن كنا فى الحديث عن هذا الفنان أو ذاك ، ندور حول إبداعه فنتناول نشأته وأساتذته والمدرسة التى ينتمى إليها والمناخ الاجتماعى والسياسى السائد فى عصره .. إلى آخر هذه المؤثرات ... وقد يفيد كل ذلك فى إلقاء الضوء على مضمون فنه .. إلا أن فناننا فى هذا اللقاء يتفرد بذاتيته المطلقة ، وينبع فنه من رؤيته الفذة وموهبته الفريدة التى تتجاوز حدود كل هذه المؤثرات . إنه نابغة الفن الهولندى فى القرن السابع عشر رمبرانت ، ومضرب الأمثال فى تناغم الظل والنور فى توافق فلسفى معجز !

ونحن إذا نظرنا إلى حياته ، فلن نجد شيئا كثيرا يقال . لقد ولد فى مدينة ليدن عام ١٦٠٦ من والدين فقيرين ضمن أسرة لا تمت إلى الثقافة ولا الفن بصلة .. وهكذا نرى أن بيئته المتواضعة لا تؤهل أبناءها لمثل هذه التخصصات الفكرية السامية !

ولكن ، كالزهرة البرية التى تتنسم الهواء النقى ، وترتوى بأقل قدر من قطرات الندى .. نجد أن الطفل رمبرانت يتطلع دائما إلى جمال الطبيعة والتجول وحيدا على شواطئ القنوات ساعات الشروق والغروب .. وقبل أن يتعلم أول مبادئ القراءة والكتابة .. نراه يرسم على الجدران بقطع صغيرة من الحجارة ، كل ما تقع عليه عيناه من المنظورات من حوله !



وعندما لاحظ والده الطحان الفقير موهبة ولده فى فن الرسم ، وافق — على مضض منه — على أن يلحقه بأحد المراسم العامة بالمدينة . وكانت مدن دول الشمال الأوروبى آنذاك تزخر بالعديد من المراسم ... تتدرج فى مستواها الفنى حتى تصل إلى مراسم القمة التى يديرها فنانون كبار من المشاهير .

وتعلم رمبرانت خلال ثلاث سنوات قضاها فى مرسم (سوانبرج) كيفية مزج الألوان ومبادئ علم التشريح وقواعد المنظور وكيميائيات الأصباغ .. ولاحظ أساتذته — وهم من الفنانين المغمورين — أن النابغة الصغير يفوقهم براعة فى الرسم والتلوين وإدراك المنظورات بفهم واستيعاب وحساسية مرهفة .. فنصحوا والده بأن يبعث به إلى العاصمة « أمستردام » للاستزادة من علوم وأسرار فن الرسم على يد الفنان الشهير « لاستمان » .

وكان لاستمان قد درس الفن فى إيطاليا ونهل من أساطين عصر النهضة العظام .

وهناك ، لم يمكث فناننا رمبرانت أكثر من نصف عام .. وكانت هذه الشهور المعدودة كفيلة بإظهار موهبته الفذة ، فسرعان ما بزَّ جميع فنانى المدينة ، وأخذت شهرته تعم الآفاق .. وصار الفنانون حائرين فى تفسير هذه الظاهرة العجيبة .. كيف لهذا الفتى أن ترسخ قدماه وتعظم ثقته بنفسه إلى حد أن ينافس كبار الفنانين فى هولندا كلها !؟

●● وكان وراء هذا النبوغ العبقرى سرّ عاطفى يسبح فى الأطياف الوردية ويحلق فى عوالم الشاعرية والإلهامات السحرية !

لقد أحب الفتى ملهمته الجميلة ساسكيا . ويبدو أن الفنان الموهوب أشبه ما يكون بالبركان الذى يظل هادئا حتى يمسه الحب ، فتثور وتتفجر مواهبه الكامنة وملكاته الدفينة فى أروع صورها وأسمى درجاتها .. لقد عشق رمبرانت ساسكيا عشقا ملك عليه كيانه ومشاعره ، فعندما تعرف بها لأول مرة ، شعر كأن قلبه الدافئ ينفتح على مصراعيه لاستقبال فتاته الساذجة الحسناء التى استهواها فنه وبساطته ولعبه بمزج الألوان والعبث بها على المسطحات البيضاء ؟!!

وما أن توطدت العلاقة بينهما حتى تدفقت قدراته المذهلة !

●● وعاد بها بعد أن توثق قلباهما برباط الزوجية ... إلى مدينته ليدن . فوجد فيها حسن المعاشرة ودماثة الخلق وتفتح الوجدان والتفانى فى السهر عليه والهيام بفنه لدرجة الانبهار والانصهار .. وأصبحت له بمثابة الصديقة والزوجة .. تملأ حياته بهجة وتحيل فنه إلى روائع عبقرية .. وشعر بحلاوة النجاح وبهجة السعادة الغامرة !

ومرت السنوات الخصبة الموحية .. أنتج خلالها رمبرانت أروع إبداعاته ... وكانت ساسكيا نموذجه ومصدر إلهامه .. فرسمها فى العديد من لوحاته الخالدة .. نجمة متألقة يتغنى الفن بجمالها ودلالها !

●● ولكن .. ما أقصر الأوقات الهانئة !! فعندما وضعت ساسكيا مولودها الأول ، مات فى مهده .. ولكنهما لم يستسلما لليأس والقنوط .. فسرعان ما كانت الحبيبة بشخصيتها الآسرة تحتوى الحزن لتسير حياتها السعيدة مع حبيبها سيرتها الأولى .. وهكذا مات وليدها الثانى .. ووليدها الثالث .. وجاء دور الوليد الرابع .. فنصحها طبيبها بالاستقرار والراحة والكف عن حياتها المرحة وسهرها على زوجها .. والاقتصاد فى الانفعال ومرافقة الزوج فى سفراته ورحلاته ..

وانقلبت الآية .. فأخذ رمبرانت يسهر على راحتها .. يطعمها ويخدمها ويرفه عنها .. والأمل يملأ قلبيهما فى أن تقر أعينهما بالوليد الجديد .. وأتى لها بمربية حسناء تدعى « هندريكة » تقوم بخدمتها وتلازمها ليل نهار .. ثم حان وقت استقبال الوليد الجديد .. وجاء إلى الدنيا ابنه المنتظر وقد سماه (تيتوس) وكانت بداية حياته .. هى النهاية لحياة أمه الرائعة ... وحدثت الفاجعة ! عاش تيتوس .. وماتت ساسكيا .. وبعدها تحول القصر ذو الرياش الثمينة إلى أطلال فما هى إلا ثمانية أعوام .. هى عمر السعادة التى حظى



ساسكيا

خلالها بمعبودته .. حتى اختطفها الموت بغتة وذهبت الحبيبة الجميلة التى اضاءت عليه حياته .. فخاب أمله ، وتبدل حاله ، واسودت الدنيا فى بصره وبصيرته .. ووهنت قواه .. وركد عمله .. وتراكمت عليه الديون .. ما أبعد الأمس عن اليوم !!
أخذ يستعيد أيام ساسكيا ويجتر ألمه بعد أن كانت شهرته تعم الآفاق .. وتدر عليه لوحاته الأموال الوفيرة .. وبعد أن تعود على اقتناء التحف والحلى وأفخر الثياب .. حتى أضحى بيته الكبير الذى اشتراه من أحد وجهاء المدينة ، متحفا عامرا بشتى الرياش والأثاث والتحف النادرة .. أصبح اليوم يعيش أيامه فى يأس قاتل رهيب !!.



ساسكيا

●● كانت ومضة النور فى حلكة الظلام .. هى المربية الحسناء هندريكه ، فكانت الحنان والعطف والعزاء و لم يعرف إخلاصها حدودا .. فقد واصلت الليل بالنهار ساهرة على رعاية رمبرانت وتيتوس الصغير .. وتوالت الأيام .. وتوقفت عجلة الإنتاج فى مرسم الفنان الحزين ! وتراكمت الأزمات والديون .. فقررت المحكمة بيع معظم مقتنياته من التحف والرياش .. حتى كانت المفاجأة المذهلة عندما تطوعت هندريكة ودفعت كل مدخراتها وفاء لدين سيدها !

●● ولنتصور فناننا المرهف الحزين ، وهو الذى تعود الحنان الزوجى ثمانية أعوام كلها بذل وتضحية



رمبرانت (فى مرسمه)

ووفاء وإخلاص .. وهو يرى مربية ولده الصغير .. وهى تدفع عنه ديونه ، وتحفظ عليه كرامته وسمعته .. أفلا يشكر لها هذا الصنيع الجميل ؟؟

ونظر حوله .. ماذا بقى عنده ليرد لها الجميل .. فالمال حسير والقلب كسير ولكن هذا القلب المكلوم قد آن له أن ينفض غبار اليأس والاستسلام .. وأن يحس بهذا الحنان الدافق الذى تهبه هندريكه فى غير تحفظ وبلا حدود .. وكانت تصرفاتها النبيلة يوما بعد يوم كفيلة بأن يشعر بميل نحوها .. أخذ ينمو مع كل يوم جديد .. ومع كل عطاء يضفى لمسة حنان أو بسمة رضا وامتنان .

وتزوج فناننا بالفتاة المحبة المخلصة .. وسواء أكان هذا الزواج مبعثه العرفان بالجميل .. أو هو حب حقيقى سرى كهمسة مواساة رقيقة فى ليل مظلم رهيب .. إلا إن هذه المربية الطيبة كانت تعلم الكثير عن قدره ومقدرته بين فنانى عصره .. فكانت نظرتها إليه نظرة تبجيل وإعجاب وإكبار واحترام .. فلم تعامله — حتى وهو زوج لها — إلا معاملة الخادمة لسيدها .. واستطاعت بعد جهد جهيد أن تعيد البسمة الصافية على شفتيه المرهقتين .. كما اتخذت من ذيوع فنه وانفتاح آفاق شهرته .. قضية ومسئولية كافحت من أجلها حتى نجحت فى هدفها أيما نجاح .. وتربع الفنان على عرش مجده مرة أخرى .. حتى صار أشهر فنانى هولندا والشمال الأوروبى كله .

... وتوالت الأعوام بحلوها ومرها ... حتى توفيت هندريكه ولحق بها ابنه تيتوس فى ريعان شبابه وهو فى السابعة والعشرين من عمره .

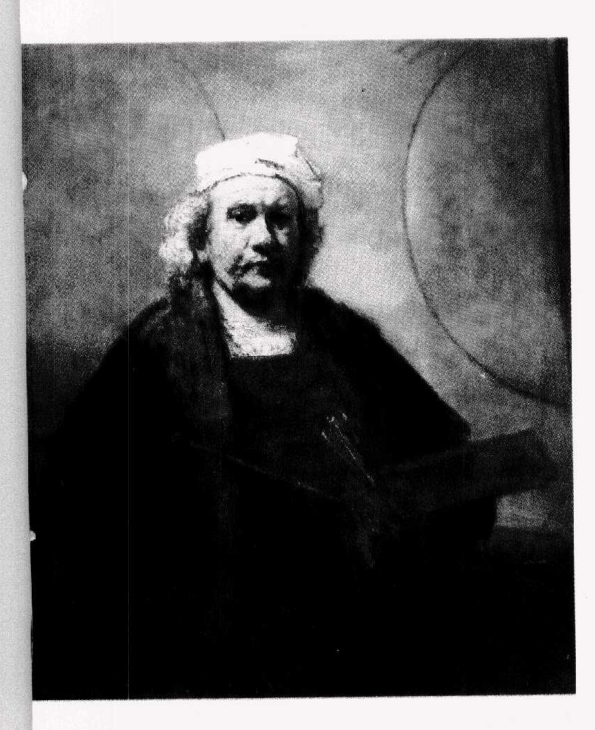
وتجهمت له الدنيا عاصفة قاسية عاتية تعتصر قلبه اعتصارا .

وكيف له أن يجابه تلك النكبات وحيدا واهنا محطم الكيان والفؤاد ؟!

فعاش أعوامه الأخيرة فى فقر مدقع .. لم يجد عزاءه إلا فى رسم لوحات تغلفها الظلمة والوحشة والصمت الحزين .. فبدت لوحاته وقد لعب الظلام فيها الدور الرئيسى ولذلك وجدناه فى معظم أعماله



هندريكه



رمبرانت



هندريكه

وقد اتخذت طابعا داكنا بدا فيها (الظل والنور) فى تناغم صامت اختص به رامبرانت فى سجل الخالدين من الفنانين العظام ، وصار أسلوبه هذا بصمة إبداعية تميزه عن فنانى العالم وعلى فلسفة الضوء الساقطة فى رقعة اللوحة الداكنة ...

وما زال هذا النهج المعجز مضرب الأمثال حتى يومنا هذا !.

●● ومن الطريف فى حياة فناننا ، أنه من أكثر الفنانين الذين رسموا أنفسهم فى مختلف فترات حياتهم ، فنراه فى لوحاته وقد صور نفسه شابا ويافعا وكهلا وشيخا .. وليست العبرة بعدد سنوات عمره .. ولكن بحالته النفسية فى المقام الأول ..

وقبل وفاته صور لنفسه لوحة نراه فيها وهو يبتسم وقد تغضن وجهه وانحنى ظهره .. ولكنه مع ذلك يبتسم ، ولسنا ندرى هل هى ابتسامة السخرية والتهكم من حياته .. أم ابتسامة الثقة بنفسه وانتصاره بفنه على تقلبات الزمان ؟ ولكنها أغلب الظن ابتسامة العبقرى الحكيم الذى قنع بحظه من الدنيا ، وتجرد من الطموحات والأطماع .. وزهد فى كل شىء حتى وفاته عام ١٦٦٩ .

إنها ملهاة الحياة .. تتبخر فيها الأحلام والآمال ولا يترسب فى القاع إلا الزفرات والحسرات .. والحكيم هو من يقابل فصول هذه الملهاة بابتسامة ساخرة كما صورها رمبرانت فى لوحته الأخيرة ...



شهداء الحب والحقد والعبقرية

بعد أن فرغ موزار من عزفه العبقرى فى إحدى الحفلات الكبيرة سأله شاب من هواة الموسيقى عن كيفية وضع (السمفونى) فأجابه موزار : « إنك شاب حديث السن ، فلماذا لا تبدأ بالقطع الموسيقية السهلة قبل التفكير فى كتابة السيمفونيات ؟ » .

فقال الشاب : « لكنك ألّفت سيمفونيات وأنت صبى فى سن العاشرة ، أليس كذلك ؟ » .

فأجاب موزار : « نعم ، ولكننى حينذاك لم أسأل أحدًا عن كيفية تأليفها » !!

الطفل المعجزة .. هكذا لقب الموسيقى النمسوى الشهير موزار أو « موتسارت » كما تنطق بالألمانية فى بدء حياته .. فقد كان معجزة بكل المقاييس .. بدأ التأليف الموسيقى وهو فى الرابعة من عمره .. اكتشف أبوه « ليوبولد » موهبة ابنه الفذة فى هذه السن المبكرة .. فعكف على تلقينه أصول الموسيقى والعزف والتلحين والتأليف .. وكان الوالد موسيقيا محنكا .. فوضع كل مواهبه وثقته فى ولده الذى كان يتقدم بصورة مذهلة تدعو إلى العجب والإعجاب ! ..

كان طفلا شديد الحساسية رقيق الطبع ، حتى لقد كان يسأل أقرانه من الأطفال إن كانوا يحبونه أم لا ، فإذا أجاب احدهم بالنفى من قبيل المزاح والمداعبة اغرورقت عيناه بالدموع !.

ومن فرط هذه الحساسية المرهفة ، كانت كل الظواهر تنبىء منذ حداثته بأن الحياة ستكون قاسية بالنسبة له .. فالألم والأسى والعقد النفسية ، غالبا ما يكون ضحاياها هم أولئك الذين رقت مشاعرهم وأحاسيسهم وتسامت نفوسهم إلى الآفاق العلوية للفن الرفيع !

●● وما أن بلغ (موزار) الرابعة من عمره حتى بدأ يؤلف مقطوعات موسيقية تعزف على البيانو — ما يزال بعضها باقيا حتى اليوم — وفى الخامسة أخذ يتفوق على العديد من الموسيقيين فى وضع المقطوعات الصعبة التى تحتاج إلى مهارة فنية خاصة .

وقيل للأب : هذا أثمن كنز وهبه الله لك ، اخرج به فى جولات فنية وحفلات رسمية كبيرة فى أنحاء العواصم الأوروبية .

ولم يتردد الأب « ليوبولد » فصحب ولده إلى « ميونيخ » ليعزف أمام « ماريا تريزا » إمبراطورة النمسا .. فأذهل الجميع وحظى الصبى بقبلات الأمبراطورة وهداياها .. وفى « فرانكفورت » التقى الموسيقى النابغة بالشاعر العظيم « جيته » ، وفى باريس استحوذ على إعجاب فاتنة الأرستقراطية الفرنسية مدام دى بمبادور وأفراد حاشيتها فى بلاط لويس الخامس عشر .. وهكذا انهالت عليه قبلات الملكات والأميرات وألمع فاتنات المجتمع الأوروبى ولقبوه بالعبقرى المعجزة ! وأصبح موزار من أثمن دُرر القصر الامبراطورى فى العاصمة النمسوية « فيينا » .

ويبعث ليوبولد بخطاب إلى أصدقائه يقول فيه :

« من فيينا ، لا أجد الأن من الوقت ما أستطيع معه أن أسهب فى الكتابة ، فالدعوات والحفلات تتوالى على ابنى « فولفول » — وهو اسم التدليل للموسيقى الطفل فولفجانج موزار ، بحيث تشغل وقتنا بالليل والنهار .. ولكنى أقول : إن صاحب الجلالة الإمبراطور قد استقبلنا بكل رعاية وإكرام وكأننا نعيش فى حلم جميل ، وقد قفز ابنى فى حجر الإمبراطورة وأحاط عنقها بذراعيه وأخذ يقبلها بحرارة على مرأى من الإمبراطور ورجال الحاشية وسيدات القصر ! ثم استدعانى الإمبراطور لكى أسمعه الطفل المعجزة فى عزفه على الكمان .. وما أن سمعه حتى أبدى إعجابه الشديد بموهبته الفذة .. وأرسل لنا هداياه القيمة ! » .

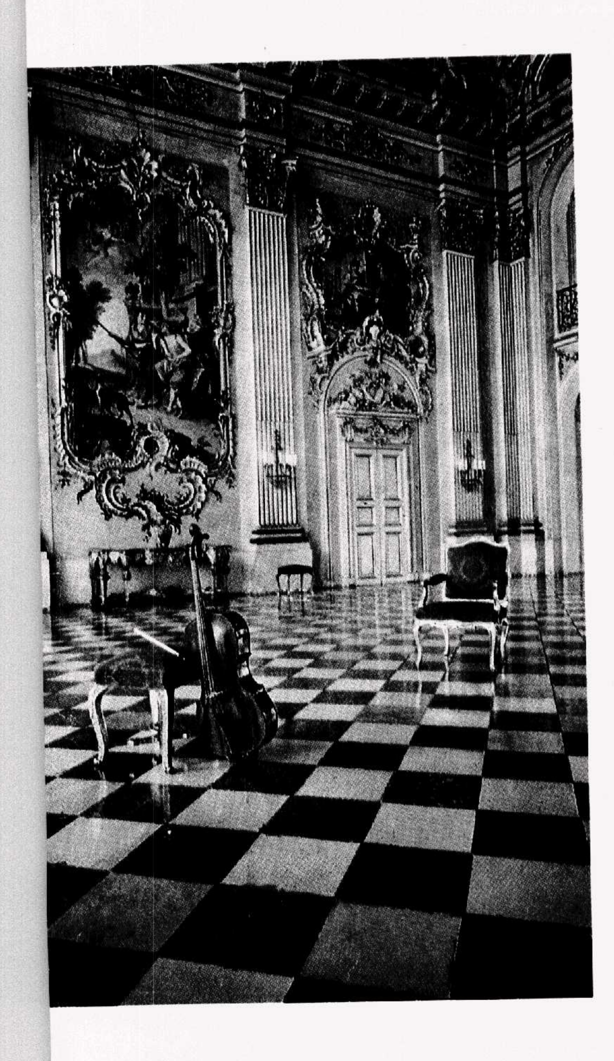
ومن طريف ما يذكر عن موزار الصغير فى هذه الرحلة أنه بينما كانت ابنتا الإمبراطور ذاهبتين بالطفل إلى الإمبراطورة ! زلت قدمه على الأرض الرخامية الملساء ، فلم تعبأ إحدى الأميرتين بالحادث .. ولكن الأخرى (وهى مارى أنطوانيت التى أصبحت فيما بعد ملكة فرنسا) أنهضته من عثرته وأخذت ترفه عنه وتهون عليه ما حدث ، فالتفت إليها موزار وقال بطفولة بريئة : « إنك لطيفة جدا وسأكافئك بأننى سأتزوجك » !!

وتعددت رحلات موزار من سالزبرج إلى فاسنبرج فى بافاريا إلى ميونيخ ثم إلى فرانكفورت وبون .. وفى كل مدينة يلقى من الاحتفاء به . والإعجاب بفنه ما لم يحظ به غيره من قبل ..

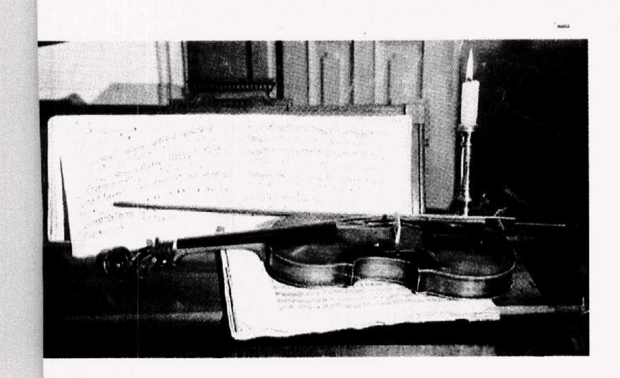
ورحلت الأسرة إلى باريس .. وهناك لقى موزار فى رحاب البلاط الملكى الفرنسى كل التقدير .. وفى لندن ، عزف فى البلاط الإنجليزى .. وبدأ فى تأليف أول عمل سيمفونى لفرقة الموسيقى الكاملة .. وكان ذلك عام ١٧٦٤ وهو فى الثامنة من عمره !

كان شيئا غريبا ومثيرا ومعجزا فى الوقت ذاته .. لقد لمح وهو يعزف فى إحدى حفلاته أمام النبلاء الإنجليز ، قطة بيضاء جميلة تتمشى قريبا منه . فوضع

الكمان جانبا ، وأقبل على القطة يداعبها فى مرح طفولى .. غير عابىء بالأمراء والنبلاء الذين كانوا يصغون إلى عزفه بكل الصمت والإعجاب والانتباه ..



هنا عزف موزار فى قصر ماريا تريزا إمبراطورة النمسا



وتفتح القلب العبقرى

وعندما بلغ الصبى سن الشباب .. تعرف وهو فى الثانية والعشرين من عمره بأول فتاة خفق لها قلبه .. فتاة ، ألمانية رائعة الجمال .. كانت فى الخامسة عشرة بين براءة الصبا وفتنة الشباب .. ولكن كيف ألقت به المقادير فى طريقها ؟..

فعندما عادت العائلة ، بعد صولاتها وجولاتها إلى سالسبورج فى سنة ١٧٧١ تلقى موزار دعوة من الإمبراطورة ماريا تريزا إمبراطورة النمسا لكى يعزف أمامها .. وكانت فرصة نادرة أتيحت للموسيقار الصغير لكى يظهر عبقريته أمام البلاط النمسوى بكل أقطابه ، وكان الجميع ينتظرون مباراة إبداعية مثيرة بين موزار والموسيقى العجوز « هاسى » أعظم العازفين وأقدرهم على التأليف الموسيقى آنذاك .. ومن عجب .. أن موزار قد فاز بالجولة عن جدارة واستحوذ على إعجاب الحضور ، وأسقط فى يد الموسيقى العجوز « هاسى » .. وصرح بعدها بأن هذا الشاب سيلقى بجميع الموسيقيين فى الظلام ، وبدأت الأصابع الخفية منذ ذلك الحين تعمل فى دأب ضد موزار ، وتحيطه من كل الجوانب بالعقبات والمؤامرات . وأحس الفتى بأجواء الكراهية والمعوقات من حوله .. فقرر الهجرة إلى بلد آخر يكون أكثر تقديرا وأعدل حكما .. فرحل إلى « مانهايم » وأرسل إلى أميرها يطلب العمل فى الفرقة الموسيقية .. وانتظر طويلا ليسمع الرد بالرفض أو القبول .. ويبدو أن صدى المؤامرات قد اتسعت حلقاته حتى وصلت إلى أمير مانهايم .. فجاءه الرد أخيرا بالرفض .. ولكن موزار كان قد تعلق قلبه بفتاته فى تلك الآونة الحرجة القلقة من حياته .. فلم يبادر بترك المدينة .. وكانت

دار الأوبرا (سان بترو) بفيينا ، حيث عزف موزار أمام البلاط النمسوى



كوستانسا فيبير
الزوجة المحبة الملهمة

ألوزيا فيبير
الحبيبة المتمردة

موزار عام ١٧٦٧
لوحة بمتحف موزار
بساليزبورج



الصبية الحلوة « مودموازيل ألوزيا فيبير » Aloysia Weber تملأ الأجواء من حولها برشاقتها وإشراقة محياها وحيويتها وتفتح مواهبها كمغنية فى الفرقة الفنية .. انجذبت إليه فى براءة وإعجاب وانبهار .. وتفتح كيانه سريعا لإلهاماتها الغامرة .. فأحبها من أعماق قلبه .. واستضافته أسرتها المسحورة بشخصيته وعبقريته فى بيتها . ثم يختلى بحبيبته .. يعزف لها وحدها وتغنى أحلى ألحانها له وحده ! وكاد يقعد عن طلب الشهرة فى سبيل البقاء إلى جانبها لولا حكمة والده الذى طارده بإلحاحه عليه فى وجوب مواصلة الرحلة إلى باريس ..

وهناك فى العاصمة الفرنسية لم يصادف النجاح الذى كان يتوقعه .. فعلل موزار ذلك الفشل بفساد

الذوق الفرنسى وتجردهم من صدق العاطفة وعدم مبالاتهم بالاستمتاع بالموسيقى .. الراقية ! ولم تطل إقامته فى باريس .. ولا سيما بعدما نكب بوفاة والدته التى كان يهيم بحبها ! كما كانت هى — بدورها — لا تفارقه أبدا فى رحلاته المتلاحقة .. فأرسل له والده يطلب منه العودة ، وأوصاه أن يصحب معه فتاته « مدموازيل فيبير » التى أحبها فى مانهايم ، وكانت شهرتها فى الغناء قد تعدت حدود مدينتها حتى بلغت سالسبروج ..

غادر موزار باريس فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٧٨ ، وعرج فى طريقة إلى ميونخ حيث انتقلت أسرة حبيبته .. وهرع إلى دار الأسرة وقلبه يثب بين جنبيه فى فرحة اللقاء المرتقب .. وتمثل فى خاطره الوداع الذى انفطر له قلبهما قبل رحيله إلى باريس .. وتذكر كيف انهمرت دموعها الغزيرة حتى بللت وجهه ساخنة كسخونة قبلاتها المحمومة فى لحظة الفراق .. جالت بخاطره تلك اللحطات المؤثرة .. وهيأ نفسه للقاء حار لا يقل تأثرا عن وداع الأمس القريب !.

ودخل موزار المتلهف لرؤية الحبيبة .. وكانت المفاجأة التى لم يتوقعها و لم تخطر على باله .. لقد قابلته « ألوزيا » بفتور غريب ، وهى تتصنع الترحيب به .. وترسم ابتسامة باهتة على شفاهها الوردية الفاتنة .. وماهى إلا لحظات حتى قالت له ..

— اعذرنى يا عزيزى موزار .. فلدى موعد بعد قليل ، ولن أستطيع أن أقضى معك إلا دقائق معدودة .. وأنتظر منك إن سمحت ظروفك أن تراسلنى بين فترة وأخرى لتطمئننى عليك !!..

● فتمتم الفتى وهو يعانى هزيمة وجدانية ساحقة .. وقال لها ..

— فى هذه الدقائق سأسمعك مقطوعة على البيانو ، وسأغنى لك أيضا ، وغنى لها أغنية كشدو الطير المذبوح من فرط الألم .. تقول كلماتها ..

« إننى فنان أحيا بالحب وأرضى بالقليل .. وأتخلى عن طيب خاطر عن الفتاة التى لا تبادلنى حبا بحب وإخلاصا بإخلاص .. » !! ثم دمعت عيناه وهم بالخروج لفوره .. ولكن شقيقة الحبيبة المتمردة .. استوقفته ورجته أن يتناول مع الأسرة الغداء .. فقبل دعوتها .. ولعله أراد أن يبقى باب الود مفتوحا لقلبه المكلوم وعوطفه المسهدة ! وماهى إلا ساعات قلائل .. حتى عادت إليه ، السكينة .. واستأنس الصحبة الودود مع الشقيقة الحسناء « كوستانزا فيبير » .. وقرر البقاء فى المدينة لعدة أيام .. وتوالت الدعوات واللقاءات .. وانصهرت العواطف .. وانتظمت مرة أخرى عاقلة واعية متأنية .. واتجه موزار بقلبه وحواسه نحو كوستانزا الرقيقة .. إلى أن انتهى الحب الجديد بينهما بالزواج .. وظل فى ميونيخ ثلاثة أشهر لها طعم العسل وعبق الزهور .. حتى عاد إلى سالزبورج ليبدأ كفاحه من جديد ، وتوالت نجاحاته



حجرة البيانو .. مهبط الإلهام



تمثال موزار من الرخام (للمثال روودان ـــ RODIN)

بما يشبه الأساطير .. وتجلت عبقريته التى طبقت شهرتها آفاق أوروبا كلها ، وكان يعترف دائما بفضل زوجته الحسناء وإلهاماتها الدافئة الحانية !! ولكنه ما لبث أن جابه عصر النكسات وعرف الفقر والبؤس والديون والمرض مع الأولاد الستة الذين أنجبهم بسرعة تفوق سرعة تأليفه لموسيقاه الخالدة .. كل ذلك . دفع بالفنان إلى حياة فيها بعض الطيش واللهو والمجون .. أو لنقل إن مثل هذه التصرفات من العبقرى الموهوب كانت بمثابة المخدر الذى يلجأ إليه المرهق اليائس لينسى به نفسه وهمومه .. ولكن إلى حين !..

● قال له الإمبراطور جوزيف (إمبراطور النمسا) يوما :

ـــ إن ديونك يا موزار صارت حديث المجتمع ومضغة الأفواه الشامتة .. فلماذا لم تتزوج من امرأة غنية !.

فأجابه موزار بكبريائه المعهودة :

ـــ مولاى .. إن عبقريتى ستمكننى دائما من التغلب على هذه العثرات .. وسأتمكن من الإنفاق على المرأة التى اختارها قلبى ! وسارت أحواله من سيئ إلى

أسوأ .. وفى ليلة ٥ ديسمبر سنة ١٧٩١ .. حانت نهايته وقال وهو يغالب سكرات الموت لمن حوله :

ـــ « إن آخر ما كتبته هو لحن جنائزى حزين .

ونظر إلى زوجته المكدودة وقال لها :

ـــ كنت أحس أن هذا اللحن الذى طلبوه منى لن يتسلموه أبدا .. ألم أقل لك إننى كنت أكتبه لنفسى ؟ فليهنأ الحاقدون والأشرار !! »

فتنهدت الزوجة المحبة وأشارت إلى أولادها الستة وتمتمت فى أسى :

ـــ إنه لنا جميعا فداء للحب والعبقرية والأحقاد القاتلة .

● **واستلقى** شاحب الوجه ، لا عن أسى ، وانما عن سكينة وسلام .. فقد أطفأت جذوة حياته حمى قاسية ، وهو لم يتعد الخامسة والثلاثين .. و لم يكن قد فرغ بعد من اللحن الحزين .. و لم يخلف من متاع الدنيا ما تتجاوز قيمته خمسين جنيها !

وتعهد صديق غنى بنفقات جنازته .. كان من كبار محبى الموسيقى ، ولكنه لم يكن مسرفا ، فلم يشأ أن ينفق أكثر مما يكفى لنقل جسد صديقه إلى قبور الفقراء المعدمين .. وشيعت الجثة إلى مقرها الأخير حفنة من الناس ، هبت عليهم خلال الجنازة ريح عاتية راحت تصفع وجوههم .. ثم تدفق من السماء مطر منهمر .. ورفعوا ياقات معاطفهم ، وخفضوا حافات قبعاتهم ، يلتمسون وقاء من المطر والريح .. ثم أخذوا يتسللون خلسة ، ليسارعوا إلى دفء دورهم ، فلما بلغت الجثة المقبرة ، كان الحى الوحيد الذى ودعها هو .. حافر القبور !

أما كونستانزا ، فكانت تحت رعاية طبيب .. وما لبثت بعد أيام أن تسللت تسعى إلى المقبرة .. وفى خطوات واهنة كليلة ، راحت تتعثر بين القبور باحثة عن قبر زوجها .. ولكنها لم تجد علامة تميزه .. فسارت مترنحة إلى كوخ حارس المدفن تسأله بصوت مرتجف : « **هلا أنبأتنى يا سيدى : أين دفنوا زوجى ؟.. ان اسمه موزار !** » .

وردد الرجل الاسم مستغربا ، ثم قال : « **موزار ؟.. ما سمعت قط بهذا الاسم !** » .



آخر ما ترك موزار :
صورة زوجته وخاتم الشبكة الذهبى ..

عصر الفاتنات والعبث والفن الرفيع

لم تشهد أوربا — ولا سيما فرنسا — عصرا مزدهرا وثراء واسعا بلغت فيه الثورة الصناعية ذروتها كذلك العصر الذهبى الذى بدأ فى أواخر القرن الماضى .. واستمر حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .. أى أن هذا العصر قد استمر قرابة الخمسين عاما .

بلغت فيه الصناعة أوجها فتصاعد الإنتاج وتضخمت رءوس الأموال وازداد عدد المصارف والمؤسسات المالية ، ونشطت حركة التصدير إلى بلاد الشرق ..

وتبعا لذلك ، فاض المال فى أيدى رجال الأعمال الأوروبيين وأصحاب المصانع .. كما تقاربت العواصم الأوروبية مع مراكز الصناعة الأمريكية ، فاستأثروا باحتكار العلوم والمخترعات ، لينفرد مواطنوهم بفنون العلم والصناعة ، ولتستورد منهم باقى دول العالم كل شىء ..



وتتراكم الأموال الطائلة فى خزائنهم بشكل مثير ، وكان لا بد من البحث عن مجالات المتعة واللهو والترف والتسلية ، ينفقون فيها أموالهم ويسرون عن أنفسهم .

فاتجهت هذه الأنظار المترفة الغارقة فى الثراء والعمل والنشاط والحركة الدائبة .. إلى باريس حيث استقطبت بأضوائها المتلألئة أبصار العالم وبصائره .. فعمرت بالمسارح والملاهى والمشارب وصالونات الفن والسهر والسمر .. ونشأ فى تلك الفترة المسرحان الاستعراضيان الشهيران : « المولان روج » و « كازينودى بارى » ، وظهرت شوارع اللهو والبيوت الحمراء المغلقة فى حى مونمارتر ومونبارناس وملاهى حى سوهو ، وانتشرت كازينوهات الشواطئ بالمصايف .. بل إن المصايف نفسها على شاطئ البحر ظهرت لأول مرة كبدعة جديدة فى نيس وكان ودوفيل وغيرها من المدن السياحية .. وتبعا لذلك ، أنشئت الفنادق والنوادى الليلية .. وكان من أشهرها مونت كارلو التى اعتبرت عاصمة القمار ومرتعا لايبارى فى العبث والمغامرات وملتقى الفاتنات من كافة أنحاء العالم آنذاك .

الطفرة الفنية

وقد أدى هذا كله إلى طفرة فنية لم يشهد التاريخ مثلها من قبل .. ولن أتحدث عن المسرح والموسيقى وفنون الرقص والاستعراض والتأليف والتلحين ..



فلهذا مجال آخر .. ولكننى أخص بالذكر فن الرسم وأساطينه العظام . حيث تمخضت هذه النزعات المترفة عن مبدعين عباقرة خلدوا أعمالهم وأسماءهم فى التاريخ .. فقد بلغت « التأثيرية » أوجها فى تلك الفترة ، وتألق أقطابها من أمثال : رينوار ومونيه ومانيه وديجا وسيزان وتولوز لوتريك وفان جوخ وبولدينى وعشرات غيرهم من الموهوبين يحلقون كالفراشات الهائمة التى تحوم حول النور تدور فى دائرة الضوء فتسطع ألوانها وإشعاعاتها لتبهر الأبصار .. أو تحوم حيث النار حتى تقع فيها وتكتوى بلهيبها .. كما حدث لعشرات من الفنانين من أمثال تولوز لوتريك ورفاقه من البوهيميين ..

●● كان عصرا فريدا يزخر بأسباب المتعة والعبث والفن والابتكار والثراء .. ولا غرو أن أطلق عليه فى التاريخ « العصر الجميل La Belle Epoque »

وقد اتخذ ملامحه واسمه وصفة الجمال هذه من ذلك الحشد الهائل من الغانيات الجميلات .. وفاتنات المسرح والرقص وعروض الأزياء وصاحبات الصالونات ونجوم المنتديات .. وغيرهن .. وغيرهن من المغامرات .

وشهدت حركة الفن مظاهرة ضخمة حول هؤلاء الفاتنات .. وأصبحن مراكز الإشعاع والإلهام لحشود المبدعين .. وبالتالى توالت الإبداعات الرفيعة من وحى الجمال وفيض العواطف وتفتق الأذهان والقرائح .. فيما يشبه السباق المحموم بين جموع الفنانين المنقبين عن الجمال .. وظهر منهم فنانون عالميون أوقفوا عبقرياتهم على رسم حياة الليل وراقصات المسرح .. من أمثال ديجا وتولوز لوتريك .

هؤلاء جميعا كانوا يعيشون حول فاتنات العصر اللاتى تجمعن فى باريس ، ومعظمهن من الممثلات والراقصات والمغنيات والغانيات .. وقد جمعت بينهن صفة الخلاعة وحب العبث والمغامرات ، فكانت هذه الظاهرة بمثابة ثورة على العادات والتقاليد المتوارثة عبر القرون !.

وإذا أتينا إلى وصف هذه « الخلاعة » أقول إن ما كان يعتبر خلاعة وتبهرجا وتفسخا فى تلك الأيام ، يعتبر فى عصرنا هذا حشمة بالغة .. بل مغالاة فى الاحتشام !.

فالمرأة الأوروبية عاشت حتى أواخر القرن الماضى حبيسة البيت ولا تتمتع بأى قسط من الحرية أو التحرر .. وكان مجرد الكشف على جزء من ذراعها أو ساقها يعتبر بدعة مستحدثة وخلاعة ذات جاذبية طاغية ..

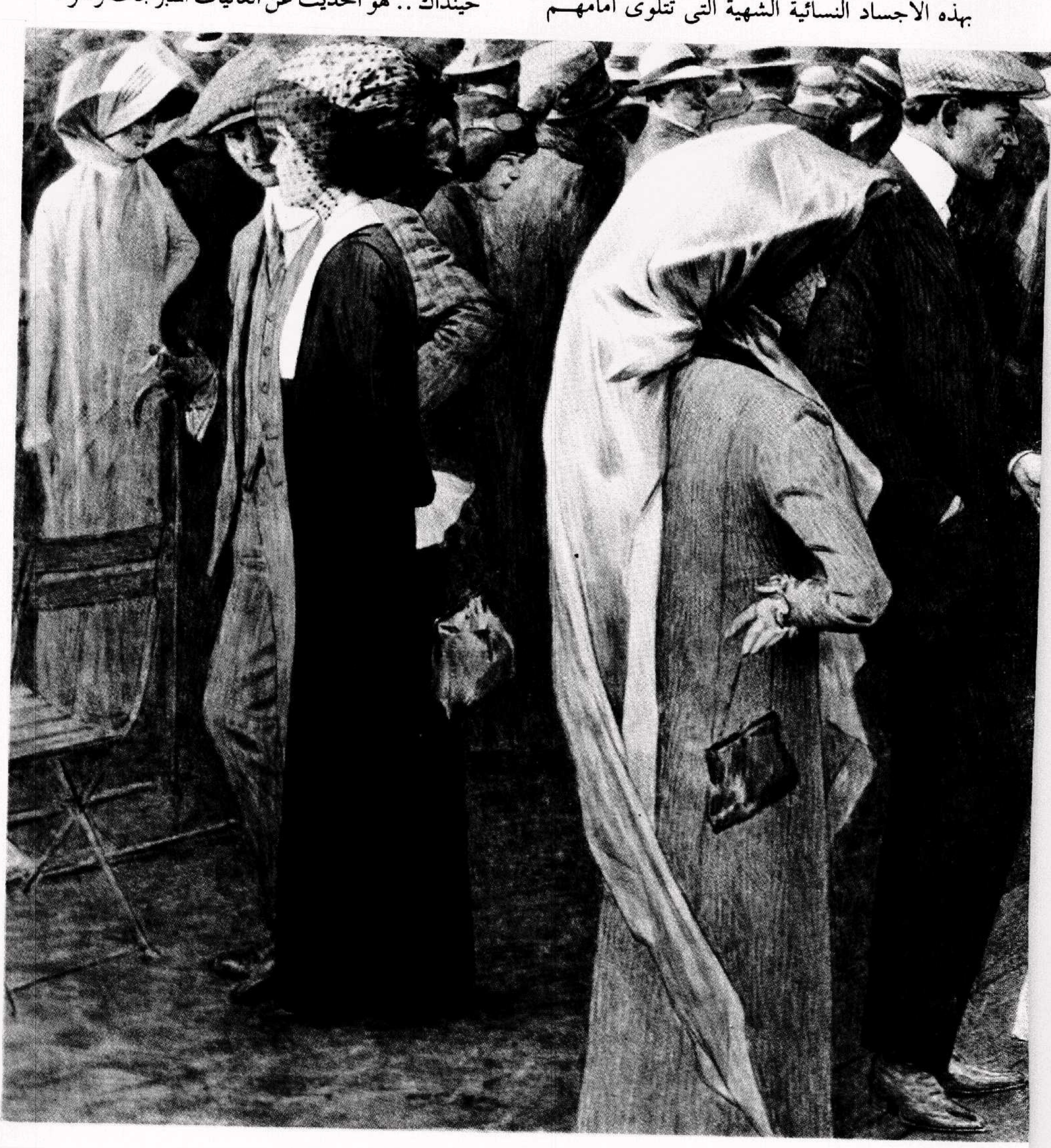


كان يكفى أن تسير امرأة فى شوارع باريس بثوب واسع عند فتحة الصدر لكى تصبح حديث المجتمع ومثارا للجدل وتعليقات الصحف ، أما فاتنات المسارح فكن يظهرن بملابس تشبه « الماكسى جيب » حاليا ولكنها تلتصق بعض الشىء بأجسادهن كما تبدو فلاحاتنا المصريات وهن يغتسلن على شواطئ الترع .. وكان ذلك وحده كفيلا بأن يتهافت الرجال من كل حدب وصوب على المسارح لكى يمتعوا أعينهم بهذه الأجساد النسائية الشهية التى تتلوى أمامهم ولا يسترها إلا ثوب واحد يكاد يلتصق بجلودهن ..

لماذا ؟ لأن النساء فى ذلك العصر كن يلبسن أضعاف أضعاف ما تلبس نساؤنا اليوم طبقات بعضها فوق بعض ، ولا يبدو منهن غير الوجه والأصابع .. وغالبا ما يغطين وجوههن بالبراقع ، وأصابعهن بالقفازات الطويلة التى تصل إلى قرب اكتافهن !.

الغانيات

وكان الشغل الشاغل للصحافة والمنتديات حينذاك .. هو الحديث عن الغانيات المتبرجات وسرد



القصص المثيرة عن مغامراتهن وما يربحنه من مبالغ خيالية .. وتذكر صحف تلك السنوات عنهن كيف خلعن ثوب الحياء وظهرن شبه عاريات !! نقرأ :

● أن رجلا من النبلاء يسمى « الدوق دمارل » دعا الراقصة كارولين أوتيرو التى كانت فرنسا تسميها : « لابل أوتيرو » أى أوتيرو الجميلة ، إلى قصره لتقضى فيه بضعة أيام بشمال فرنسا ، فذهبت الراقصة وقضت معه ثلاثة أيام ، وفى الليلة الأخيرة ، تركها نائمة فى فراشها ومضى ، وعندما استيقظت وجدت بجانبها مظروفا كتب عليه اسمها ، فلما فتحته وجدت بداخله وثيقة تنازل منه عن القصر والبساتين المحيطة به لتكون ملكا خالصا لها وحدها !.


الفنانة فى مرسمها والعيون الناقدة
(للرسامة جولى أدولف جوبل ١٨٣٩ ـــ ١٨٨٣)



● وراقصة أخرى تسمى « نانا » ، ذهبت مع أحد النبلاء فى رحلة صيد خلوية ، وبعد هذه الرحلة الشاعرية أهداها عقدا من اللؤلؤ قُدّر ثمنه بربع مليون فرنك من نقود تلك الأيام !. ونانا هذه هى التى استلهمها (مانيه) فى لوحته التى سماها (نانا) ، وهى نفسها التى استوحاها إميل زولا فى روايته الشهيرة (نانا) .

● أما الراقصة « ليان دى بيجى » ، فقد أعجب بها « مسيو لابلان » وهو أحد أصحاب مصانع النسيج فى فرنسا ، فأرسل لها بعد انتهاء رقصتها قطعة من الماس الأزرق النادر ، قدر ثمنها آنذاك بمليونى فرنك !.

● وفى أثناء زيارته لباريس أهدى إدوارد السابع ولى عهد إنجلترا ، الراقصة « إميليان دالانسون » سيارة ملكية فاخرة مفاتيحها من الذهب معلقة بميدالية نقش عليها اسمها بفصوص من الماس والأحجار الكريمة !.

● أما ألفونسو الثالث عشر ملك أسبانيا ، فقد كان له قصر فى ضواحى باريس يلتقى فيه بمحظياته ، وعندما زارته الراقصة الشهيرة الأسترالية الأصل « إيزودورا دنكان » أهدى إليها ضيعة فسيحة بها قصر فاخر فى شمال أسبانيا !



لوحة (نانا) رسمها عام ١٨٧٧ .. فاستوحى منها إميل زولا بعد ذلك روايته التى أسماها بنفس الاسم (نانا) .



الحياة الأرستقراطية ــ للفنان جرون J. GRÜN

.... ومن أمثال هذه القصص نقرأ العشرات والمئات من صور الإغراء والسخاء فى عهد الغانيات وسطوة الجمال على قلوب الرجال !.

الضحايا

أما الضحايا الحقيقيون للغانيات والفاتنات ، فكانوا من الفنانين الفقراء الذين لا يملكون غير فنهم ، فمن هؤلاء من وقف فنه على غانية واحدة هام بحبها .. يرسمها لوحة بعد لوحة ويعيش منتظرا على بابها بعد أن أوقعته فى شباكها ، فسقط صريع غرامها .. واعتبرها ملهمته الأبدية يتلقى وحيه من سهام لحاظها وبسمة ثغرها وفيض أنوثتها الطاغية .. وفى النهاية ينضب العطاء وتتنكر الغانية لعواطفه المستعرة بلهيب حبه المجنون .. فتكون نهايته !

وتزخر المكتبات العالمية بالمئات من الكتب التى تحكى قصص الضحايا وصرعى الغانيات من أهل الفكر والفن فى العصر الجميل .. عصر الفن والفكر والغانيات !!

ومن هؤلاء وأولئك سخر « أناتول فرانس » فى روايته الشهيرة « الزنبقة الحمراء » فعرض فيها نماذج من هؤلاء الغانيات ، وأضاف عنصرا جديدا هو نموذج « أنصاف الغانيات » ، أى سيدات المجتمع اللواتى يكسبن الأموال بنفس أساليب الغانيات ، وبالرغم من ذلك ، يحاولن أن يظهرن فى صورة السيدات المحترمات ..

وعلى أية حال ، فقد كان نفوذ الغانيات فى تلك الأيام ، ذا تأثير بالغ وسطوة جارفة وإغراء لا يقاوم..

فقد حدث أن تم اتفاق بين « ليان دى بيجى » وصاحب فندق الكورسال فى « فيشى » على أن تصطاف الغانية الشهيرة فى الفندق ، وما أن علم الأثرياء والوجهاء بوجودها ، حتى تسابقوا إلى حجز جميع غرف الفندق لمدة عامين بأسعار خرافية فرضها صاحب الفندق !.

●● وعم الابتذال والجمال الأنثوى والخلاعة والبدع المستحدثة فى ذلك العصر الرائع ذى الإيقاع الشجى واللحن الراقص والوجه السافر والأضواء المتلألئة والأبواب الموصدة والمخادع الوردية والموائد الحمراء ..

... وظلت الأمور تسير على تلك الوتيرة المترفة السكرى .. حتى داهمتها الحرب العالمية الأولى .. فاندثرت لآلئ العقد من حول أعناق العابثات والغانيات والمغامرات .. وزلزلت الكارثة كيان الحضارة الأوروبية من أدناها إلى أقصاها .. وانشغل كل امرىء بنفسه عن الآخرين .. وأصبح الإلهام الغارق فى الملذات والدفء والبذخ .. دمارا ورعدا يتوهج فى ليل موحش رهيب .. وتحول كثير من الفنانين إلى محاربين يذودون عن أوطانهم بإبداعاتهم الصارخة من ميادين القتال .. وصارت ملهمتهم الحقيقية الماثلة أمام أعينهم .. هى كرامة الوطن ، وشهدت أوروبا تحولا فكريا رائعا يهتف بالحرية ويواكب معارك المصير !.

وفى أثناء تلك الحرب الرهيبة تحولت جماليات الفن المترف إلى أنقاض ، واهتزت ثقة الفنانين بأنفسهم . وبمعنى الجمال .. بل بمعنى الفن من أساسه ، وظهرت نزعات غاية فى الغرابة كالعبث وتشويه الجمال واللامعقول تحت اسم « الدادية » ، وكانت الدادية إيذانا بعهد قادم جديد ذى آفاق فلسفية لا حدود لها .. تبحث فى معنى الإبداع واللاشعور وما وراء الطبيعة وعوالم الروح والأحلام .. وما المذهب السيريالى إلا اللجوء إلى هذه العوالم الخفية هروبا من عالم الواقع المرير !.

شرارة البلقان التى أشعلت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وقضت على مظاهر العصر الجميل — اندلعت من سيراييفو : مصرع الأرشيدوق فرانسيسكو ولى عهد النمسا .





وبداية التحرر والسفور .. ثم عصر المرأة المسترجلة

كانت القوتان الرئيسيتان فى التاريخ الأوروبى الحديث هما فرنسا وبريطانيا .. وإذا كانت باريس هى عاصمة النور .. نور الفكر والوجدان .. فالعاصمة البريطانية لندن كانت المنافسة التى تسعى فى ندّية وثبات وصمود أمام التحولات السياسية والفكرية والاجتماعية ولا سيما فى مجال الابداعات الفنية .. وقد عم (العصر الجميل) كافة العواصم الأوروبية آنذاك .. وكان بداية لعصر التحول فى تحرر المرأة الأوروبية عامة والإنجليزية بخاصة .. وإليكم القصة :

كان العصر الفيكتورى الذى استمر طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وانتهى بوفاة الملكة فيكتوريا عام ١٩٠١ ، عصرا بلغت فيه الإمبراطورية البريطانية أوج مجدها وسيطرتها على مقاليد الأمور فى العالم .. ورغم أنه كان على رأس هذه الإمبراطورية امرأة .. إلا أن (الرجل) كان كل شىء فيها ، وما كانت المرأة إلا الزوجة أو الحبيبة أو الفتاة الرومانسية الحالمة التى تنتظر فى بيتها حتى يأتيها ابن الحلال ! وشهد ذلك العصر أروع مظاهر الشاعرية وتمجيد العنصر النسائى مصدر الجمال والدفء والحنان . وظل هذا وضع المرأة الإنجليزية حتى بدأت رياح التغيير تهب على الجزر البريطانية من دولة النرويج فى الشمال ، حيث عرضت على مسارح عاصمتها (أوسلو) عام ١٨٧٨ مسرحية (بيت الدمية) للكاتب النرويجى الشهير (هنريك أبسن) وفيها تثور الزوجة (نورا) ضد زوجها (هيلمر) الذى كان يمثل الزوج التقليدى فى عصره ، ولا تعنى زوجته عنده إلا دمية يلهو بها وقتما يشاء ... وكانت المفاجأة غير المتوقعة فى المسرحية آنذاك أن تثور الزوجة ثورة عارمة وتترك له البيت بلا عودة ! كانت نهاية جديدة وغريبة بالنسبة لروح العصر التى بلغت أوجها فى التزمت والمحافظة .. وتلقف برناردشو (عميد كتاب المسرح البريطانى) هذا الاتجاه الثورى من زميله النرويجى ، وألف عدة مسرحيات تعزف على نفس الوتر ... وعلى أثر ذلك تكونت الجمعيات النسائية التى تطالب بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل فى فرص العمل وفى الحصول على نفس الأجر وفى حق الانتخاب ... أى أن تحصل على نفس الحقوق التى يتمتع بها الرجل على أن تكون عليها نفس الواجبات ... وتحقق للمرأة الإنجليزية ما أرادت ... وساعدتها ظروف الحرب العالمية الأولى التى قضت على زهرة الرجال فى أتون المعركة .. فوجدت المرأة الميدان خاليا لتصول وتجول ، نظرا للحاجة إلى الأيدى العاملة آنذاك . وتمادت المرأة فى الحصول على أكبر قدر من الحرية وكأنها تعوض قرونا طويلة مضت .. أو كأنها سئمت دور الزوجة أو المحبة الرومانسية الحالمة .. ولم يبذل الرجل الإنجليزى جهودا تذكر فى التصدى للتيار الأنثوى الجارف لأن المرأة قد أشهرت فى وجهه تهمة التزمت والرجعية والتعصب .. وأصبح تعبير « المرأة المسترجلة » تعبيرا شائعا لم تخجل منه المرأة الإنجليزية بل تفاخرت به كدليل على القوة والسطوة التى طالما كانت تحلم بها ! وظلت كذلك حتى قامت الحرب العالمية الثانية .. فقضت على البقية الباقية من التماسك الأسرى والتقاليد الموروثة التى كانت لا تزال سائدة فى بعض المجتمعات البريطانية .. وبذلك أصبحت المرأة الأنجليزية (تنعم) بالحرية الكاملة دون قيود من أى نوع .. حتى إن الزواج أضحى فى نظرها قيدا تقليديا وجب عليها أن تتخلص منه !! فكل شىء مباح وفى متناول يدها دون وثائق أو حدود . وبالتالى كان وضع الرجل يتدهور طرديا مع تدهور الإمبراطورية البريطانية التى كانت لا تغرب عنها الشمس من قبل ! ووصل التدهور إلى قمته بعد حرب السويس عام ١٩٥٦ .

●● ونسيت المرأة الإنجليزية التى حصلت على أكثر مما كانت تحلم به من الحرية والسيطرة ، إن قانون الطبيعة يقول : إذا زاد الشىء عن حده ، انقلب إلى

ضده ! ولذلك رأينا أن هذه المرأة قد فقدت استقرارها العاطفى والنفسى بعد أن ضاعت منها صفة الأنوثة وكنوز العطاء الذى أودعه الله فى طبيعة المرأة .. فلم يعد الرجل يهتم بها أو يقدر إلهاماتها الناعمة الحانية .. وهى — بالتالى — شغلتها مسئولياتها ومهامها المكتسبة عن القيام بدورها الطبيعى فى إثارة العواطف أو إضفاء الدفء والحنان والرومانسية على أسرتها .. وأحست بالضياع وفقدان الذات وأصيبت بالعقد النفسية والملل واهتزاز الشخصية ! وانشغل علماء النفس والاجتماع فيما انتاب المرأة المعاصرة التى تربعت على قمة التحرر والسيطرة .. ومن جانبها حاولت اجتذاب الرجل مرة أخرى بغريزتها الطبيعية التقليدية ، فأخذت تعرى أكبر قدر ممكن من جسدها ، ولذلك انتشت (موضة) المينى والميكروجيب .. وبدت شبه عارية فى مجتمع ذى طقس شديد البرودة لا يتناسب إطلاقا مع مثل هذه الملابس . ووجد الرجل الانجليزى نفسه وسط ملايين النسوة وقد تعرين مرة واحدة ، فانتابه نوع من الحصانة ضد أى إغراء ولم يعد يعير المرأة أى اهتمام ولو مجرد نظرة فى الطريق العام ، وتفتقت أذهان المخططين وفلاسفة العصر عن خطط يائسة لرأب الصدع واجتذاب الرجل وإثارته لكى يتنبه إلى مفاتن المرأة .. فانتشرت المجلات والأفلام الفاضحة والنوادى الليلية التى يتبارى النساء الخليعات فيها بالكشف عن أجسادهن .. أى أنهن يخاطبن الغرائز مباشرة بعد أن فشلن فى مخاطبة الوجدان والعواطف .. ولكن .. دون جدوى !! أليست المرأة الشرقية أفضل بكثير من مثيلاتها فى الغرب ؟! إن كنوزها الأنثوية المصونة ما زالت أثمن ما يتطلع إليه الرجال فى مجتمعاتنا المحافظة !



هكذا كانت أزياء النساء



ماري أنطوانيت :
عـروس القصر الكبير

الحب أنبل عاطفة أودعها الله فى قلوب البشر .. وهو كائن حى يتفاعل ويتأثر ويتأقلم بالمكان والزمان .. وهو إحساس معنوى يسرى فى الروح والوجدان ، فيضفى على النفوس بهجة ونشوة غامرة .. أو نتجرعها مرارة ويأسا وظلاما نتخبط فى حلكته فاقدى الوعى والاتزان .

وكان طبيعيا أن تحظى عصور الرومانسية الأوروبية بجل عنايتنا ، لأن هذه العهود الذهبية قد استأثرت بازدهار الحياة العاطفية وجعلت قضايا الحب وسيطرة الجمال فوق كل اعتبار ، وتبارى الفنانون العظام فى اتخاذ الفاتنات وربات الحسن والدلال ، نماذج موحية لعطائهم العبقرى الخالد .. وهكذا وضع الجمال الدافئ الفاتن فى أطر من ذهب فى أروقة المتاحف .. واحتلت صوره صفحات التاريخ ، وأصبحت صور الملهمات من أهم وثائق المسيرة الإنسانية كلها فرأينا حكام فرنسا — مثلا — وهم أصحاب العروش والتيجان ، يتفاخرون ويتسابقون إلى اتخاذ الخليلات والاستحواذ على أجمل النساء الباريسيات .. ثم يطلقون أيديهن فى كل ما يتعلق بمقاليد الحكم وتسيير دفة أمور الدولة ورسم سياستها الخارجية والداخلية .. بل ويصبحون خلفهن ، يأتمرون بأمرهن فى كثير من الأحيان !

وبلغت هذه الرومانسية الوردية ذروتها فى القرن الثامن عشر .. وهو قرن التحولات الكبيرة والأحداث الجسام .. ففيه ، كانت العلاقات متأثرة بتفتح القلوب وحياة الفطرة وانطلاقة العواطف على سجيتها ، تلك التوصيات التى نادى بها الفيلسوف الشهير « جان جاك روسو » .. وظلت الحياة الشاعرية تنساب فى بساطة وسلاسة حتى انقضت عليها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .. فزلزلت الأرض وقلبت كل الأوضاع والموازين ، واختفى الحب العاطفى والروابط الوجدانية وسيطرت بدلا منها غلظة الجنود ونزواتهم الجامحة .. يغتصبون المتعة اغتصابا قبل أن تلتهمهم الحرب المستعرة فى كل الأرجاء .. وهكذا تحول الحب من دائرة الوجدان إلى دائرة الغرائز ، متجردا من الشاعرية .. حتى إنه اتخذ طابعا شعبيا يتسم باللامبالاة وعدم الاكتراث .. فلا وقت للرومانسية وسط ضجيج السلاح وسفك الدماء !

ولنعد إلى الوراء قليلا .. قبيل الثورة الفرنسية الجامحة .. لنشهد أروع سنوات الترف والسرف والبذخ .. فى أروقة البلاط الملكى العريق ، حيث تتألق أطياف الشاعرية بين رجالات القمة ونسائهن الفاتنات .. حتى بلغت الذروة .. وما بعد القمة إلا الانهيار !

رسامة الملكة المدللة

نلاحظ أن الغالبية العظمى من فنانى التاريخ الكبار ــ إن لم يكونوا كلهم تقريبا ــ من الرجال ، ونادرا ما نجد بين هذا الحشد الضخم من عباقرة المبدعين ، فنانة شهيرة من النساء .. إلا أن « مدام فيجيه لوبران » ، استطاعت أن تحتل مكانة مرموقة بين رسامى عصرها فى القرن الثامن عشر ، وقد تخصصت فى رسم فاتنات المجتمع الفرنسى ، وسيدات الطبقة الأرستقراطية المترفة ، حتى وصلت أخيرا إلى غادة باريس مارى أنطوانيت .. ملكة فرنسا ، والحاكمة بأمرها ، وصاحبة النفوذ والسلطان .. بما تتمتع به من سطوة مفاتنها الأنثوية الملهمة ، ومن مكانتها فى البلاط الفرنسى كملكة جمعت بين أناملها كل خيوط الحكم والتحكم فى مقاليد البلاد .


مارى أنطوانيت .. الملكة

ومنحت الملكة الفاتنة رسامتها لقب « رسامة الملكة » ، وقربتها إليها ، وصارت تجلس أمامها الساعات الطوال لكى ترسمها فى مختلف الأوضاع فبلغ عدد اللوحات التى رسمتها لها أكثر من ثلاثين لوحة : وهى موزعة الآن على المتاحف الفرنسية الكبرى مثل اللوفر وفرساى وغيرهما .

وكانت إبداعات « لوبران » لصور الملكة الحسناء .. تفيض بالحب والولاء والتفاعل الوجدانى والإحساس المرهف النبيل . ولذلك خلدت مارى أنطوانيت فى وجدان الشعب الفرنسى كمثال حى للجمال والأناقة ، تجر وراءها فتيات باريس ــ بل فتيات أوروبا كلها ــ يقلدنها فى أزيائها وتصفيفة شعرها ، ووسائل إناقتها وطريقة زينتها وسلوكها الأرستقراطى الناعم الرقيق ..

وحتى بعد قيام الثورة الفرنسية العارمة ، وإعدام الملكة وأعوانها ، ظلت صورتها الجميلة تفرض نفسها على أذواق النساء الأنيقات لسنوات طويلة .


رسامة الملكة : مدام فيجيه لوبران (وقد رسمت نفسها تحتضن ابنتها)

وما أمتع من أن نستعرض سويا قصة هذه الفاتنة الحسناء ، ونجول فى أرجاء البيوتات الفرنسية المترفة .. لنقف على أسرار القلوب الهائمة فى ليالى باريس الساهرة السامرة الساحرة !

.. وتفتحت الزهرة قبل الأوان

فى عام ١٩٥٥ ، احتفلت فرنسا بمرور مائتى سنة على مولد مارى أنطوانيت .

فقد كان مولدها عام ١٧٥٥ ، وكانت هذه السنة ، هى نفسها ذكرى مولد النبيل السويدى الذى دخل تاريخ فرنسا من بوابة قصر الملكة الحسناء ، وهو « الكونت أكسل دى فرسن » وكان حلول هذه الذكرى واحتفاء فرنسا بإحيائها ، كفيلا بحمل المؤرخين والباحثين على أن ينقبوا فى ركامات التاريخ ، ويكتبوا سيلا من المؤلفات الممتعة ، تتناول غرام الملكة بفارسها السويدى ، وهو الذى دخل قلبها علانية وهى تتربع على عرش فرنسا وعلى عقل ملكها لويس السادس عشر !

وقد اختلف المؤرخون حول هذه العلاقة ، إلا أن معظمهم قد أجمع على أنها لم تتعد حدود الحب العذرى العفيف ، مما جعلها من أروع القصص الغرامية فى التاريخ .

كانت مارى فى الخامسة عشرة من عمرها عندما بهرت بجمالها كل من حولها فى البلاط الإمبراطورى النمسوى التى ترعرعت فيه ، فكانت كزهرة فاح أريجها وتفتحت قبل الأوان .. وبجانب حسنها المثير ، تمتعت بذكاء متقد وجاذبية لا تقاوم . وذاع صيت جمالها النادر وتعدى حدود بلدها حتى طرق مسامع ولى عهد فرنسا — آنذاك — لويس السادس عشر (وهو الاسم الذى عرف به بعد أن تربع على العرش الفرنسي) ، وكانت هذه المواهب الأنثوية ، والذهنية كفيلة بأن ترجح كفتها للزواج من لويس .. ولى عهد الدولة المهيمنة على الآفاق الأوروبية من الجنوب إلى أقصى الشمال .. وقد تم هذا الزواج الملكى فى ١٦ من مايو عام ١٧٧٠ .

ومن أطرف ما قرأت عنه فى موسوعة L'illustration التى تتناول جانبا من أطرف وثائق التاريخ الفرنسى ، أنه فى ليلة الاحتفال بالزواج ، وقبل أن يخلو العروسان فى مخدعهما ، أقيمت مأدبة ملكية فاخرة للعروسين وضيوفهما من مختلف أنحاء العالم ، ولاحظ رجال القصر أن لويس يلتهم الطعام بشراهة غريبة ، فهمس مستشاره فى أذنه قائلا : لا تأكل كثيرا الليلة حتى لا تثقل معدتك فتنام سريعا .

فأجاب العريس فى استغراب . لماذا ؟ إننى أنام نوما هادئا وعميقا كلما تناولت عشائى بشهية ، ولماذا تريدنى أن أسهر هذه الليلة ؟!

... هذا هو الزوج العجيب الذى ساقته الأقدار لأن يكون رفيق الحياة لتلك الحسناء المتوهجة المتفتحة لمتع الحياة !.

ومرت السنوات .. وكان طبيعيا أن يحرما من الإنجاب .

ولنلق نظرة إلى الزوج الشاب ، ولى عهد فرنسا وملكها المرتقب ، فنجده محدود الذكاء والمواهب ، خاملا متبلدا ، يكاد يخلو من كل ما يجبب النساء فيه أو يجذبهن إليه ! . ثم هو فوق كل ذلك ، مصاب بعاهة جسدية تمنعه أساسا من الزواج !



لويس السادس عشر



ملكة فرنسا
ماری أنطوانيت

وفى إحدى الليالى من عام ١٧٧٤ ، ذهبت مارى إلى دار الأوبرا لمشاهدة حفل أقيم تحت رعـايتها ، وكانت تحس كعادتها بالوحدة والفراغ العاطفى المرير .. وجلست فى المقصورة الملكية المذهبة .. وألقت نظرات حسيرة كسيرة على ذلك الجمع السعيد من حولها .. يجلس الرجال بجانب نسائهم وقد غمرت قلوبهم فرحة الحب الدافئة .. فطفحت على وجوههم بشرا وتألقا واستمتاعا بغير حدود !.. وكانت فى تلك الأيام .. وبعد أربعة أعوام من زواجها .. تشعر بأن الخواء العاطفى الذى تعانيه يعتصر كيانها اعتصارا ..

... وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة قضتها فى الاستماع إلى موسيقى الحفل الشجية ، حتى دق قلبها لأول مـرة ، مستجيبـا لنـداء الحب .. وكان هـو الكونت الذى يتعقبها دائما فى حفلاتها الرسميـة ، ليحظى منها بنظرة .. !

لقد التـقت برجـل أحلامهـا المنتظـر .. شاب



الحفلات الباذخة فى ليالى باريس

سويدى من النبلاء ، يفيض بالوسامة والرجولة ، ويرفل فى حلل الإناقة والثراء .. إنه الفارس الذى قدر له أن يذوب فى حبها على البعد .. حبا حقيقيا مجردا من أى غرض .. إذ كانت ظروفها ومكانتها الرسمية قيدا لها وحائلا دون أى مطامع أخرى .. ولا سيما وهو السويدى الغريب المجرد من سلطان العائلة وسطوة الخلصاء والأتباع فى فرنسا !

وفى ذلك العام « ١٧٧٤ » ، اعتلى لويس عرش البلاد ، لقد بلغ العشرين من عمره آنذاك .. وأصبح ملك فرنسا ، وبجانبه زوجة فائقة الحسن والجمال .. لقد تحول الملك الشاب بكل مواهبة المحدودة إلى الانهماك فى مسئولياته الجسام .. كما أضحت مارى أنطوانيت ، وهى تضع التاج فوق جبينها الساحر ، تعيش فى فراغ وجدانى كامل .. فاتجهت بكل أحاسيسها إلى التفكير فى فارسها السويدى الذى التقت به فى ليلة الأوبرا .. وقد نضحت نظراته بأسرار قلبه الملتاع ..

إن لويس وزوجته الفاتنة نقيضان فى كل أمر من أمور الحياة ؛ فهو يكره السهر ولا يميل لأى نوع من أنواع التسلية أو الترفيه ، أما هى فتقضى الليل فى السهر والسمر وحضور الحفلات والدعوات وندوات الفن والفكر والعزف والغناء . كل منهما فى عالمه يدور فى فلكه الخاص .. وكان عليها أن تحدد قرارها فى الاختيار ، ولم تجد الحسناء التى تعيش ربيعها فى خريف البلاط الملكى ، أمامها إلا أن تتجه بعواطفها إلى الكونت السويدى الوسيم « أكسل دى فرسن » ، وتدبر أمورها لكى تمنحه من اهتمامها المزيد .. إنها تعيد قصة مدام دى بمبادور مع لويس الخامس عشر .. والملك الشاب .. لابد وأن ينسج على منوال سلفه .. ولتتكرر نزوات القصر دائما مع كل وافد جديد .

حب عذرى فى عاصمة النزوات :

منذ أن التقت به فى دار الأوبرا ... وهى دائبة التفكير فيه .. إنه مثال للتفانى والحب المجرد عن كل غاية .. وهو نقيض لزوجها صاحب العرش تماما .. ومهما كانت الأسباب والمبررات فقد أحست بحبه يسرى فى لمسات حانية .. ويتسلل إلى قلبها من حيث لا تدرى ..

إن تلك الآونة من تاريخ الحياة الباريسية .. كانت تزخر بصنوف النزوات والاستمتاع بغير حدود .. ومهما كانت حياة الرومانسية آنذاك ، فإنها لم تعرف الحب العذرى فى صورته المثالية كما كانت هذه العلاقة بين بطلينا فرسن ومارى أنطوانيت !.

لقد أجمع المؤرخون على أن حبهما ظل نقيا حتى آخر لحظة من حياة الملكة الفاتنة ، كما ظلت مواقفه النبيلة بجانبها فى كل أزماتها .. مثالا للوفاء النادر !!..

أما الكونت فرسن ، فكان سويديا أرسله أبوه فى رحلة يطوف خلالها أنحاء العالم ، لكى يكتسب خبرة وتجربة عملية فى واقع حياة الشعوب المختلفة ، وذلك قبيل أن يتسلم قيادة أسرته العريقة ولكن ، ما أن تطورت الأمور .. ووقع فى حب مارى أنطوانيت .. وبادلته حبا بحب ، حتى أعاد حساباته ، وتبدلت



تمثال مارى أنطوانيت من الرخام
(١٧٥٥ ـ ١٧٩٣)
للفنان جان باتيست
(وقد أهـداه لويس السادس عشر
لوالدتها الإمبراطـورة مارى تريـز
عام ١٧٧٢) .

وسائله وأهدافه .. وصمم على أن يستقر بجوارها فى العاصمة الفرنسية ويصبح رجلها النبيل وبطلها المرتقب .. كأعظم وأروع تجربة فى حياته !

ومما زاد الأمر غرابة ، أن أصدقاء الملكة المقربين إليها من البلاط وخارجه ، وحتى شخصيات المجتمع الباريسى ومفكريه ، قد تعاطفوا فى بادىء الأمر مع الملكة المحبة الرقيقة ، لعلمهم بما آلت إليه أحوال القصر فى ظل ملكهم الجديد ، فأخذوا يشجعون هـذه العاطفة الوليدة لكى تنمو وتترعرع .. لا حبا فى الخيانة .. ولكن حبا وعطفا على ملكتهم الفاتنة التى تعانى من مرارة الحرمان ! وربما أحس لويس فى الوقت ذاته بأنه شحيح فى عطائه لزوجته .. ففاقد الشىء

لا يعطيه ! ولعله سكت على ما يجرى فى البلاط .. وكتم غيظه إزاء ما يعتمل فى وجدانها المكدود المحطم ! ولعلها كانت مجرد هدنة تجنبا لمزيد من المشاكل الكبرى .. ولا سيما وقد تجمعت السحب الداكنة فى سماء السياسة الأوروبية .. واكفهر الأفق الفرنسى .. وشعر بأن كرسى العرش يهتز من تحته ، وأن نذر الصواعق الثورية تكاد تنشق عنها الأرض لتحدث الزلزال المرتقب .. فلتكن هذه المهادنة فى وقتها المناسب .. ولعل هذا أو ذاك .. ولكن الحقيقة الماثلة فى أرض الواقع .. هو ما حدث من تدعيم أواصر الحب بين العاشقين أمام الجميع وملء السمع والبصر !



مارى أنطوانيت

وقد دأب « فرسن » على التزام الصمت والحذر والمثالية الأرستقراطية فى كل أقواله وأفعاله ، حتى لا يسبب حرجا لملكته التى تفانى فى حبها والولاء لها .

وتدخلت مارى أنطوانيت بكل نفوذها لدى المسئولين فى الجيش الفرنسى ، فصدر الأمر بتعيين النبيل السويدى « أكسل دى فرسن » ضابطا فى الجيش برتبة كولونيل بإحدى الفرق المرابطة فى باريس بجوار القصر الملكى . وقابل المحب النبيل هذا العطف من حبيبته وملكته بما هو أهل له ، وما عليه إلا التضحية من أجلها حتى بالحياة ذاتها من أجل أن يصون سمعتها ، لتظل طاهرة نقية فى نظر الشعب الفرنسى ، وفى نظر الدنيا بأسرها !.



مدام دى بمبادور

ولكن مارى لم تكن على نفس القدر من الحيطة والحذر ، فالنساء عادة أقل قدرة على كبت عواطفهن من الرجال .. وغالبا ما تضيق صدورهن بما تعج به من أسرار الحب والهيام !.

ويوما بعد يوم .. أخذت أسرار تلك العلاقة العاطفية المستعرة ، تتسرب من داخل أروقة البلاط .. لتتلى على مسامع الجميع .. تلوكها الألسنة ، وتتفنن فى تزويقها وتبالغ فى أحداثها وتصوغها على هيئة الأساطير . وامتزج للواقع بالخيال .. وأصبحت قصص غرام الملكة بالضابط السويدى مضرب الأمثال !

ووصلت التقولات والشائعات إلى مسامع الكونت النبيل .. فخشى على ملكته وعلى حبهما العذرى من التلوث فى أوحال الوهم وأوهام الأساطير ... لا سيما وهو يعلم جيدا مدى سطوة صاحب العرش وحاشيته .. ومدى انتقامهم المروع إذا لزم الأمر وفاض الكيل وتعقدت الأمور .. وأتت الرياح بما لا تشتهى السفن ! فقد طفت على السطح ــ فجأة

ـــ موجة من النقد اللاذع لتصرفات الملكة الحسناء .. وكيف خرجت على تقاليد البلاط ..

وعلى غير انتظار ، جاء رسول من النمسا حاملا رسالة من ملكتها « مارى تريز » إلى ابنتها مـارى أنطوانيت تؤنبها على هـذه التصرفات المجنونـة .. وتذكرها فيها بأنها سليلة بلاط عريق ـــ هو البلاط النمسوى ـــ تحترم فيه التقاليد لتكون فوق كل اعتبار .

وفى الوقت ذاته .. اجتمع نفر غفير من فلاسفة فرنسا ومفكريها وساستها .. وأصدروا بيانا يقولون فيه :

« إن التقاليد فى البلاط الفـرنسى ، تتعـارض وأعمال الملكة ، كما أن تصرفاتها غير المسئولة تتنافى مع هذه التقاليد الموروثة ، ويبدو أن ملكة فرنسا لم تدرك بعد أن قلبها محرم عليه أن يحب غير الملك » !!

وأسقط فى يد العاشقين .. ولم ينم « فرسن » ليله ، وأخذ يستعرض ما يدور حوله ، وتمزق قلبه



لوحة أخرى لمارى أنطوانيت رسمت لها فيما بين عامـى ١٧٦٩ ـــ ١٧٧٠



طابع الحياة الفنية فى عهد الرومانسية الفرنسية (القرن الثامن عشر)



خوفا على الملكة .. وعلى حبه الكبير .. ووصل إلى قرار خطير !

لقد عزم على ترك فرنسا كلها على الفور ! وتقدم بطلب إلى قيادته فى الجيش الفرنسى .. لنقله إلى أقصى مكان فى الدنيا .. إلى أمريكا ؟

فأجيب إلى طلبه فى الحال ، ونقل إلى هناك .. مساعدا للقائد الفرنسى « روشامبو » الذى كان يحارب مع المتطوعين فى حرب التحرير الأمريكية آنذاك .. وكان ذلك فى عام ١٧٨٠ .

وظل الكولونيل فرسن فى تلك البقاع النائية ثلاث سنوات ، يتمزق قلبه مع مطلع كل يوم جديد . بعيدا عن حبيبته التى ملكت عليه حياته ووجدانه .. وكثيرا ما نجد أن البعد لا يخمد جذوة العاطفة الملتهبة .. بل يزيدها توهجا واشتعالا.. وهكذا رأينا المحب الولهان ، وقد قرر العودة إلى فرنسا عام ١٧٨٣ بعد هذا النفى الاختيارى .. وهو أكثر شوقا وتلهفا لرؤية فاتنته . وكانت مارى ـــ وقد اكتملت أنوثتها وفاض السحر من قسماتها ـــ أشد منه لهفة للقائه . وهى فى أوج تفتحها حتى أضحت جديرة باللقب الذى أطلق عليها فى فرنسا وأوربا كلها :

« أجمل نساء فرنسا » ! وكيف لا ، وقد تخطت مرحلة الصبا ، ونضجت مفاتنها وهى ترفل فى حلل الترف الملكى والبذخ الأرستقراطى ، وزادها وقار الحكم وبهاء التاج هيبة وتألقا .. لقد بلغت السابعة والعشرين من عمرها .. وكان هو فى نفس العمر حينذاك .. واستطاعت بقوة شخصيتها وجاذبيتها أن يكون اسمها على كل لسان .

الهروب إلى أين ؟

وكمن يستجير من الرمضاء بالنار ، أخذ صاحبنا يفكر فى حلول سقيمة علها تشفيه من غرامه اليائس ومن عذاب قلبه الملتاع .. فأوهم نفسه بأنه لابد وأن يتزوج من فتاة باريسية رائعة الحسن والجمال ، فربما استطاعت أن تنسيه حبيبته غادة القصر الكبير !

ووافق والده ـــ النبيل السويدى ـــ على هذه الخطوة الشجاعة .. وعمت باريس شائعات جامحة بأن اختياره قد وقع على هذه وتلك من زهرات المجتمع الأرستقراطى .. ولكن الأيام تمضى .. والشائعات تتردد .. و لم يقدم فرسن على ما عزم عليه .. وحضرت أسرته من السويد .. واختاروا له فتاة تتجمع فيها كل مزايا الزوجة التى تليق بحسبهم ونسبهم .. وتقدموا لخطبتها نيابة عنه .. وكان الأمر قد دخل إلى حيز التنفيذ .. فما كان من المحب الملتاع إلا أن صحب أحد أصدقائه من النبلاء المعروفين ليحل محله ، ويتزوج هذه الحسناء .

وكان لا بد له ـــ والحال هذه ـــ من أن يهرب من حبه أو من نفسه مرة أخرى هائما على وجهه ، فاقدا الوعى والاتزان ... وأقدم على أفعال جنونية لم تكن من أخلاقياته التى عرفت عنه ، ولكنه اليأس القاتل الذى أصاب كيانه بالعقد النفسية واللامبالاة واختلاط الأمور فهو لا يقوى على التمييز بين الفوضى والتعقل .. فتصرف برعونة لم يعرفها من قبل ولا تليق بمثله العليا وسلوكياته التى ألفها وحرص عليها طول حياته .. فقد غرق حتى أذنيه فى الرذيلة .. وترك لنزواته العنان مع فتيات ساقطات فى قاع المجتمع ! حتى أصبحت سمعته المشينة مضرب الأمثال .. إنه انتحار بطىء !



وعندما علمت مارى أنطوانيت بهذه الأنباء المفجعة ، أحست بثقل المسئولية إزاءه .. وبأن حبهما الكبير هو الذى دفع به دون هوادة إلى عالم الضياع ! فأمرت بإحضاره حيثما يكون ..

وعاد فرسن .. وأحاطته الملكة برعاية خاصة ، وبالعديد من الأصدقاء والمستشارين الأوفياء ، وانساقت إليه أكثر تعاطفا ومودة وقربا عن ذى قبل .. غير عابئة هذه المرة بما يقال .. أو بما يزلزل العرش من فوقها وتحتها .. لقد أحست بأن الحب لابد أن يكون كبيرا .. وأن التضحية ـــ فى المقابل ـــ لابد وأن تكون غالية فادحة .. فبقدر الأهداف الكبيرة .. تكون التضحيات أكبر وأعظم !! واهتز كيان البلاط من جديد .. وتنبه لويس السادس عشر إلى الخطر الذى يحدق به فى حياته الخاصة ، ليضاف إلى أخطار الحرب وصواعق السياسة ودسائس القصر وفواجع المؤامرات من حوله !

وهنا استخدمت الملكة الحسناء أسلحتها الأنثوية الحانية ! وشراكها الحريرية الناعمة .. واستطاعت أن تقنع زوجها بأن الرجل نبيل عفيف نزيه .. مخلص كل الإخلاص للقصر وسيده ، شديد الولاء للعرش وصاحبه وأن على الملك أن يجمع المخلصين من أمثال « فرسن » حوله فى هذه الظروف العصيبة ، وألا يعطى الفرصة لخصوم القصر لكى يبعدوا الشرفاء عن صاحب التاج ..

واقتنع لويس على الفور .. بل اتخذ من غريمه الشريف ، صديقا وجعله من حاشيته وخلصائه المقربين .

الوفاء فى وقت الشدة :

وتعمر قلوب المحبين بالسلام والسكينة ..

.. وتمر الأيام والسنون ، وتدور عجلة الأحداث اللاهثة .. فتهب عواصف الثورة الفرنسية العاتية .. لتزلزل أرجاء القصر المفعم بالأسرار المثيرة .. ويأتى عام



الروح الجديدة التى هبت على فرنسا

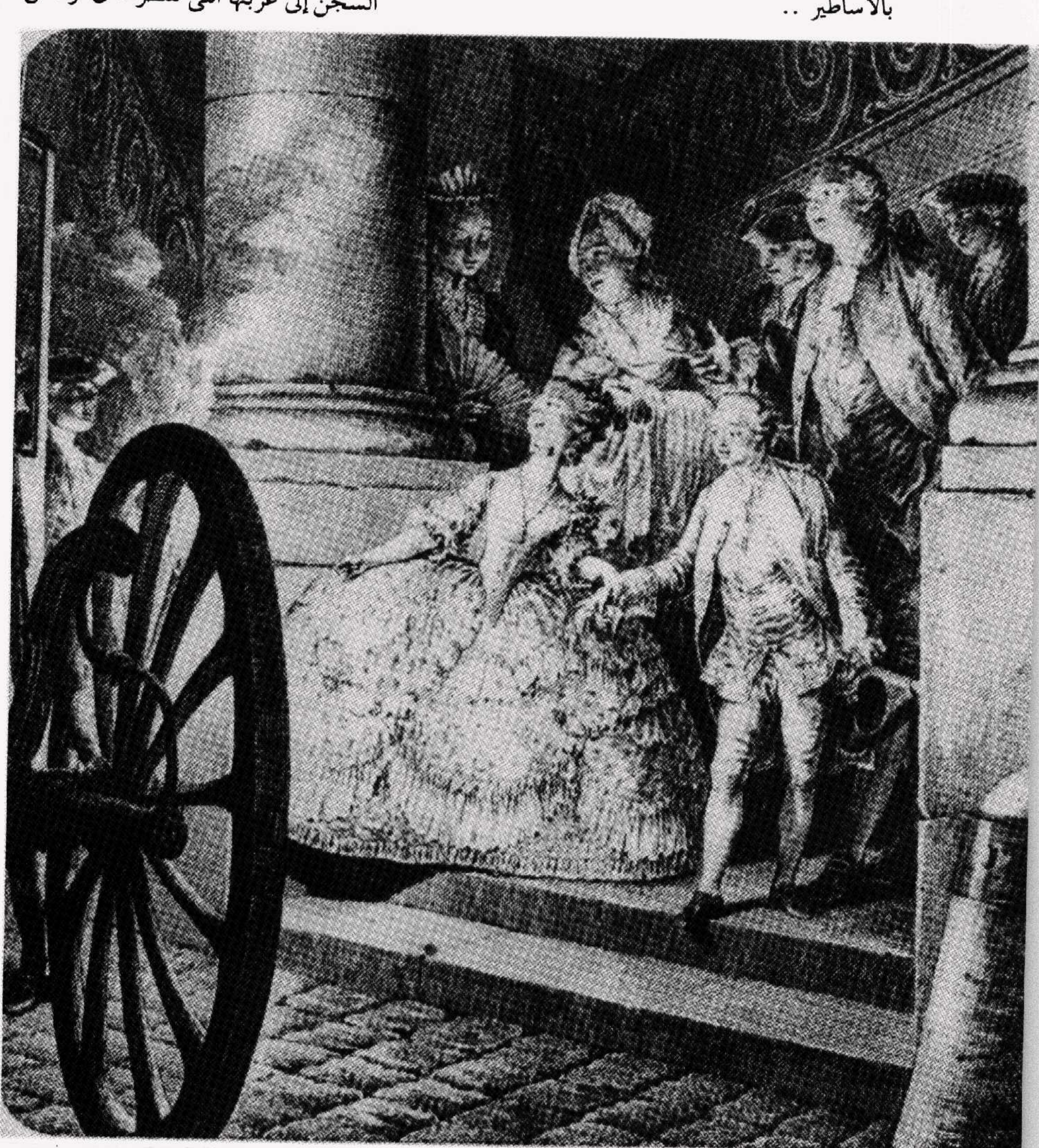
١٧٨٩ .. وتتفجر البراكين فتحدث دويا يصم آذان أوروبا والعالم بأسره .. ويتخلى النبلاء ورجالات القصر والحاشية عن مناصرة العرش خشية انتقام الثوار .. واختلط الحابل بالنابل .. وتلبدت السماء بالغيوم ! وطفحت على سطح الحياة الفرنسية أطماع السوقة وشهوة الانتقام ، وفقدت فرنسا إناقتها وشاعريتها المعهودة .. وسيطرت على مقاليد الحكم جحافل الفوضويين .. وتحطم كل شىء فوق الرءوس !

وجاء دور الحبيب النبيل .. فأثبت فرسن بحق أنه أكثر أصدقاء العرش وفاء واخلاصا ، فمن بين حطام الأرستقراطية الفرنسية ، ومعمعة السوقة فى ساحات الإعدام التى نصبت لرقاب أصحاب التاج والساسة والمفكرين والفنانين والعلماء على السواء .. سخر الكونت السويدى نفسه وأتباعه وأمواله لإنقاذ

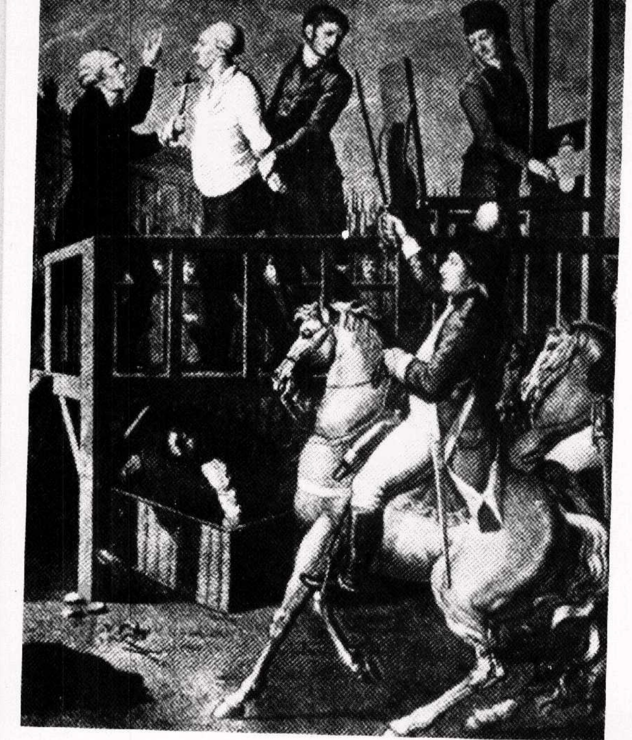
ما يمكن إنقاذه ، وتجلدت الملكة الحسناء ، وصمدت بجانب زوجها ثلاث سنوات حافلة بالرعب والذعر وفواجع الإرهاب الدموى والهمجية المتسلطة ، وأخيرا ، زج بها فى السجن بظلامه الرهيب ، ولكن فرسن أبى على نفسه الملتاعة أن يتخلى عن حبيبته التى ملكت عليه حياته ، وهو يعلم أن الموت محدق به فى كل لحظة .. فأقدم على عمل انتحارى بطولى أشبه بالأساطير ..

لقد أعد خطة محكمة جسورة لإنقاذ ملكته من سجنها ، وذكر التاريخ أنها من أجرأ المغامرات التى أحكم التخطيط لها بمهارة فائقة .

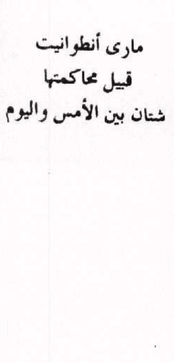
ففى فجر أحد أيام الفوضى العارمة التى عمت الحياة الفرنسية وقتها .. وقفت عربة تجرها الخيول أمام أحد أبواب السجن الرهيب ، وتعاون الأتباع والحراس فاستطاعوا أن يقودوا الملكة من غياهب السجن إلى عربتها التى تنتظرها فى توجس عند الباب



.. وحانت ساعة الرحيل



لويس السادس عشر على المقصلة الرهيبة



ماری أنطوانيت
قبيل محاكمتها
شتان بين الأمس واليوم



الخلفى ، واحتبست الأنفاس .. وما هى إلا لحظات حتى كانت العربة تشق طريقها بسرعة جنونية نحو الحدود الشمالية .. يقودها فرسن بنفسه ! كادت الخطة أن تنجح وتصل إلى أهدافها المرسومة ، ولم يبق إلا ساعات قلائل للوصول إلى غايتها .. ولكن : ظهر فى الأفق فجأة وعلى غير انتظار عشرات من العربات والفرسان من الكتائب الثورية المتربصة بفلول الهاربين .. وأحاطوا بالعربة من كل جانب شاهرين أسلحتهم المجنونة فى وجوه مستقليها ، وبادلتهم الحاشية محدودة العدد من مرافقى الملكة ، الضرب والنزال .. وكانت الغلبة لجموع الثوار .. فاقتادوا الملكة إلى السجن مرة أخرى .. وحكم عليها وعلى لويس السادس عشر بالإعدام .. وسيقا إلى المقصلة وسط هتاف الغوغاء المتعطشة إلى الدماء ..

أما فرسن ، فقد انتهز فرصة الهرج والمرج حول العربة أثناء تلك اللحظات الحرجة فى يوم الهروب .. واستطاع أن يفر وسط الغابات الكثيفة على حدود فرنسا الشمالية .. ليصل إلى بلده السويد جسدا متهالكا مسلوب الفؤاد .

وعاش بعدها فى اكتئاب وعزلة وانطواء يجتر ذكرى حبه العذرى الكبير .. وذكرى الأيام الرائعة التى قضاها فى أجواء الشاعرية الحانية الملهمة قريبا من فاتنته ، ساحرة القلوب والعقول ، أجمل نساء فرنسا .. مارى أنطوانيت .



الشعب كله فى ثورة عارمة

العذارء والطفل وعالم الروح والجمال..

حقا، إنها ملهمة الفنانين، وليست ككل ملهمة.. ولكنها « مريم » السيدة العذراء .. التى كرمها الله سبحانه وتعالى ، فأورد ذكرها فى القرآن الكريم محاطا بالتبجيل والإكبار وسمو المنزلة وعلو المكانة .. لقد استوحى الفنانون سيرة مريم ، وابنها المسيح عليه السلام .. واستلهموا قصة البشارة والميلاد والاضطهاد والهرب إلى مصر والعودة إلى فلسطين ومعجزات عيسى نبى الله ومجابهة التآمر وخيانة « يهوذا الإسخريوطى » أحد تلاميذه .. ثم استباح اليهود دمه وصلبوه حتى أسلم الروح .. ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ هكذا يقول القرآن الكريم .



العذارء والطفل

لوحة رافاييل الشهيرة

●● لم نجد فنانا عالميا فى مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد سجل قصة السيدة العذراء وطفلها المسيح فى إبداعاته الخالدة .. ومن الطبيعى أن تكون مادة الإلهام مستوحاة من جوهر العقيدة المسيحية كما وردت فى (الكتاب المقدس) .. وملخصها أن الله أرسل ملاكا من ملائكته إلى عذراء اسمها مريم . مخطوبة لرجل من بيت داوود اسمه يوسف ، من مدينة الناصرة ، إحدى مدن الجليل فى فلسطين ، فبشرها الملاك بأن الله اختارها ليولد منها المسيح عيسى، ففرحت بهذه البشرى .. وولد نبى الله عيسى فى عهد الإمبراطور الرومانى أغسطس قيصر .. وفى ليلة الميلاد ـــ كما يقول الكتاب المقدس ـــ ظهرت الملائكة فى السماء تسبح الله قائلة « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » ! وتوافد الناس من كل حدب وصوب يتلمسون البركة من المولود الذى أطلقوا عليه : ملك اليهود ، فلما سمع هيرودس بذلك أصيب بالفزع وجمع رؤساء الكهنة من كافة البلاد وسألهم : اين ولد هذا المسيح ؟ فقالوا : فى « بيت لحم » اليهودية ، فأرسلهم إلى المدينة وقال لهم :

اذهبوا ومتى وجدتم الصبى أخبرونى لكى آتى أنا أيضا وأسجد له .. فلما وصلوا إلى بيت لحم شاهدوا الوليد المبارك فسجدوا له وقدموا له الهدايا ، إلا أنهم رأوا فى منامهم توجيها بألا يعودوا إلى هيرودس وأن يعودوا إلى بلادهم من طريق آخر .

فلما علم هيرودس بأنهم خدعوه .. أصدر أمرا بقتل جميع الصبية من الأطفال .. وحينئذ ظهر الملاك وأوحى ليوسف فى منامه قائلا : « قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر » .

ويقول المؤرخون إن يوسف والعذراء والمسيح جاءوا إلى مصر عن طريق سيناء ومنها إلى مدينة « بسطة » التى كانت تقع بالقرب من مدينة الزقازيق الحالية ، واتجهوا غربا عند « سمنود » حتى بلغوا



رائعة تيوبولو

وادى النطرون ومنه إلى الصعيد حيث استقروا بجهة « قسقام » حيث يوجد الآن دير العذراء الشهير بالمحرق .. وظلوا مقيمين هناك حتى ظهر الملاك وأوحى ليوسف ، قم خذ الصبى وأمه وعد إلى فلسطين فقد مات هيرودس » !

فرحلوا شمالا مارين بجهة بابيلون « مصر القديمة



حاليا » ثم اتجهوا إلى عين شمس وأقاموا بعض الوقت مستظلين بشجرة « المعروفة حاليا بشجرة مريم » ، ومن هناك انطلقوا إلى الشرقية فصحراء سيناء .. حتى فلسطين ، وسكنوا مدينة يقال لها « نـاصرة » .. وهناك قضى المسيح أيام صباه .. وتطول الأحداث المثيرة .. ويهب الله لنبيه معجزة الخوارق التى يصير

ذكرها على كل لسان ، وتمر الأيام الخالدة ويتآمر عليه اليهود .. فيصلب (كما شُبِّه لهم) ويرفع إلى السماء .

وعلى أية حال .. فقد أتى ذكر هذه المعجزات فى القرآن الكريم وفى الكتب المقدسة الأخرى من قبله ، وأكتفى بهذا القدر اليسير الذى أستعرضه فى عجالة لأصل به إلى ما يهمنى من حيث استلهام قصة السيدة



لوحة كارلو كريفلل



لوحة موريللو ▲

▼ لوحة بوتتشيللى



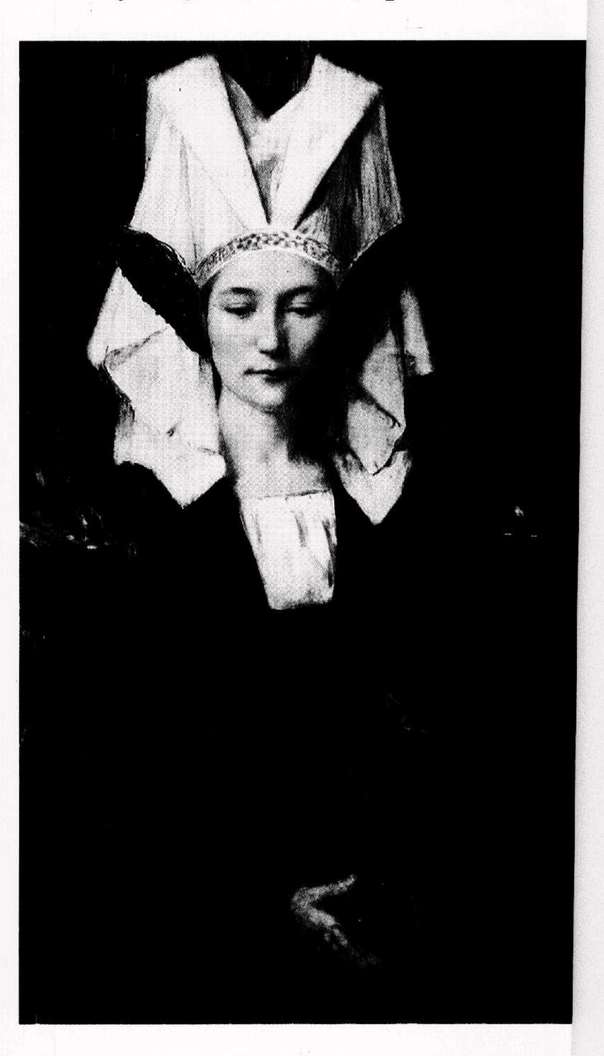


امتدت إبداعات الفنانين إلى عالم الراهبات وجمالهن المهيب .. **وعلى هاتين الصفحتين نشاهد ثلاث لوحات للفنان إدجارد ماكسنس** Edgard Maxence **وهو من أشهر الفنانين الذين أبدعوا حياة الراهبات .**

العذراء وطفلها فى إبداع الفنانين على مر العصور . فقد اتسمت إبداعات القرون الوسطى للفنانين الأوربيين بطابع دينى بحت سواء ما كان منها فى الفن البيزنطى أو الفن القوطى أو الفلمنكى فى بلاد الشمال الأوروبى « الأراضى المنخفضة » أو فى عصر النهضة الإيطالى . أو فى أسبانيا وإنجلترا .. ورأينا أن الفنانين الإنجليز فى العصر الوسيط ، يوقفون إبداعاتهم على رسم الكتاب المقدس ، أو تزيين الكنائس بصور مستوحاة من حياة السيد المسيح ، وفى إيطاليا ، وجدنا أن النهضة الذهبية فى القرن السادس عشر كانت بمثابة فن روحانى خالص وصل لحد الإعجاز البشرى الذى استقطبته السلطة الدينية فى الفاتيكان .. وتدور موضوعاته حول حياة العذراء والمسيح والبعث والحساب كما روتها الكتب المقدسة ، وهكذا كانت هذه الصور الدينية مادة ملهمة تلهب الخيال والعواطف وتسمو بالروح والوجدان قرابة ألفى سنة منذ ولادة السيد المسيح وحتى اليوم !

العذراء .. القديسة .. والزوجة .. والحبيبة

وظلت صورة العذراء موضع اهتمام الفنانين ، كل الفنانين قرونا طويلة ، فراحوا يتبارون فى تصوير معالم الطهر والوداعة والحنان والجمال والإيمان العميق ،





وتؤكد بعض الروايات القديمة أن أول صورة رسمت لمريم العذراء هى اللوحة التى نقلها القديس « لوقا » ــ أحد حواريى المسيح ــ عن العذراء نفسها من الطبيعة ، وقد أمر البابا « باولو الخامس » بابا الفاتيكان بإنشاء مصلى خاص لها فى كنيسة « سانتا ماريا مادجيورى » فى روما .. ولكن ظلت هذه الرواية فى حدود الذاكرة وما يحكيه الرواة عن الأقدمين .

أما أقدم صورة موجودة حتى الآن فهى المصورة على جدران نفق « سانتا بريشيللا » فى روما ، ويرجع عهدها إلى القرن الثانى الميلادى .. وقد رسمت بطريقة بدائية جامدة خالية من الحيوية التى عرفت بها الإبداعات التى تركها لنا رسامو العصور الحديثة .

وكما هو معروف فى مدارس الفن المتعاقبة ، فلكل منها مميزاته وسماته ونزعاته التى تتصف بها هذه المدرسة الفنية أو تلك .. وكانت النموذج « الموديل » غالبا ، هى زوجة الفنان أو حبيبته .. أو لنقل « ملهمته » أيا كانت منزلتها بالنسبة للفنان . وبدأت هذه « الملهمة » تأخذ مكانها فى لوحات الفنان وتسجل فى التاريخ باسمها كما حدث فى لوحة بوتشيللى (١٤٤٤ ــ ١٥١٠) فى القرن الخامس عشر إذ رسم الفنان حبيبته « سيمونيتا » الفلورنسية ليصورها فى موضوعات شتى تمثل العذراء مريم ومعها طفلها المسيح ، أو تمثل راهبة فى أثناء الصلاة .

● ومن أطرف ما حدثنا به تاريخ الفن عن الفنان الإيطالى الشهير «ليبى» حيث كان راهبا فى دير «سانتا كاترينا » يميل إلى الاعتكاف والعزلة والتأمل .. ثم يمضى ليله فى رسم لوحاته الدينية داخل صومعته بالدير العتيق حتى رسم العشرات من اللوحات المستوحاة من حياة العذراء وطفلها .. وتعجب زملاؤه الرهبان عندما وجدوا أن ملامح العذراء قريبة الشبه من وجه زميلتهم الراهبة « لوكريشيانوتى » بل إن البعض ليؤكد أنها هى بكل تأكيد .. وحينئذ ، ولكى يقطعوا الشك باليقين . راقبوا « ليبى » طول الليل .. فوجدوه يتسلل ليلتقى بها فى جنح الظلام ثم يصحبها إلى حجرته لتجلس أمامه الساعات الطوال .. يرسمها ويمارس معها الحب والهيام ! .. وعندما انكشف أمرهما ، لم يطيقا صبرا فقررا الفرار إلى دنيا الناس ، ليشاركاهم متع الحياة ! واتخذ الراهب الفنان من صديقته نموذجا لكل لوحاته الرائعة .. وهى فى معظمها تمثل مريم العذراء مع طفلها المسيح .. وكانت هذه اللوحات ذاتها شفيعا لهما لدى البابا ، فعفا عن خطيئتهما !

... أما أقطاب الفن العظام فى عصر النهضة الإيطالى : ليوناردو دافنشى ــ مايكل أنجلو ــ رفاييل . وفنانى الشمال من أمثال : رمبرانت وروبنز وغيرهما .. فلكل منهم قصة .. بل قصص طويلة ممتعة .. وهم يدورون فى أفلاكهم الإبداعية بين أطياف العوالم الروحانية وغلالات الحب الشاعرية .. وكيف لا .. فإن حب الفن الجميل ما هو إلا فن الحب وتذوق الجمال مهما تعددت صور هذا (الجمال) سواء أكان وجدانيا روحيا أم ماديا يثير الحواس ويصور مباهج الحياة!



لوحة أخرى لرافاييل



الأديبة العاشقة بين رواء الحب والأغصان اليابسة

الأديبة الفرنسية الشهيرة جورج صاند .. حسناء متمردة .. استثمرت مكانتها المرموقة وشهرتها الواسعة ، وأطلقت العنان لنزواتها وعواطفها الجامحة بغير حساب ، وكم حدثنا التاريخ عن العديد من مشاهير عصرها ممن أوقعتهن فى حبائلها .. ثم تركتهن حطاما يتجرعون مرارة التجربة الساخنة التى اعتصرت قلوبهم وهدت قواهم وبددت آمالهم فى الحياة .. فهذا شاعر فرنسا الكبير « ألفريد دى موسيه » قد أوصلته إلى حافة الجنون .. ولكنه بوجدان الفنان وجلاء بصيرته .. استطاع أن يقاوم وينفث عذاباته وزفراته شعرًا رقيقا يذيب القلوب .. وأحال أشجانه إلى قصائد خالدة صارت حتى اليوم .. قيثارة تئن آهاتها المكدودة عزفا حانيا يواسى المحبين المعذبين ، والحيارى فى دروب الغرام اليائس والعواطف المحرمة ! ومن يقرأ ديوانه « ليلة أكتوبر » ويترنم بأبياته التى تحكى مأساته مع جورج صاند .. يخرج بانطباع محدد .. ألا وهو أن الحب شقاء وعذاب .. ولكنه يصقل المواهب ويكشف عن الملكات العبقرية فى نفس الفنان !

ولا غرو أن يقول شاعرنا العربى الكبير خليل مطران فى إحدى قصائده عن مأساة ألفريد دى موسيه :

- عاش هذا الفتى محبا شقيا ..
- وقضى نحبه محبا شقيا ..
- وبكى دمع عينيه فى سطور ..
- جعلته على المدى مبكيا ..
- منشدا للغرام ، لم يشد إلا ..
- كان إنشاده نواحا شجيا ..
- شاعر كان عمره بيت تشـ

ـبيب .. وكان الأنين منه الرويا !

... وهكذا كانت الأديبة الشهيرة .. تلك التى ألهمت الكثيرين من فنانى العالم فرسموا صورهــا ، واستوحوا مغامراتها الجنونية التى تـدور فى أفـلاك ديناميكية سيارة لا تعرف الملل ولا السكون .. لقد كان من حظ الفنان العالمى الكبير « ديلاكروا » أن يعايش قصة حبها لشخصية فنية مرموقة هو الموسيقار فردريك شوبان .. إلا أن شوبان المرهف النحيل لم يتحمل هذا الغرام الساحق .. فكان هو الضحية .. لقد أسلم الروح وهو يردد اسمها وظل ينـاديها فى لحظات الصمت الرهيب .. حتى ذابت الحروف على شفتيه فى لحظاته الأخيرة !

ولنبدأ الحكاية .. حكاية الفنان الوادع الرقيق . والأديبة الحسناء اللعوب ..

الجذور العريقة

التفتت جورج صاند خلفها ثم ألقت بالقلم على مائدة الزينة بعد أن كتبت على حافة نافذة غرفتها تاريخا معينا هو (١٩ يونيو عام ١٨٣٩) فى ذلك اليوم الجميل كانت قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها .. وإن بدت فى عيون المعجبين وكأنها لم تزل فى أول مراحل الشباب اليانع المتفتح للعبث وملذات الحياة !

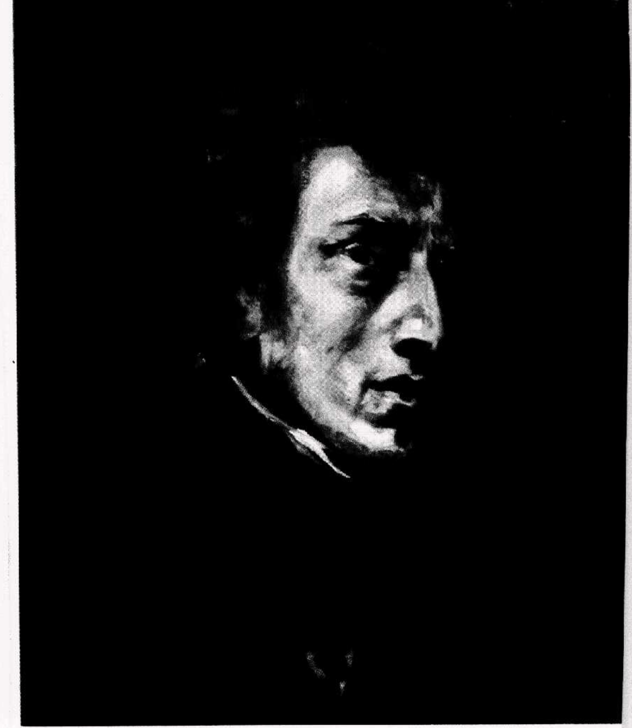
وفى ذلك اليوم أيضا زارهـا — لأول مـرة — فـردريك شوبـان فى قصرهـا الفخـم بقريـة « نوهان » .. بل وقد تجولا سويا لساعة كاملة فى حدائق القصر بين زهوره وخمائله .. لقد توطدت أواصر الألفة والصداقة بينهما .. ثم تحولت سريعا إلى حب جارف أشعلت جذوته آفاق الإبداع الـراق الذى يتربعان على عرشه فى الوجدان الأوروبى .. فقد كانا فى قمة تألقهمـا وشهرتهمـا فى عـالم الأدب والموسيقى .. واستعادت جورج صاند فى ذاكرتها أحداث اليوم .. وكيف ذهل شوبان من فرط الفخامة والأبهة الكلاسيكية والرياش الثمينة التى زينت أرجاء القصر الكبير .. أخذت صاحبة القصر تتحدث فى ثقة وخيلاء عن محتويات القصر العريق قائلة : هذه صورة جدى المارشال دوساكس .. وهذه اللوحة رسمهـا الفنان الشهير (....) لجدتى مدام دوبان .. وهذه الساعة الذهبية أهداها الأمير (....) إلى العائلـة بمناسبة .... و .... و ....

ولكـن جـورج صانـد فى بساطتها وفـوضويتها المعهودة لا تقيم وزنا لتقاليد أسرتها النبيلة ولا لأمجاد عائلتها التى تنحدر من البيوت العريقة وتركزت عينا شوبان على البيانو القابع فى وقار فى صدر القاعـة الفسيحة ، فأسرعت المضيفة قائلة : إن هذا البيانو قد صنع خصيصا للأسرة ، وقد نقش عليه أسماء العائلة وألقابها ، وكما تعلم يا عزيزى شوبان أن الموسيقار الكبير « فرانز ليست » قد عزف على هذا البيانو ثلاثة أشهر فى هذا القصر .. وطال تجوالهما فى أرجاء البيت وكأنهما يستعرضان آثارا ثمينة فى متحف تـاريخى مهيب ! إن جدتها قد فاضت روحها وهى توصى بكل هذه الثروة الطائلة لها وحدها .. ولذلك قالت جورج لشوبان وهى تشد على يديه .. إن كل ماتقع عليه عيناك .. ملك لى .. وبالتالى فهو ملك لك لأننى أحبك .. ولا أستطيع أن أقاوم سطوة حبك الذى ملأ على كل كيانى يا أعز إنسان فى حياتى .. وقادته إلى حجرة نومها الوردية .. واحتضنته بين ذراعيها لتطبع قبلة طويلة على وجهه الشاحب المكدود .

شريط الذكريات

سكنت الفاتنة إلى نفسها.. وأطلقت لذاكـرتها العنان لكى تعتصر المواقف وتستخلص الأحداث .. لقد تم التعارف بينهما .. وتحول إلى ألفة .. ثم إلى رغبة فى التقارب .. ثم إلى صداقة وإعجاب .. حتى أضحى كل ذلك حبا دافقا حلقا فى أجوائه النورانية العطرة ! كان اللقاء الأول فى فندق « دى فرانس » فى







العاشقان : فردريك شوبان وجورج صاند . كانت تربطهما صداقة متينة بالفنان العالمى الكبير (ديلاكروا) وفى إحدى زياراته لهما فى بيتهما الريفى الجميل ، رسم لهما هذه اللوحة لصورتهما على عجل فى جلسة واحدة فى إحدى سهراتهم الصيفية من عام ١٨٣٨ ، وكانت الصورتان تضمهما لوحة واحدة ، إلا أنها قسمت بعد ذلك إلى لوحتين منفصلتين بدافع الربح المادى لكى تباع كل صورة على حدة ..

وكانت اللوحة الأصلية (قبل عملية التقسيم) تمثل شوبان وهو يعزف على البيانو وقد وقفت جورج صاند خلفه تستمتع بالإصغاء إلى ألحانه العبقرية .

باريس .. كان الفنان منهمكا فى عزفه والحضور ساهمين صامتين تأخذ الألحان بناصية عقولهم وقلوبهم .. وكانت جورج صاند كعادتها تحب الهرج والمرج والفوضى والأحاديث المازحة .. وتعالت همساتها وضحكاتها مع شلتها حتى كادت تفسد الحفل الوقور .. وكتم شوبان غيظه ورمقها بنظرات نارية من خلف البيانو .. وكان جلال الموقف يحتم عليه أن يتغاضى عن مثل هذه الصغائر .. وما أن انتهى العزف بسلام .. حتى أخذت جورج صاند تصفق له بحرارة وهى تردد قول « فرانز ليست » عن شوبان بأنه الموسيقى ذاتها !

احتار شوبان فى أمر هذه الفوضوية .. هل يؤنبها على الهرج الذى أحدثته فى القاعة أم يشكرها على تصفيقها وثنائها عليه ؟ ولكنه لم يستطع أن يكتم رأيه

فيها .. فقال وهو يغادر الفندق .. « آه .. جورج هذه امرأة مسترجلة ثقيلة الظل .. ونظر إلى من حوله وتساءل .. هل ترون أنها امرأة حقا ؟ إننى أشك فى ذلك .. ألا ترون كيف تلبس ملابس الرجال ؟ » .

ويبدو أن الحب أحيانا يبدأ من نقطة خلاف .. بل من صراع وعراك .. ثم يبنى صروحه على أنقاض الكراهية ! وهذا ما حدث لهاتين العبقريتين بعد ذلك .. لقد كان لقاء الفندق .. مقدمة للقاءات كثيرة .. ذابت فيها التحفظات والتحسبات .. وحل محلها القبول والاستحسان والإعجاب .. ثم كان هذا الحب الكبير ! وتعددت زيارات الفنان لفتاته .. حتى كان أن جلس شوبان ليعزف لها وحدها فى بيتها .. ونهضت تقف بجانبه متكئة على كتفه .. تعبث بأناملها فى شعره المتهدل على جبينه .. وتتأمل وجهه الشاحب الحزين .. إنها تعرف جيدا سر حزنه .. وكيف ارتسمت بصمات هذا الألم الدفين على ملامحه .. إنه ذكرى تجربة مريرة مع حبيبته السابقة « مارى فودزينسكا » التى أحبها من كل قلبه .. ثم عبثت به ما طاب لها العبث .. وخانته مع أصدقائه ..

ماری فود زنسکا

حتى أطلق عليها فى مذكراته أنها الشيطان فى جسد امرأة .. وأنها شقاؤه الذى كتب عليه فى دنياه ! ولكنه يكتب فى مذكراته كذلك أنها كانت مصدر إلهامه .. فقد ألف من وحى حبها العديد من ألحانه الرائعة . كما أنها ألهمته (بعد الخيانة والفراق) أصدق أنغامه ذات الطابع المأساوى الحزين !

... وهكذا الفنان يحلق كالفراشة الهائمة التى تحوم حول مصدر الإشعاع .. فيكون هذا الإشعاع نورا يضيء أو نارا تحرق .. وبين شقى الرحى يسعد ويستمتع .. أو يتألم ويعانى .. وفى كلتا الحالتين يفرز خواطره وأشجانه وآلامه وآماله على هيئة إبداع ينطق بالصدق والأصالة ويعبر عن نبض القلوب ومفارقات الحياة !!

... سهمت جورج صاند وسألت نفسها .. هل أستطيع أن أنسيه حبيبته الخائنة .. إنه رجل عبقرى ساقته الأقدار فى طريقى لكى ينقذنى من حريتى وضياعى وفوضويتى وينتشلنى من الفراغ العاطفى الذى أكابده .. إن قلبى مثخن بالجراح التى خلفها الآخرون .. ألفريد دى موسيه .. وجول ساندو .. و .. !!

إننى أحب الحب ذاته .. وإذا كان الحب على صورة رجل فنان مثل شوبان ، فسأوقف حياتى وعواطفى ملكا خالصا له .. ويذوب الحب فى الحبيب ليكون هو المرفأ الأخير !!

.. وها هى ذى ترى الأغصان الجافة وقد دبت فيها الحياة من جديد .. ولكى تتفتح البراعم وتزدهر .. لابد من القيام برحلة خاصة مع حبيبها العبقرى الحزين .. !

اللحن الحزين .. بين لعبة الحب وصراع المحبين :

●● وقع اختيارهما على جزيرة نائية ليقضيا فيها أياما هانئة بعيدا عن العيون ومشاغل الحياة .. إنها جزيرة « ماجوركا » التى كان اسمها يثير أحلام



شوبان وهو يعزف على الكمان

العشاق فى كل مكان .. ومضت الأيام ثقيلة متباطئة .. فسرعان ما اكتشفت الهوة السحيقة التى تفصل بينهما ، كانت الفوارق واقعية وليست رومانسية .. أو بمفهوم اليوم ، كانت أسبابا « سيكلوجية وفسيولوجية » أكثر منها عاطفية !

فهى امرأة تنعم بكامل صحتها وتفتح أنوثتها ، وهو رجل مريض حزين مرهق مصدور .. تركته حبيبته الأولى حطاما معقد النفس كسير الفؤاد ! فكيف تكتمل لعبة الحب بين امرأة تتطلع إلى مباهج الحياة ورجل يجثم عليه اليأس ويترصده الموت فى كل حين !

ولكنها — رغما عنها — قد أحبته من كل قلبها .. أحبت فيه الفنان متقد العبقرية ، متألق البصيرة ، مرهف الحس لدرجة الشفافية الحالمة .. فقد وجدت

نفسها فجأة لاتبرح فراشه وسط أربعة جدران موحشة يتردد فيها صدى سعاله الجاف الذى يزداد حدة يوما بعد يوم .. ولجأت إلى الأطباء .. فنصحوها بأن تسرع إلى مغادرة الجزيرة ذات الهواء الرطب .. وأن تلجأ إلى مكان جاف حيث إنه مصاب بداء السل فى قصبته الهوائية .. وهكذا تبددت الأحلام بأسرع مما تخيلت .. وليس أمامها من سلوى إلا الأنغام الحانية العذبة التى يعكف شوبان على كتابتها وعزفها على البيانو فى كل ليلة من هذه الليالى المأساوية الكئيبة .. يعزفها لها . فليس هناك من مستمع غيرها !

وغادرت جزيرة الأحلام ، وقصدت قريتها « نوهان » حيث يقبع قصرها الشامخ بين ربوعها فى اعتزاز وخيلاء . وعملت جورج صاند كل ما فى وسعها لكى تتأقلم مع الحياة الجديدة .. حياة العطاء والشاعرية واللمسات الشافية .. ولتكتم نداءات الأنثى فى داخلها علها تستطيع أن تنجح فى هذه المهمة الشاقة .. ومرت الأيام هادئة فى سلام .. واستعاد الفنان بعضا من قواه ، فانصرف كعادته إلى التأليف والعزف وأظهرت الحبيبة الصابرة .. وفاء وإخلاصا واستقرارا لم تعهده فى نفسها من قبل .. وشعر شوبان بتحسن صحته .. وزاد تفاؤله رغم تشاؤم أطبائه .. ونقرأ فى مذكراته عن تلك الفترة التحولية :

« عندما استقدمنا الطبيب لأول مرة ، ذكر فى صراحة ودون مواربة أننى سأموت ! وجاء الطبيب الثانى فزاد على ذلك أن موتى سيكون قريبا جدا ! ثم جاء الثالث فلم يكتف بما قاله زميلاه .. بل لقد أكد أننى مت وانتهى الأمر ! وعلى أية حال ، فها أنذا حى أشعر بتحسن صحتى مع كل يوم جديد » !

وانقضى الصيف على تلك الحالة : جورج تكتب رواياتها ، وشوبان يؤلف موسيقاه .. وصحته تتقدم بشكل ملحوظ فى جو الريف الهادئ . وكان لا بد لهما من أن يعودا إلى باريس .. فهناك العمل



جورج صاند

والتألق والشهرة والسهر والسمر والحفلات وليالى الأنس والحياة ! ورغب شوبان أن يقيم وحده فى بيت ، وتقيم جورج فى بيت آخر ، لقد قصد أن يوفر عليها عناء رعايته وتمريضه ، ولا سيما بعد أن شعر بتحسن كبير فى صحته .. ولكن الحبيبة العاشقة .. كانت لاتبرح بيته أبدا بالرغم من أنها استأجرت لها بيتا خاصا نزولا على رغبته .. فلم يجد بدا من أن يقيما معا فى بيت واحد . واتفق معها على توحيد أصدقائهما . ففتحا صالونا كبيرا اتخذا منه منتدى يجمع كل ليلة نخبة من أشهر رجالات باريس ومفكريها وفنانيها وفى مقدمتهم الرسام العالمى الشهير ديلاكروا والموسيقى اللامع فرانزليست وهو الذى لم يدخر وسعا فى الإشادة بعبقرية شوبان فى كل المحافل الأرستقراطية الفرنسية !

وتناقل الشعب الفرنسى أناشيد شوبان ، وطرب لمقطوعاته الموسيقية الخالدة .. وتوالت مؤلفات جورج صاند على المطابع لتغمر بها المكتبات والنوادى الثقافية ..

وفى أواخر عام ١٨٣٩ . أقام الملك لويس فيليب حفلة موسيقية خاصة فى قصر « سان كلو » شهدتها الملكة وأعضاء الأسرة الحاكمة والأمراء والنبلاء والشخصيات المرموقة فى الدولة ، ودعى شوبان لهذا الحفل الملكى .. فعزف فى تلك السهرة خلاصة إبداعه .. فأثار الإعجاب من جميع الحضور .. وأهداه الملك تحفة ذهبية ثمينة .. وقال له : إنك جدير بكل تقدير ياشوبان ، وهذه الهدية لا شك أن لملهمتك فيها نصيبا ، فرد عليه شوبان بكل أدب : سيدى : إنى كلى ملك لها !

جورج صاند فى الحفلة الملكية التى عزف فيها شوبان (فى قصر سان كلو)



اختلاف الرؤية وبذور الخلاف :

تفجرت الخلافات بين الحبيبين والاختلافات الأيدلوجية فيما يتعلق بمفهوم الحب .

فكما عرفنا من قبل أن جورج صاند تحب الحب لذاته ، كما لاتنسى إشباع غرائزها الجسدية المثيرة . ولا ترضى إلا أن تعيش بكل عواطفها بديناميكية وحيوية متقدة ! وقد أبدت رأيها واضحا فى مناقشاتها مع حبيبها بأن الحب ضرورى كعاطفة وإحساس ولذة جسدية فى وقت واحد . بينما يرى شوبان أن الحب عاطفة فقط ولا يراه ضروريا للحياة .. ولكنه يجملها فقط كاللوحة الفنية المعلقة فى قاعة الجلوس .. ويمكن أن تظل القاعة صالحة للجلوس بدون هذه اللوحة الجميلة .

وهنا حدث الشقاق مع كل نقاش جديد فى هذا الموضوع .. موضوع الحب : هى تراه ضروريا كالماء والهواء للإنسان . وهو يرى فيه نبلا وترفعا عن اللذة الجسدية العابرة .. واتسعت الهوة لقناعة كل منهما برأيه .. ولم يطق شوبان صبرا لأن مناقشاتها لا تخلو من غمزات ولمزات .. فترك لها البيت وأقام فى بيت آخر بشارع « دورليان » بباريس ، وصارت هى تمضى معظم أوقاتها فى قصرها الريفى فى نوهان .

وهكذا أصبح من العسير أن يتقاربا مرة أخرى .. ففاقد الشىء لا يعطيه !

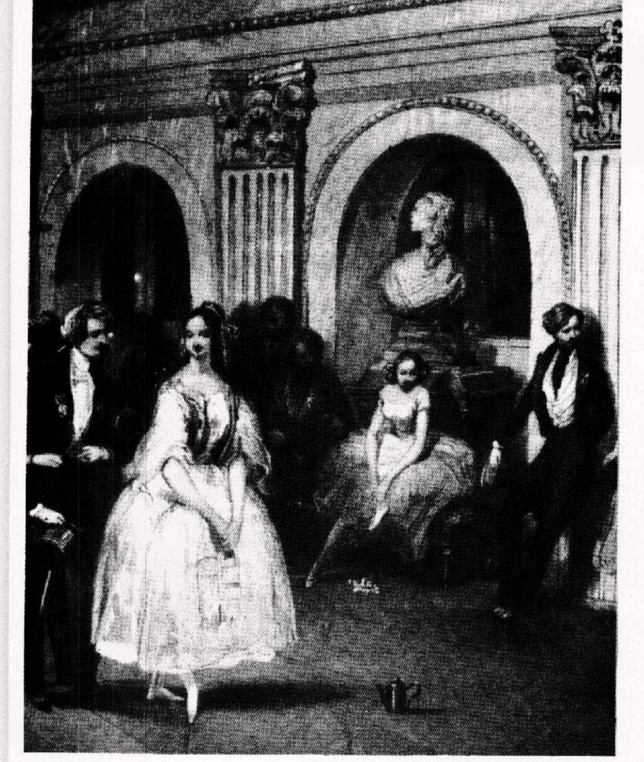
الجفاف وأيام الخريف

وفى عام ١٨٤٢ ساءت صحة شوبان بشكل ملحوظ . فضعف نشاطه واستسلم للحزن والانطواء .. واخذ التفكير فى الموت يشغل باله ويجثم على صدره العليل . وظل يصارع المرض والأوهام والأشباح القاتمة التى تكتم أنفاسه على مدى عامين كاملين .. ففكر بعد أن أحس بقرب نهايته أن يلجأ إلى وطنه البولونى ليستقر فى وارسو .. ولكنه فجع بخبر وفاة أبيه .. فصعق لهذا النبأ المفزع .. وهو الذى طالما





هكذا تبارى الفنانون فى رسم جورج صاند فى شتى صورها



.. عندما كانت (جورج) تتألق فى الحفلات العامة

حلم بالحياة معه فى أيامه الأخيرة .. وهنا تحركت الإلهامات الإنسانية فى نفس جورج صاند وأرسلت على عجل تستدعى شقيقته الكبرى وزوجها ليقيما معه فى باريس . وكتبت إلى والدته تعدها بأنها ستتناسى خلافاتها معه وستظل وفيةً له يظللهما سقف واحد مرة أخرى مهما كانت التضحيات ..

ولكن نفس الفنان الأبية .. عز عليها أن تكون موضع عطف من أى إنسان حتى ولو كانت حبيبته جورج صاند .. بعد أن تنافر الود واتسعت دائرة الشقاق بينهما .. وكما قال الشاعر العربى :

إن القلـــوب إذا تنافـــر ودُهـــا
مثـل الزجاجـة كسرهـا لا يُـجبر

ففترت العلاقة بينهما .. بل وتحولت فى بعض الأوقات إلى كراهية وضغينة . وفشل الأصدقاء فى إصلاح ذات البين .. وظل العبقرى الحزين وحيدا فى باريس يجتر آلامه ويلملم جراحه . ويصارع المرض لعدة سنوات رهيبة .. وهنا عادت صاند إلى طبيعتها الأولى .. فتحولت إلى نمرة مفترسة .. وتفننت فى أسباب التحدى والكيد للفنان المرهف العليـل .. وعندما ذكرها شوبان ذات مرة بأن العبث والصغائر وجموح الغرائز التى تتمرغ فى أوحالها لا تتفق مع سنها وقد بلغت الخامسة والأربعين من عمرها .. ردت عليه فى وقاحة :

« إنى أتمتع بكامل صحتى وأهب المتعة لمن أريد .. ولست كبعض الناس أقعدهم المرض والعجز عن متع الحياة .. ولم يبق لهم إلا الانطواء والشكوى وخيبة الأمل !

وفى خريف عام ١٨٤٩ كان المرض اللعين قد هد قواه تماما . فأراد أن يكتب لصاند قبل أن يودع الدنيا ولآخر مرة فى حياته . تناول قلمه ، ولكن أصابعه الواهنة لم تقو على حمل القلم .. فسقط على أوراقه المبعثرة .. وراح فى غيبوبة طويلة .

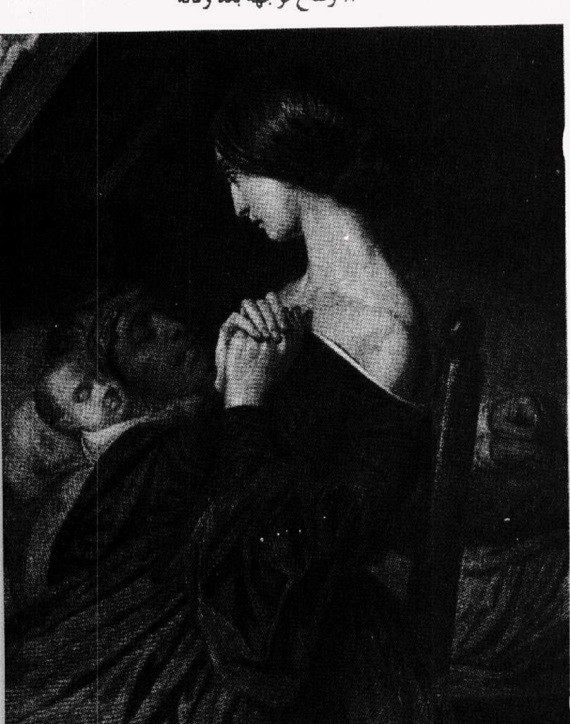
وفى منتصف ليل ١٧ من أكتوبر عام ١٨٤٩ ، تلفت إلى أصدقائه الذين التفوا حول فراشه وهـو



.. جورج صاند وقد بلغت الخامسة والأربعين من عمرها



شوبان قبيل وفاته .. وقناع لوجهه بعد وفاته



يحتضر ، وقال فى صحوة مفاجئة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه موجها حديثه إلى صديق عمره الرسام الفرنسي الشهير ديلاكروا :

« ارأيت كيف يكون وفاء المحبين ؟ لقد أكدت لى يوما أننى لن أموت إلا قريبا منها . فمن ياترى يحظى بقربها الآن » !!

وكانت هذه هى كلماته الأخيرة .. فاضت روحه .. وانطوت الصفحة الأخيرة من سجل حياته القصيرة المثمرة وهو لم يبلغ الأربعين بعد من عمره . قضاها بين صراع المرض وتلمس الأمان والدفء العاطفى وكيد المحبين !! ومن كل هذا وذاك .. كان عطاؤه العبقرى الخالد !!

أما الملهمة القاسية العابثة جورج صاند .. فنتركها الآن .. وقد نأتى إليها مستقبلا مع مغامرة عاطفية جديدة .



خمس لوحات رسمت لصاند وهي ترتدي أزياء بطلاتها في رواياتها الشهيرة ..



سـارة
وعصر الجمال والحب

قد تكون الملهمة نورا هاديا .. أو نارا تكوى وتحرق ! والفنان فى كلتا الحالتين بين شقى الرحى ، يستمتع أو يعانى ، ولكنه يعيش التجربة بأحد وجهيها أو بهما معا ، ويفرز فى النهاية هذه الإيحاءات إبداعا صادقا يسبح فى غلالات الأطياف الوردية .. أو يغلفه ضباب اليأس والقتامة ! وبين هذا وذاك ، تجود القرائح المتقدة بالعطاء العبقرى على مر العصور . وقضية البحث عن « الجمال الفنى » هى قضية معنوية غاية فى التعقيد ، تدخل فى صياغتها عوامل شتى ونزعات متفاوتة ، لا يحس به إلا الفنانون أنفسهم بمقادير متباينة .. فقد يكون هذا « الجمال الفنى » عند بعضهم روحيا خالصا ، وقد يراه البعض الآخر متجسدا فى الجمال الأنثوى روحا وجسدا .. وربما كان عند غيرهم مجرد رمز لكل ما هو جميل من سلوكيات وأفعال وأقوال .. وفلسفة الجمال أو علم الجمال أو التذوق الفنى أو الجمال الإستطيقى Aesthetics كلها علوم تبحث عن معنى ومفهوم الفن والجمال الكامن فيه .. ومنذ عصر الحضارات الكبرى قبل الميلاد مرورا بالعصور الوسطى والعصر الحديث وحتى اليوم اختلف الفلاسفة والفنانون والمتذوقون فى تفسير معنى الجمال .

● يقول الفنان الأسبانى الأشهر « جويا » :

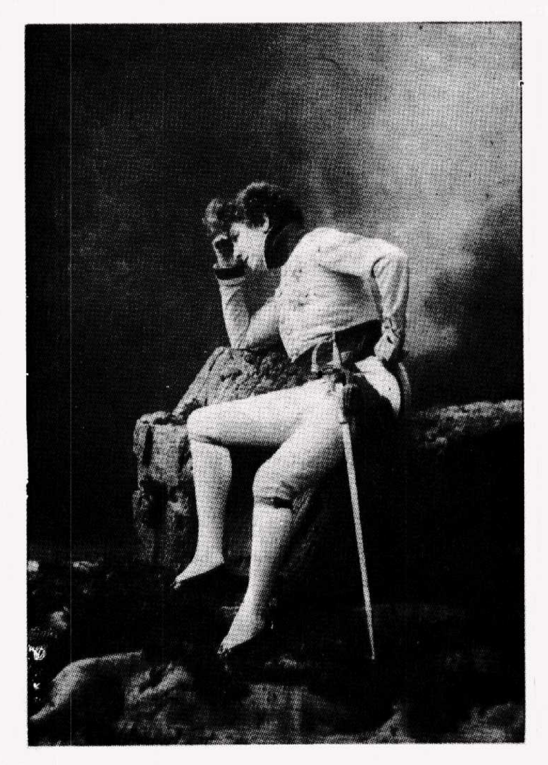
« ليست العبرة فى الجمال الأنثوى الصارخ مهما بلغ من الفتنة والإثارة .. ولكن سر الجمال الحقيقى فى روحه ومعناه ، وسر الجمال هو العاطفة ، وروحه هى المعاناة والألم ، ومعناه الكامن فى وجدان البشر هو الحب » !

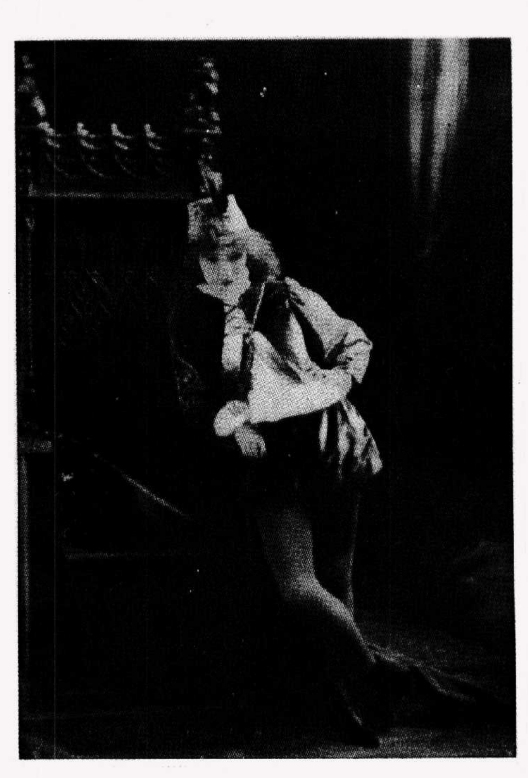
● بينما نرى فنانا آخر هو الموسيقى الإيطالى الكبير « كاتالانى » يعتقد أن الحب فى حياة الفنان يعنى الابتكار والتفوق .. كقضية لا تقبل المناقشة .. فيقول :

« لا يستطيع الإنسان أن يعيش فى عالم مغلق مألوف ، إنه يشعر بالضيق وكأنه محبوس فى قفص حتى ولو كانت أسلاكه من ذهب .. الفنان لابد أن



التقطت هذه الصورة لسارة برنارد أثناء زيارتها لأمريكا وقد كتبت عليها إهداء للرسام الأمريكي الشهير حين ذاك لويس أبيما Louise Abbema ، وأمهرتها بتوقيعها .





يتجدد ، وهو إن لم يتجدد ماتت مواهبه ، والمنفذ هو الحب .. فالحب بما فيه من قوى التيقظ الدائم وحرارة الانفعال ، ينعش طبيعة الفنان ويجدد إلهامه ويشعل فيه جذوة الإبداع والابتكار وهذا هو الجمال » !

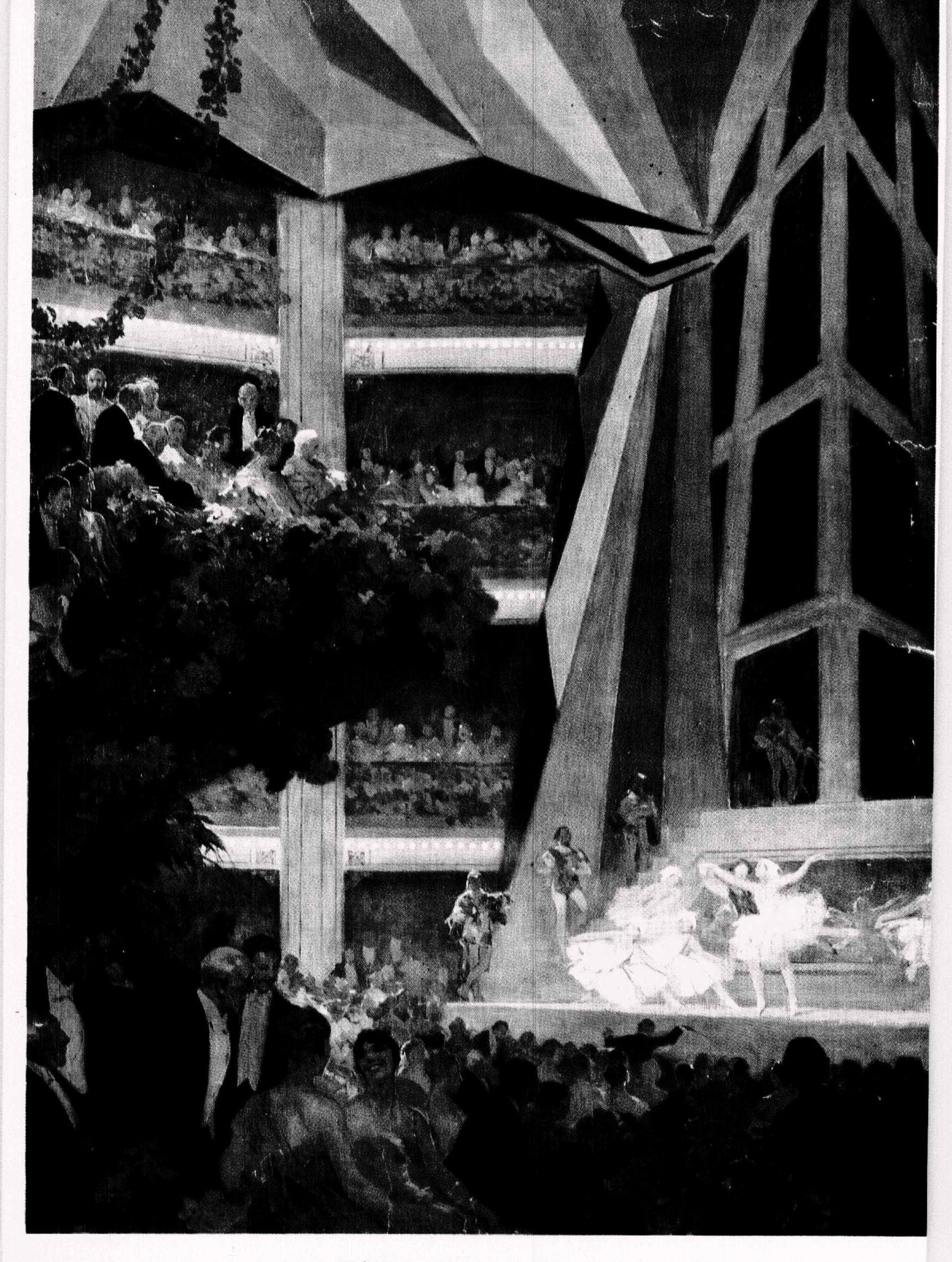
.... من أجل ذلك كانت جولاتنا حول المرأة الملهمة .. ندور فى أفلاكها ، ومن خلالها نلقى الأضواء على الأحداث من حولها بشكل رومانسى مثير ، وتكون المحصلة فى النهاية .. خليطا من المعلومات والثقافات المتداخلة ..

فليس الفنان هو من أبدع روائع الفن فى المتاحف .. ولكنه من شق طريق الحياة بمواهب وملكات مميزة ، جعلته يخلد فى التاريخ أو فى وجدان الناس وضمير البشرية .

● أما ملهمتنا فهى فنانة استطاعت أن ترقى إلى ذرى المجد والشهرة العالمية الغامرة .. كما كانت مواهبها الأنثوية مثار إلهام لغيرها من عشرات المبدعين والقادة والساسة والأمراء والنبلاء والمفكرين .. إنها سارة برنار .. كوكب التألق فى أزهى فترات الازدهار العالمى فى العصر الحديث .. تلك الفترة الرائعة التى أطلق عليها المؤرخون « العصر الجميل ! » ذلك العصر الذى بدأ فى الثلث الأخير من القرن الماضى ، وانتهى مع حلول الدمار والانهيار فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

كانت سارة مثلا للجاذبية والذكاء والألمعية ، حتى أطلق عليها لقبها الذى عرفت به ، كليوباترا باريس ! وعمرت طويلا حتى بلغت الثمانين .. ووقفت فى سنواتها الأخيرة أمام عدسات السينما عـا [illegible] وبذلك جمعت بين أمجاد المسرح العالمى فى القرن التاسع عشر ، وأضواء السينما الحديثة فى القرن العشرين .

ولم نجد فنانا شهيرا ممن عاشوا عصرها .. إلا وقد استلهم جمالها ومواهبها الأسطورية فى أعماله .. رسما أو نحتا أو شعرا أو أدبا بشتى أشكاله وألوانه ،



مسرح سارة برنارد .. سبق عصره بعشرات السنين

واستطاعت أن تستولى على قلوب العشرات من عظماء الرجال من معاصريها ، كان من بينهم قيصر روسيا ، ونابليون الثالث إمبراطور فرنسا .. بل ويحدثنا التاريخ عن أناس أودوا بحياتهم وأقدموا على الانتحار ، عندما أعرضت عنهم سارة برنار ..

ومن الطريف أن قامت جماعة من الزوجات فى شبه اتحاد نسائى ، وزحفن على كل مكان تحل به سارة ، ليصنعن من أنفسهن جدارا بشريا أمام ناظريها لحماية أزواجهن من الوقوع فى أسر هذه الفاتنة اللعوب ومن شراك لحاظها الآسرة ! بل وانبرى فريق من أتباعهن لينبشوا وينقبوا عن فضائحها ونقائصها ، وألصقوا بها التهم والشائعات التى تشكك فى نسبها وأصلها وسلوكها ومواهبها الفنية .

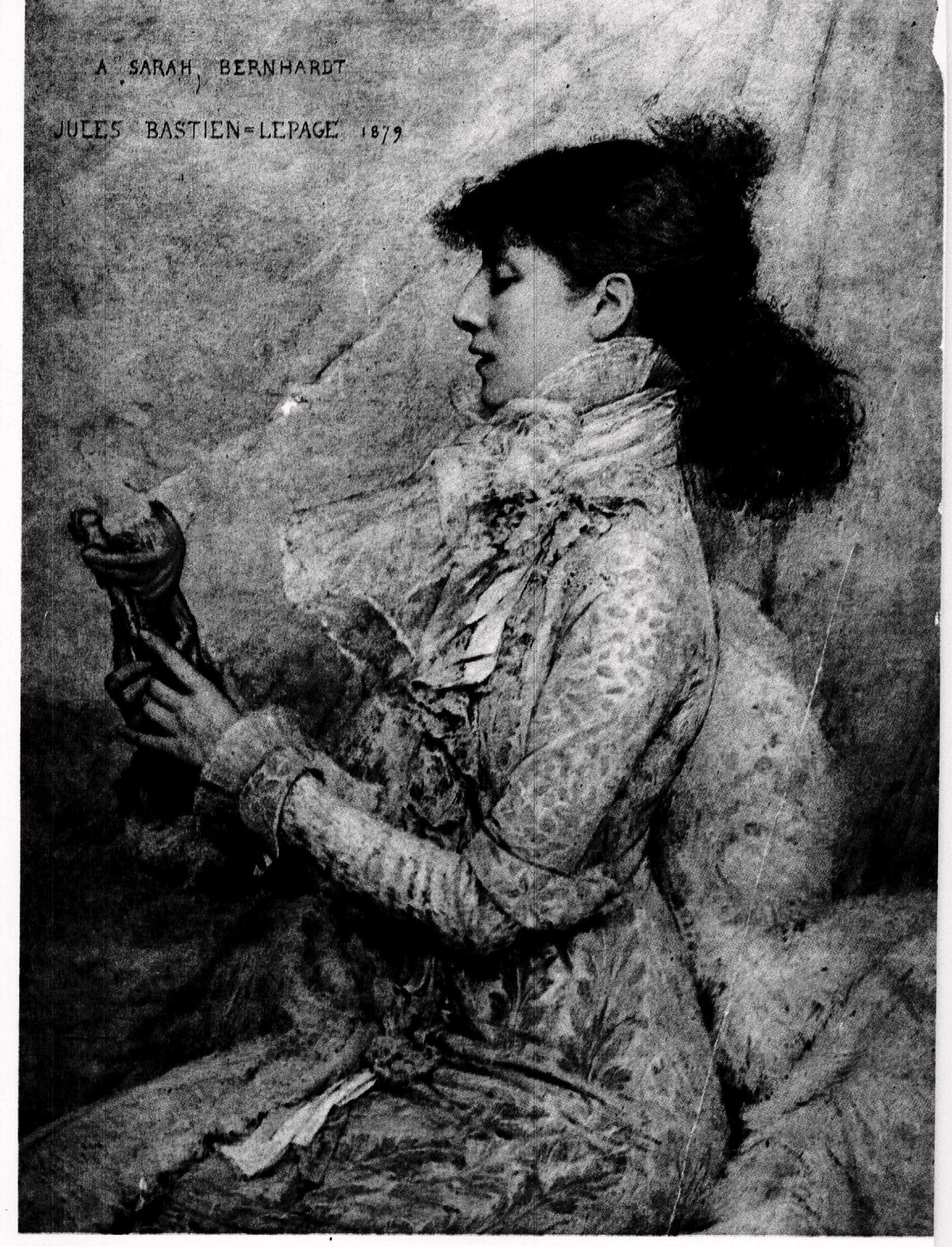
ولكن الحسناء الذكية ، كانت تحاط علما بكل ما يحاك من حولها ، وتكلف حاشيتها والمعجبين بها بالرد على هذه التهم المغرضة أولا بأول .. وبذلك ازدادت شهرة ، وصارت حكايتها على كل لسان فى فرنسا .. وتخطت الحدود .. وأصبحت شهرتها عارمة تطوى بقاع الدنيا بأسرها ! ولذلك صمدت طويلا ، وتربعت على عرش التمثيل والإلقاء نحو ثلاثة أرباع القرن .. ولم يذكر اسمها إلا محاطا بأوصاف ونعوت مثيرة مثل : ذات الفتنة الطاغية .. قاهرة القلوب الهائمة .. ملكة جمال الفن العالمى .. ربة البهجة والعبقرية .. قيثارة العصر .. إلى آخر هذه الأوصاف الرائعة .. وكان من الطبيعى أن يتسابق الرسامون الكبار إلى مسرح « الكوميدى فرانسيز » فى باريس .. يستلهمون فيض إلهاماتها فى إبداعهم ، ومنهم من وقع فى شراك حبها كغيره من رجالات عصرها ..

النشأة والجذور :

تجمع الفضوليون والصحفيون حول مدير مسرح الكوميدى فرانسيز الشهير ، وسألوه عن أصل سارة ومنشأ أسرتها ومن أين تمتد جذورها .. فقال الرجل الذى كان يباهى الدنيا بكنزه الثمين : إن سارة برنار ظاهرة فريدة وموهبة فذة بين العبقريات الفنية التى توالت على باريس كعاصمة للنور والحضارة والفن والجمال ، أما ما قيل بشأن التشكيك فى نسبها .. فهو ذاته سبب فى إضفاء المزيد من هالة الغموض الساحرة حول شخصيتها الآسرة .. ومن منا لا ينجذب إلى مكامن الأسرار المثيرة الغامضة ؟

إنها استولت على قلوب الخياليين والمغرمين بكشف الألغاز ونبش الأغوار المبهمة .. ولولا أنها كيان هام ورائع فى وجدان البشر ، لما اهتم الجميع بمثل هذه الأمور التى لا تقدم ولا تؤخر ! إنها سارة فحسب ، لها الحرية المطلقة فى الإفصاح عن نسبها أو تغييره إذا شاءت ، كما تغير ملابسها أو كما تبدل شخصياتها التى تتقمصها مع كل رواية جديدة تقوم ببطولتها على خشبة المسرح » !

على أن البيانات التى استطاع المؤرخون أن يجمعوا عليها ، تذكر أن جدتها لأمها كانت فتاة من أسرة طيبة من بلدة « بريتون » وقد أحبت هذه الجدة فى شبابها طبيبا بادلها حبا بحب ، فتعلقت به وتبعته فى حله وترحاله .. وعندما هاجر إلى برلين ، لحقت به وعاشت معه ، ورزقت منه بفتاتين هما « روزين » و « جوليا » .. وبعد وفاتها تحول الأب إلى وحش كاسر .. فظ القول غليظ القلب فى معاملة ابنتيه ، فلم تحتمل الفتاتان العيش معه ، وهربتا وهما فى سن الصبا على أعتاب النضج .. وقد دفعهما هذا التشرد المبكر إلى سلسلة من المغامرات الطائشة فى باريس ولندن وغيرهما من العواصم الأوروبية . وجاءت سارة برنار وليدة إحدى هذه المغامرات عام ١٨٤٤ من أمها جوليا . ويرجح المؤرخون أن سارة تنحدر من أب بحار فى مدينة الهافر ، أو أنه كان تاجراً فى نفس المدينة ، وقد ترك عند أحد المحامين مبلغا من المال للإنفاق على ابنته سارة حتى تنال قسطا معقولا من التعليم .



سارة .. رائعة الفنان الفرنسى جول ليباج ، وقد أهداها هذه اللوحة عام ١٨٧٩ .

ولذلك أودعتها أمها جوليا عند مربية لمدة أربع سنوات ، ثم ألحقتها بأحد الأديرة ، لكى تتفرغ هى لرحلاتها وجولاتها ومغامراتها . وما أن حلت سارة بين أترابها بالدير ، حتى أصبحت أعجوبة وظاهرة غريبة لم تألفها الراهبات من قبل . ! لقد انطلقت هذه الفتاة الشرسة تنهش بأظافرها وأسنانها كل من يقترب منها أو ينهرها على أفعالها ، وأخذت تتفوه بألفاظ مشينة نابية لم ينطق بها أحد فى هذا الدير العتيق . ويوما بعد يوم .. أثمرت الجهود المضنية التى بذلتها الراهبات فى ترويضها وتهذيبها .. وأخذت الفتاة تتأقلم مع الواقع الجديد !

ولاحظت زميلاتها ، كما لاحظت الراهبات أن سارة تتمتع بموهبة الإلقاء والتمثيل .. فأعدوا تمثيلية صغيرة جاءت فى حينها لتقدم فى حفل تكريم أحد القساوسة الكبار عند زيارته للدير .. فتقدمت سارة ، وطلبت أن تقوم بالدور الرئيسى فى هذه التمثيلية وعندما افتتح الستار عن مسرح الدير ، ظهرت الفتاة فى غير رهبة ولا تردد .. تلقى دورها فى ثبات وتفاعل واندماج .. وكأنها ممثلة محترفة موهوبة .. وهنأها الجميع على هذا النجاح ..

ولكن هذه الطفرة المفاجئة ، أيقظت فى نفسها فورة العبث والسوقية التى درجت عليها .. فازدادت تصرفاتها همجية .. كما عادت لسيرتها الأولى من البوهيمية والألفاظ النابية .. فرأت الراهبات بأن لا شفاء لها ولهن إلا بطردها نهائيا من الدير وأرسلن فى طلب أمها فلجأت الأم الضائعة إلى أهل والدها .. وعقد مجلس العائلة .. ورفض الجميع أن يقبلوا مثل هذه الفتاة لكى تعيش فى كنفهم ! واستقر رأيهم فى النهاية على أن يودعوها أحد المعاهد الموسيقية بقسمه الداخلى ، طالما كانت مهتمة بفن الموسيقى والتمثيل .

وتفتحت الزهرة بمواهبها المثيرة :

وفى معهد الموسيقى ، تجلت مواهبها الكامنة بشكل يدعو إلى العجب والإعجاب .. وسرعان

سارة وهى فى الدير





ما أصبحت سارة نجمة حفلات هذا المعهد الكبير ، ومثار اهتمام أساتذتها والوافدين من الزوار والفنانين .. وتسابقت الفرق المسرحية تتعجل تخرجها لتضمها إلى فنانيها المرموقين . وتخرجت سارة .. وأصبحت ممثلة محترفة يشار إليها بالبنان .. واتسعت دائرة معارفها ومعجبيها .. وكان أبرزهم نبيل فرنسى معروف هو « الدوق دى مورنى » ، الذى استخدم نفوذه وألحقها بأكبر مسارح باريس : الكوميدى فرانسيز !

وبكل الثقة والاعتداد بالنفس ، لم تقبل سارة الأدوار الثانوية وصممت على ألا تقوم إلا بأدوار البطولة !!

وأسكرتها أضواء الشهرة المبكرة .. فانغمست فى حياة الليل والمغامرات المحمومة المجنونة وأضحت فاتنة باريس .. وقد صقلت الموسيقى والثقافة والتجارب من شخصيتها وسلوكها .. وتهذب صوتها وتميزت بطريقة إلقائها ، بجانب إناقتها وجمالها وتفتح أنوثتها التى تأخذ بالألباب .

وعبثت ما شاء لها العبث .. وتهافت على صداقتها الفنانون والمفكرون والقادة الكبار .. وتسامت فى علاقاتها وطموحاتها وصار لها صالونها الفنى الخاص .. يجتمع به صفوة الرجال كل ليلة .. كمنتدى للفن والفكر والشعر وأمور السياسة .. وزخرت الصحف بأخبارها وأمجادها ..

وها هى ذى فى انتظار حادث سعيد .. فلتنظر إلى الحياة من حولها بنظرة جديدة .. ولتفتح عينيها على تغيرات لم تألفها من قبل ..

.. وصارت سارة أما لابنها « موريس » وما كانت





تدرى أن هذا الوليد سيستحوذ على كل اهتماماتها وعواطفها ومشاعرها التى كانت توزعها على العشرات بغير حساب !

وتحملت سارة برنار مسئولية الأمومة بكل التزاماتها الإنسانية والوجدانية .. وقلت العبث ومغامرات المتعة والسهرات على الموائد الحمراء .

واتجهت بكل مواهبها وملكاتها إلى دراسة ما خفى عنها من فن التمثيل والموسيقى والإلقاء .. والتحقت بمسرح « أوديون » : فبرزت مواهبها متفجرة مذهلة حتى صارت ملء الأسماع والأبصار .. ووصفها أشهر النقاد آنذاك فى مجلة « الفنون » بقوله :

« إن سارة معجزة بشرية متألقة فى بصائرنا ووجداننا. إنها رائعة الجمال ، تستطيع أن تؤثر فى الحضور بالثورة والغضب والفرح والسعادة كيفما تهوى . تتحكم فينا جميعا بذلك الوميض الذى ينبعث من عينيها الساحرتين ، وبصوتها الموسيقى الخلاب إنها تمثل مفهوم الجمال الفنى الذى احتار الفلاسفة فى تفسيره » !

وينطلق شباب الحى اللاتينى يرفعون صورها ويتغنون بجمالها ويرددون عباراتها المسرحية التى اشتهرت بها وألفتها مسامع الجماهير .

.. وأثر هذا الجهد المضنى على صحتها فهى موزعة بين عملها فى المسرح كل ليلة يسبقه ساعات طويلة من الحفظ والاستعداد للقاء الرواد ، وما بقى من وقتها تقضيه فى رعاية ابنها موريس ، وتحضر الندوات الفنية والصحفية ، وتلبى فيه الدعوات والحفلات الخاصة التى تقام لتكريمها هنا وهناك .

وفى عام ١٨٧٠ أحست بالإعياء الشديد فرحلت إلى الريف الفرنسى بعيدا عن أضواء العاصمة .. و لم تكد تنعم بالراحة والهدوء .. حتى تناهى إلى سمعها نبأ اشتعال الحرب الفرنسية الألمانية : فأسرعت إلى باريس مرة أخرى ، وبالرغم من اعتلال صحتها ، كونت وحدات طبية نسائية لخدمة الجيش ، وفرقا أخرى فنية تطوف بأنحاء فرنسا للترفيه عن الجنود وجمع التبرعات .

● ومرت الشهور ، وعادت الحياة الطبيعية إلى البلاد .. وافتتح مسرح الكوميدى فرانسيز أبوابه لفاتنة باريس .. كبطلة أولى تتربع على عرش الأضواء والشهرة والمجد بغير منازع !

وصارت بطلتنا نجمة المنتديات الفنية .. وتسابق الفنانون العظام فى دعوتها لافتتاح معارضهم .. وكيف لا وقد صارت الملهمة الأولى لكل فنان فى شتى ميادين الإبداع والفكر الرفيع .. وما أكثر اللوحات التى ازدانت بصورها .. والقصائد الشعرية التى تليت من وحى إلهاماتها وإيحاءاتها .. والكتب التى ألفت عن دورها وأثرها فى نهضة الفن .. فن التمثيل والإلقاء وانتعاش الحركة المسرحية .

وأحبت سارة فن الرسم والنحت .. وتطوع أصدقاؤها الفنانون بتلقينها أصول وقواعد فن التشكيل .. ومن عجب أنها أقامت فى عام ١٨٧٦ معرضا خاصا باللوحات التى رسمتها فكان بمثابة مهرجان فنى باريسى رائع ، التقى فيه رجالات القمة ، وفاتنات المجتمع ونجوم المسرح العالمى وكبار الكتاب من المفكرين والصحفيين والشعراء ، وما هى إلا ساعات قلائل حتى بيعت كل لوحات سارة .. التى بلغ عددها أكثر من أربعين لوحة ..

وتوطدت صداقتها بفنان باريسى شهير وقتها هو « باستين ليباج » عرف فى تاريخ الفن بأن معظم لوحاته قد رسمها لسارة برنار .. وتعتبر لوحته التى نراها على هذه الصفحات أشهرها جميعا : بل أشهر لوحة رسمت لسارة على الإطلاق .

هل الفنون جنون ؟

ويبدو أن الشهرة عندما تفوق الحدود المعقولة ، غالبا ما تدفع بصاحبها إلى فقدان الاتزان .. أو ربما إلى انعدام الوزن ، وهذا ما حدث لسارة عندما أقدمت على تصرفات غريبة .. أو هى غاية فى الشذوذ والاستهتار .. فقد لعبت نشوة التفوق والذيوع برأسها .. فأسكرتها .. وحجبت أمام بصرها وبصيرتها حدود الوقار والتعقل ..

فكانت تجمع المصورين ورجال الصحافة ، لا لشىء إلا لتلقى عليهم إحدى النكات الخارجة الجارحة .. أو تطلب منهم أن يلتقطوا لها الصور وهى راقدة فى نعش خشبى .. أو أن تحكى لهم عن مغامرة طائشة قضت فيها سهرتها مع شخصية كبيرة لها قيمتها ووزنها فى المجتمع .. إلى غير ذلك من جنون العظمة والغرور واللامبالاة ! ومع جموح العبث والطيش .. تزداد شهرة وتألقا !! وكانت تفسر تصرفاتها هذه بأنها من قبيل التسلية والدعاية والدعابة !

ووضعت بذلك — دون أن تدرى — تقليدا غربيًا اتبعه العديد من الفنانين من بعدها .. ونذكر على سبيل المثال : فنان السيريالية الأشهر سلفادور دالى (١٩٠٤ — ١٩٨٩) الذى كان فى ألاعيبه وبهلوانياته وتصرفاته الغارقة فى الشذوذ والغرابة سببا فى شهرته العالمية العارمة .. حتى إنه قال فى مذكراته بالحرف الواحد : أنا مهرج ووصولى وفوضوى . أنا لا ألتزم ؛ فالملتزمون هم الخدم .. ويعجبنى أن أكون متوحشا أفعل كل ما هو صارخ وغير معقول !!

● ورحلت إلى بريطانيا فى جولة فنية على رأس فرقة الكوميدى فرانسيز .. وبالرغم من الضوابط التى فرضها مدير الفرقة حولها استطاعت سارة أن تفلت من هذا الحصار وأن تعيش قصة غرام مع ولى عهد بريطانيا تحدثت عنها الصحافة ومنتديات لندن .. مما دفع بمدير الكوميدى فرانسيز أن يقطع الرحلة فورا ويعود إلى باريس مع فرقته .. وأحضر سارة لاستجوابها عما بدر منها .. فكان جوابها أن قدمت استقالتها بكل التعالى والغرور ! وفى نفس اليوم الذى أذيع فيه نبأ الاستقالة تسلمت برقية تدعوها إلى القيام برحلة فنية إلى أمريكا .

ورحلت إلى هناك.ومهما قيل عن حرارة الاستقبال ومهرجانات الاحتفاء .. فلن يصور حقيقة ما حدث ! لقد جن الشعب الأمريكى بها بما عرف عنه من تأثيرات الدعاية على تصرفاته وأفكاره فعند



.. وهكذا تألقت ليالى لندن إحتفاء بغادة باريس سارة برنارد (لوحة من فن الحفر للرسام أوجست لوبير)



وصولها سخرت مكاتب الإعلان والدعاية كل إمكاناتها .. وحشدت جل طاقاتها فى نشر مغامرات سارة وفضائحها وعلاقاتها برجالات العصر وأعلامه الكبار .. وكان هذا كفيلا بأن ترتفع أسهمها إلى عنان السماء .. حتى إن الرجال والنساء معا ، صنعوا لها من مناديلهم المطرزة بساطا فرشوه تحت قدميها عندما وطأت رصيف الميناء على الأرض الأمريكية !

وخرجت مدينة نيويورك عن بكرة أبيها لاستقبال فاتنة العصر .. شيء مثير كان أكثر مما توقعت أو حلمت به فى يوم من الأيام !

ومن أطرف ما حدث فى تلك الأيام الأسطورية ، أن أسقف مدينة شيكاغو — وقد روعه ما جرى فى البلاد الأمريكية — ثار ضد سارة برنار ، ووقف خطيبا فى جموع المستقبلين المبهورين المسحورين بها ، وأخذ يندد بها وبفرقتها المسرحية ، ويعدد فضائحها مستنكرا عبثها وتصرفاتها الشاذة التى تعج بها الصحف ، وتلقفت الصحافة الأمريكية خطاب الأسقف ونشرته كاملا فى صدر صفحاتها الأولى مع صور تظهر مفاتن الضيفة الأسطورة .. مع تعليقات مسهبة عن أخبارها وأسرارها .

وفوجىء الأسقف فى اليوم التالى بخطاب غريب من سارة .. أرسل إليه مع إحدى وصيفاتها تقول فيه :

« سيدى الأسقف : لقد اعتدت أن أنفق مبلغ أربعمائة دولار فى الدعاية لأى دولة أزورها .. وبما أنكم — مشكورين — قد قمتم نيابة عنى بهذه المهمة ، وكان لكلماتكم صدى أعمق وأوسع من أى دعاية أو إعلان .. فأرجو أن تقبلوا هذا المبلغ لتوزيعه بمعرفتكم على الفقراء » !!

حصاد المجد :

وتعددت رحلاتها الفنية إلى شتى دول العالم شرقها وغربها .. وزارت — ضمن ما زارت — روسيا ، ودعاها القيصر لاستقبالها فى حفل خاص احتفاء بمقدمها .. وما أن دخل عليها وهمت بالانحناء أمامه تحية له ، حتى بادرها بقوله :

« لا يا سيدتى .. هذا واجب على وأنا استقبل سارة » !.. كما تعددت مغامراتها العاطفية فى كل بلد تزوره ومارست لعبة الحب ونصب الشراك الناعمة حول الكثيرين ممن يروقون فى نظرها .. وتخلل هذه الشطحات الغرامية عدة زيجات خاطفة .. فهذا ممثل إيطالى يدعى « دامالا » يتزوجها لبضعة شهور ، وذاك فنان يدعى « جان سيبان » أعجبت به فأسندت إليه دور البطولة أمامها فى مسرحية « غادة الكاميليا » التى مثلتها مائة ليلة وبلغت فيها الذروة .. وثالث هو رسام أعجبت بفنه وجلست أمامه عدة مرات ليرسمها ولم ينته من لوحته حتى وقع فى حبائلها .. وعاش معها بضعة أسابيع هائنة لتبحث بعدها عن غيره .. وغيره .. وهكذا !

فى عام ١٨٩١ رحلت سارة إلى أستراليا ، وجمعت مبلغا كبيرا من المال أعانها على شراء مسرح خاص بفرقتها « مسرح سارة برنار » .. وكانت تنفق المال ببذخ وإسراف شديدين فى وجوه متناقضة عجيبة : فما من جمعية خيرية إلا وحصلت من ساره برنار على هباتها ومساهماتها .. وفى الجانب الآخر كانت تنفق عن سعة على الحفلات الخاصة وعلى نزواتها الجامحة .. بل وتسهم بالتبرعات لإنشاء النوادى الليلية والبيوت المغلقة !

.. ولكن وسط هذه المعمعة من التألق والرحلات والمغامرات والسيطرة على وسائل الإعلان وأضواء الدعاية .. وغير ذلك .. لم تنس يوما مسئوليتها تجاه فنها وإخلاصها لرسالتها .. فكانت رائدة فى ابتكار القوالب المسرحية الجديدة حتى عرف عنها أنها سبقت عصرها بعشرات السنين .

.. وبلغت سارة الخمسين من عمرها .. وهى دائبة فى العمل اليومى وقد صقلتها الخبرة وأسباب النضج .. وفى ذات ليلة اندمجت بأكثر مما يجب وهى تؤدى أحد



أدوارها على المسرح .. فسقطت سقطة مفاجئة شديدة أصابت ركبتها بكسر فى العظام .. وكانت هذه الحادثة بداية لتغيير مجرى حياتها العابثة .. حيث فرضت عليها الالتزام فى الأقوال والأفعال والسلوك .

ولم تقف إصابتها حائلا دون مداومة نشاطاتها الفنية وقيامها بأدوار البطولة التى حرصت على أدائها .. وازدادت تألقا واحتراما فى نظر الناس أكثر من ذى قبل .

وقد جنت سارة ثمار إخلاصها لفنها .. وتوجت فرنسا أمجادها بأن اختارت أحد أيام شهر ديسمبر عام ١٨٩٦ ، وأطلقت عليه « يوم سارة برنار » ، حيث أقامت لها حفلا رسميا رائعا فى أكبر فنادق باريس هو « جراند أوتيل » ضم ستمائة من كبار الشخصيات الفنية ورجال العلم والسياسة والأدب والصحافة .. ولما حلت سنة ١٩١٤ كانت سارة العظيمة تقوم بأدوارها وهى مستندة على ذراع مرافق لها أو على الوسائد والمقاعد لأن إصابة ركبتها لم تجد معها جهود الأطباء .. فقرروا بترها ..

بالرغم من ذلك ، لم تكن هذه هى نهايتها .. بل ظلت تظهر على المسرح فى أدوار تكتب لها خصيصا تناسب حالتها الصحية التى آلت إليها ..

وعاشت سارة حتى مثلت أمام عدسات السينما فى عام ١٩٢٣ قبيل وفاتها بأيام لتظل صورتها باقية للأجيال القادمة صورة الفنانة الملهمة التى جمعت بين وسائل الإبداع مجتمعة : التمثيل والموسيقى والرسم والغناء .. واستحقت — عن جدارة — أن تكون كليوباترا باريس التى تربعت على الأمجاد الفنية وسر الجمال وسحر الجاذبية .. وروعت المحافل العالمية بمغامراتها العاطفية .. وإن تحدث التاريخ كذلك عن فيض من مواقفها الإنسانية !

* * *

قالوا عن سارة :

تبارت أقلام الكتاب فى تعريفها ، وخلعوا عليها أجمل النعوت والأوصاف مثل :

- قلب مستعر يذيب جليد القارة المتجمدة .
- علم خفاق يحيل جموع الناس إلى جيش .

يلتف حوله يحيونه ويمجدونه .

● ببغاء جميل الألوان فى قفص ذهبى صيغت أسلاكه من خطوط الطول والعرض من حول الكرة الأرضية .

● إذا سارت خفقت قلوب معجبيها على وقع قدميها وهى تتهادى فى مشية لولبية تثير الحواس الخمس عند الرجال والنساء على السواء .

● يداها قد خلقتا لتحتضنا قلوب البشر من كل جنس ولون .

● وجه معبر ساحر متكبر ، وعينان واسعتان نافذتان إلى القلوب والعقول ، لونهما كلون البحر ، ولكنهما تحتويان على أسرار غائرة أعمق من كل البحار ... هذه هى سارة برنار !

وممن شغفوا بها حباً وهياماً أديب فرنسا الأشهر « بيير لوى » وقد قال فى معرض حديثه عنها :

● إن ملكة إلقاء الشعر عند سارة .. هى أهم مواهبها على الإطلاق ، لقد تجسدت فيها شياطين الشعر ، تقودها غريزة خفية وهى تتغنى بالشعر كالعندليب ، وتارة تئن كالرياح الملتاعة ، وتارة أخرى تهمس كالنسمة الرقيقة الحانية ، تنقلك من معنى إلى آخر فى سلاسة ووداعة وتفاعل وجدانى ممتع .. كأنه السحر ينسكب من شفتيها الرائعتين .. إنها تذكرنا بإلقاء لامارتين أمير شعراء فرنسا ! إنها نفثات من عطر ، وهالة من أطياف نورانية مشعة تبهر الأبصار بأضوائها المتلألئة !

● أما فيكتور هوجو .. فكانت قصته معها طويلة ، فقد كان يكتب المسرحيات خصيصاً لها .. وأهمها مسرحية « روى بلاس » التى صارت حديث العالم وقتها .. وكان من المألوف أن يرافقها فى رحلاتها إلى مختلف بلدان العالم فى جولاتها الفنية .. لا ليطمئن على نصوص مؤلفاته فحسب .. ولكن لكى يمتع بصره وبصيرته بفاتنته سارة .. ولتدور عبقريته كالكواكب السيارة فى أفلاكها الهائمة المبدعة !



سارة عام ١٩١٦ .. كانت تكتب لها أدوار خاصة بها وتظهر على المسرح بمعاونة إحدى الممثلات بعد أن قرر الأطباء بتر ساقها



سارة فى أواخر أيامها عام ١٩٢٢ قبيل وفاتها بعدة أشهر



كارولين أونجر

الحبيبة الخالدة واللحن الحزين



ترتد موجات الصوت عن أذنيه .. فلا صوت ولا نغم ، ولا فرح ولا بهجة ولا سعادة .. ولكن ، وبكل العزيمة الصادقة .. تجلت عبقرية الموسيقار الأصم وهو يعيش فى عالمه الصامت البائس .. وكتب السيمفونية التاسعة المعروفة باسم : لحن الفرح والسعادة .. !

إنه « بيتهوفن » . صاحب الشعار الرائع الذى يقول :

« ألا فلنفعل كل ما فى وسعنا ، ولنحب الحرية ، ولنرفعها فوق كل شىء آخر . ولا نخون الحقيقة أبدا ولو كان ثمن الخيانة تاجا أو عرشا » !!

فلنتأمل هذه السيمفونية الأسطورة ، تلك التى قال عنها فاجنر :

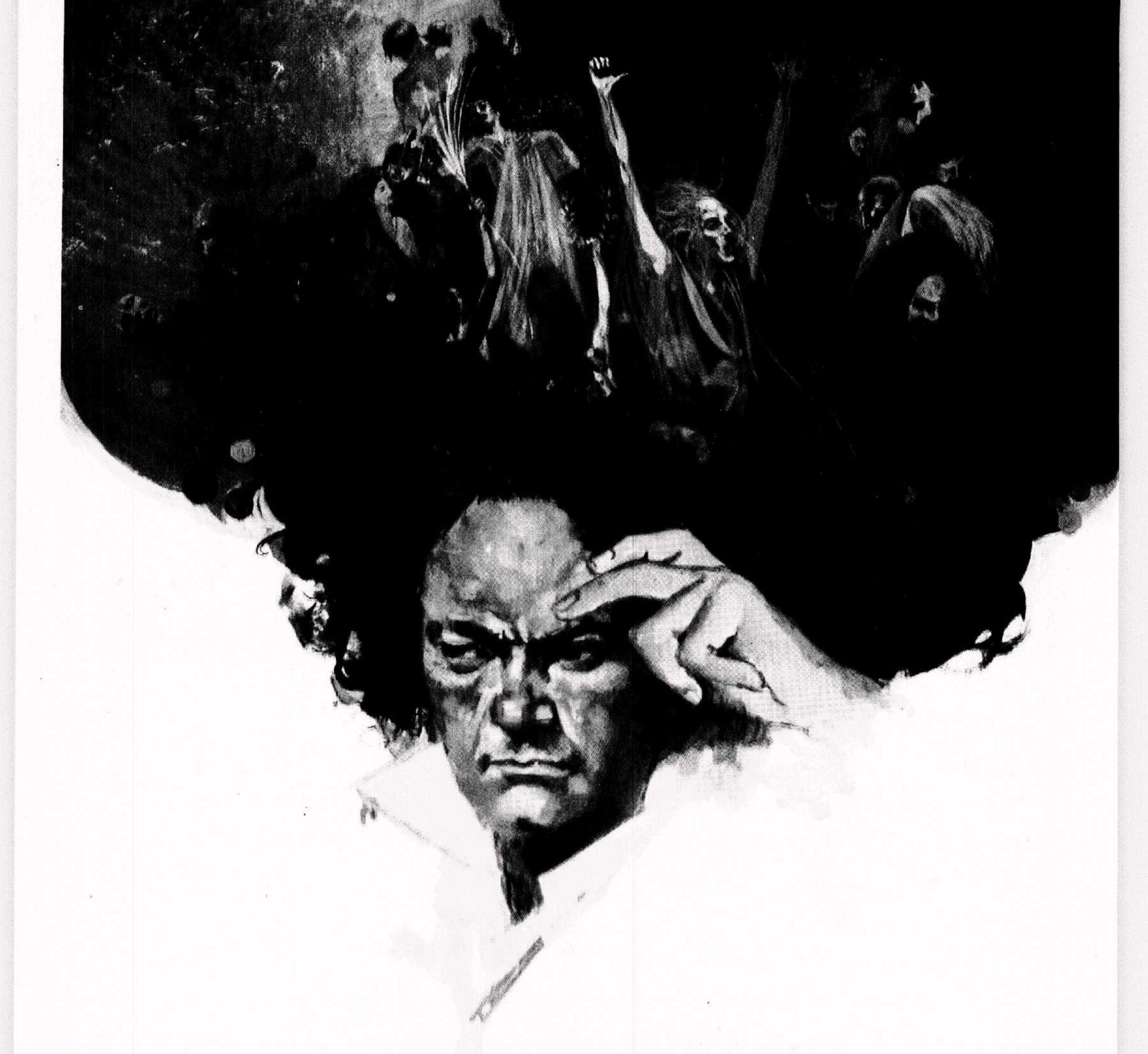
« إنها عمل إنسانى متكامل منزه عن النقائص !

● قدمت لأول مرة فى حفل افتتاح تاريخى بمسرح « كيرتنرتور » بفيينا عاصمة النمسا فى مساء ٧ مايو عام ١٨٢٤ .. وبعد الانتهاء من عرضها ، انفجر الجمهور صائحا بأعلى صوته .. عاش عبقرى النغم بيتهوفن .. وازداد الهتاف دويا يصم الآذان ، وقذف الحاضرون قبعاتهم من شدة الانفعال والإعجاب . وسالت دموعهم تغسل وجوههم .. ولعلها تغسل آثار جحودهم استغفارا لنكران الجميل .. ولشد ما ظلموه وقسوا عليه من قبل !

وكان هو خلف الكواليس ، لا يسمع من هذا الدوى شيئا .. لهذا اندفعت « كارولين أونجر » المغنية الأولى فى الإنشاد . وجذبت العبقرى الأصم إلى المسرح ليرى أثر إبداعه بنفسه ، وكيف اشتعلت نفوس الحاضرين وانطلقت حناجرهم بالتهليل والهتاف بحياة الفنان العظيم !

فلنمعن التفكير فى كلمات نشيد « الفرح والسعادة » الذى كتبه الشاعر « فردريك شيللر » ..


LUDWIG
VAN
BEETHOVEN.



تقول كلمات النشيد :

● هلموا يا صحاب ، اتركوا أناشيد الحزن وغنوا معنا ، أغنية البهجة والإخاء ، ولنتوجه بتحيتنا إليك أيها الفرح !

● أيها الفرح .. بانفحة السموات .. يا ابن النعيم ، إننا نحج إلى إلهاماتك الغامرة منتشين بما بعثته فينا من معان سامية !

● إن جمال سحرك يجمع ماشتته التقاليد القاسية ، وأينما ترفرف أجنحتك الحانية ، تعرف البشرية معانى الأخوة !

● وأنت يا صاحب الحظ السعيد .. يامن اتخذت لك صديقا وأصبحت أنت صديق الآخرين ، ويامن كسبت قلب امرأة تحبك ، تعال واشترك معنا فى أفراحنا !

● هيا .. يا صحاب .. انسوا أشجانكم وانطلقوا مبتهجين كالكواكب المتلألئة التى سيرها الله فى فضاء الكون .. فلقد عم الفرح أرجاء البشرية !

● يا ملايين البشر فى أنحاء الأرض ، تلاقوا بالقبلات والأحضان الدافئة ، واعلموا أيها الصحاب أن الله وسعت رحمته كل شىء !



المسرح الوطني بفيينا حيث قدم بتهوفن روائعه

● اسجدوا لربكم خالق الكون ، وابتهلوا إليه فى ملكوته ، ولا تعبدوا إلا هو !!

● أيها الفرح .. يانفحة السموات على الأرض .. وأنتم يا ملايين البشر فى كل مكان .. اعبدوا ربكم .. وابتهلوا إليه لينعم عليكم دائما بالفرح والسعادة !!

الغرام الحزين

إن من يرى صور بيتهوفن العابسة ويتأمل ملامحه المكتئبة البائسة .. يظن أن هذا العبقرى لم يعرف قلبه الحب ! بل و لم ترتسم على وجهه الابتسامة يوما .. ولكن المؤرخين وقفوا حيارى أمام رسائله الغرامية الوفيرة التى تعمر بها المكتبات ودور الوثائق العالمية .. لقد عكفوا على تحليلها ، واستخلاص سلوكياته ، ومزاجه ، وغزواته ، ونزواته .. فمنهم من قال : إن رسالته إلى « المحبوبة الخالدة » التى دوخت الناس لمعرفة اسمها وشخصيتها الحقيقية .. ما هى إلا جوانب إبداعية من بنات أفكاره .. تكملة للحن الحزين الذى عاش فيه أيامه الأخيرة .. إنه يقول فى إحداها للحبيبة الخالدة ..

« لم هذا الحزن العميق .. لابد من الفراق .. ويبقى لى اليأس القاتل والألم الدفين .. هدئى من روعك .. واستسلمى للواقع المرير .. حاولى أن تبتسمى .. بل وتمرحى .. هل تتألمين ؟!! أما أنا ، فحبك يجعلنى أسعد الناس وأشقاهم أجمعين !

● ● وقد بلغ عدد صفحات « الرسالة الخالدة » أى الرسالة التى كتبها للحبيبة الخالدة .. عشر صفحات مكتوبة بالقلم الرصاص وهى مودعة حاليا فى مكتبة برلين ، مما يدل على أنها لم ترسل قط إلى صاحبتها ، لقد وجدت ضمن مخلفات بيتهوفن بعد وفاته ، فإذا جاز الخلود لسيمفونياته المعجزة .. فقد جاز لحبيبته المجهولة خلود آخر .. فنجده فى أواخر العقد الرابع من حياته يخلد هذه المرأة فى مجموعة من الرسائل الملتهبة وضع فيها عصارة نفسه وأودعها من انفعالاته وبثها من شجونه ما هو فوق طاقة واحتمال فنان رقيق مرهف الحس والجسد مثل بيتهوفن !

كتبها وكأنه يسطر ألحانه العبقرية الفذة !

وهذا مما جعل الباحثين والمؤرخين يرون أنها تحمل من الانفعال وحرارة الوجدان وزفرات الألم والتغنى بالمعاناة والحرمان وتعذيب النفس .. ما لا تستحقه أيه



لا تعجب !! فهؤلاء هن بعض صديقاته الملهمات اللائى استطاع الباحثون أن يحيطوا علما بأسرارهن !



نانيتا ششنر فاجن

تريزا برونسفيك

ماريانا فسترهولت

راشيل فارنهاجن

إميليا سيبالد

دوروتى فون إيرتمان

إيليانور فون برونتج

مارى إيردودى

مارى بيجوت

آن ملدر هوبتهان

جوليت جيسياردى

تريزا مالفاتى

جوزفين برونسفيك

هيلين فون برونتج

هنريتا سونتاج

بيتينا برنتانو

مارى ليوبولدين باشلر كوشاك

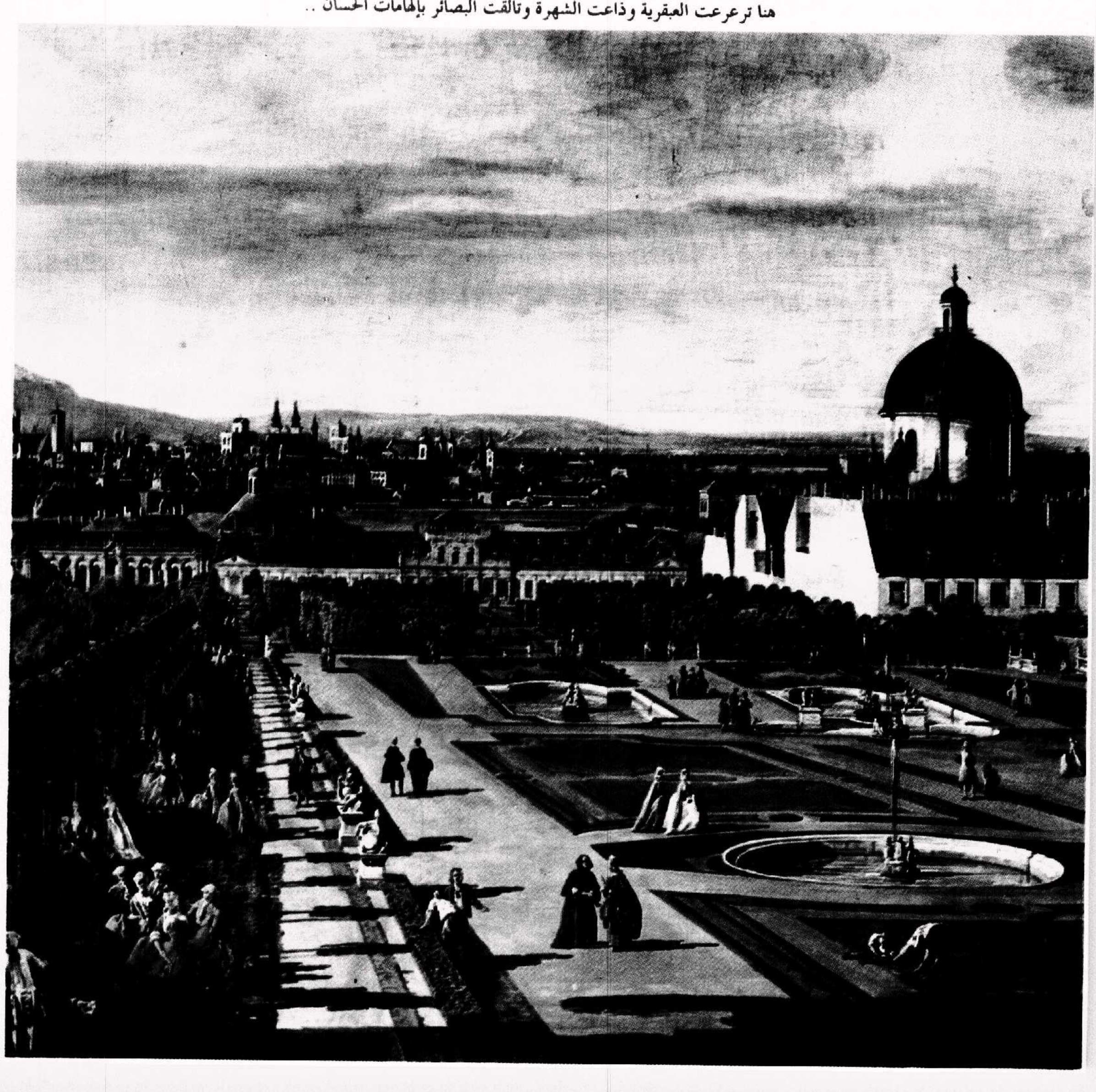
مارى كازنتينى

امرأة فى عالم الوجود ..

فهل اتخذ بيتهوفن من عذابات نفسه الملتاعة إلهاما لألحانه الحزينة التى اشتهر بها ؟ أم أنه اتخذ من حبيبته المزعومة مسرحا لانفعالاته المكبوتة ومتنفسا لعواطفه الجياشة الهادرة التى تنوء بحملها أحاسيسه وجسده الهزيل ؟! أم أن الحبيبة الخالدة هى فتاة حقيقية استولت على قلبه الكبير وبادلته حبا بحب .. وشاطرته لواذع الآلام والآحزان .. فاتخذ من هذا كله إلهاما عبقريا لموهبته الموسيقية الخالدة ؟!

ولكن المؤكد أن حبه للحبيبة الخالدة بلغ ذروته فى عام ١٨١٢ ، وكان إذ ذاك فى الثانية والأربعين من عمره . وكان يقيم فى حمامات (تويبلتز Toepliz) يطلب شفاء لصممه ، وكان كثيرون من وجهاء أوربا ومفكريها وحسناواتها قد تجمعوا فى هذا المكان للاستشفاء والاستجمام .. ونراه يقول فى إحدى رسائله المؤرخة فى ١٤ يوليو سنة ١٨١٢ .. « الناس قليلون .. ولكنهم من المشاهير .. وهى حسناء باسمة مرحة رائعة الجمال رائقة البشرة .. ».

فيينا الجميلة فى عصر بتهوفن ..
هنا ترعرعت العبقرية وذاعت الشهرة وتألقت البصائر بإلهامات الحسان ..



وكان قد وقع فى حبها بالفعل من قبل فنقرأ فى رسالة كتبها فى صباح ٦ يوليو :

« ... سأسطر لك اليوم بعض كلمات بالقلم الذى أهديتنى إياه .. ولكن لم تبدين كل هذا الأسى والحزن لما يطرأ علينا من تغييرات ؟ هل يمكن لحبنا أن يعيش بغير تضحيات وبإجبار أنفسنا على أن نقبل الواقع ؟ حبيبتى : هل تستطيعين أن تكونى كلك لى أنا كما أننى كلى لك أنت ؟.

أمعنى فى جمال الطبيعة وأقنعى نفسك بحقيقة ما يجب أن يكون .. إن الحب يطلب « كل شىء » .. هذا حقيقى ولكنك تنسين أنه كتب على أن أعيش من أجلك .. وأيضا من أجل نفسى وفنى .. هذا ما يجعلنى أشعر بالأسى .. ولو كنا تحت سقف واحد ، لكان شعورك بالألم أقوى وأشد من شعورى ، سوف نلتقى بدون شك عما قريب .. ولابد من الرحيل .. وسأكتب إليك ما خططته لحياتى فى الأيام المقبلة .

لقد أحببتك .. وقلبى مترع بالأحزان لفراقك .. حياتى : متعى نفسك . احتفظى بكيانك لى .. فأنت كنزى الوحيد .. وسأظل مخلصا لك .. والله يشهد على ما يجب أن يكون فى مستقبلنا .. » .

وفى رسالة أخرى يقول :

« يا حبيبتى الخالدة : لقد أيقنت أننى إما أن أعيش

وجهاء فيينا وحسناواتها عندما يعزف بتهوفن



جوزفين دى برونسفيك

معك ، وإلا فلا مجال للحياة ! لقد عقدت العزم على أن أحلق مع ألحانى وحيدا حتى يأتى اليوم الموعود لأكون بين ذراعيك ! وعندئذ فقط .. أستطيع أن أقول إننى .. بحق .. فى بيتى .. ويومها سأحس بكيانى وأترك قلبى وروحى ووجدانى تتمتع بدفء عواطفك لنسبح سويا فى عالم الفن والفكر والرفيع ! حياتى : لن يتمكن أحد غيرك من امتلاك قلبى أبدا .. أبدا .. فأنت حياتى وإلهامى .. يا ملاكى : كونى هادئة .. فلن يكتب لنا أن نعيش سويا وننعم بدفء عواطفنا وجنة حبنا ، إلا إذا روضنا أنفسنا على الصبر . ولتكن فترات الانتظار فرصة من السكينة نتأمل فيها ذواتنا .. ولنفكر دائما فى حبنا وأحلامنا وآمالنا الكبار !

إننى أتأملك فى خاطرى .. وقد ارتسمت صورتك الجميلة فى مخيلتى .. كما أنعم بدموع الوحدة والتفكير فيك .. ويتغلب الأسى لفراقك .. فأنغمس فى ذاتى لأعيش معك وأنا أتأمل صورتك المشرقة محفورة فى فؤادى ..

أحبينى دائما .. ولا تنسى القلب المخلص لك .. للأبد لك .. وللأبد لى .. !

حبيبك لودفيج

وتضاربت الأقوال

●● وتكررت علاقاته العاطفية .. مع الكثيرات من الشهيرات .. ولكن الحبيبة الخالدة الغامضة هى التى شغلت بال الباحثين حتى اليوم .. ومن حبيباته الأخريات : بتينا برينتانو — أنا مارى ايردودى — كريستينا جيراردى — بربارا كوخ — مارى كيين — لورشين فون .. تريز دى برونسفيك — تيريزا مالفاتى — أمالى سيبالد — هنريت سونتاج — كارولين أونجر .. وغيرهن كثيرات .. ومع كل منهن ، كانت رسائله الملتهبة .. تتفاوت حرارة هذا الالتهاب حسب الظروف النفسية التى كانت تعترى الفنان فى مراحل حياته المختلفة ..

●● وقد أجمع معظم المؤرخين على أن الحبيبة الخالدة هى ، « جوزفين دى برونسفيك » وقد جاء ذلك فى مذكرات أحد عمالقة الفكر من محبى بيتهوفن وأصدقائه المقربين هو الدكتور كازنلسون حيث ذكر أن جوزفين هى حبيبته الخالدة .. بل وأم لطفلة أسمتها «مينونا» هى ابنة شرعية لبيتهوفن .. ويذكر أنها أحبته منذ عام ١٧٩٩ .. ولم تنقطع علاقتهما .. وقد شهد عام ١٨١٢ ذروة هذه العلاقة فى حمامات توبيلتز حيث حملت منه فى ابنتهما مينونا .. وقد أيد هذه الرواية المؤرخ الشهير « ماسان » كما ذكر أن بيتهوفن أنكر أبوته لهذه الطفلة .. ولكنه — أى المؤرخ ماسان — عاد فقال إن روايته مجرد افتراض قد يصل إلى درجة الحقيقة .. فجعل بهذا التراجع حكاية الحبيبة الخالدة لغزا محيرا ومجالا للبحث والتخمين من جموع الكتاب والمؤرخين !

●● ويغلب الظن أن الرواية فعلا كانت مجرد افتراض ، فلا يعقل أن يتبرأ بيتهوفن من الاعتراف بشرعية طفلته وهو القائل :

« لا نخون الحقيقة أبدا .. ولو كان الثمن تاجا أو عرشا ..

وعلى أية حال .. فهكذا كانت حياة الفنان العبقرى .. كالفراشة التى تنجذب دائما نحو النور ومصادر الإلهام والإشعاع والتألق ، وربما كان هذا النور نارا يكتوى بلهيبها ، ويترنح فى دائرة ضوئها من فرط آلامه وأحزانه .. بل لقد كان بيتهوفن يتخذ من عذاباته هذه منطلقا لإبداعاته الخالدة .

الفراشات الهائمة وعمر الزهور

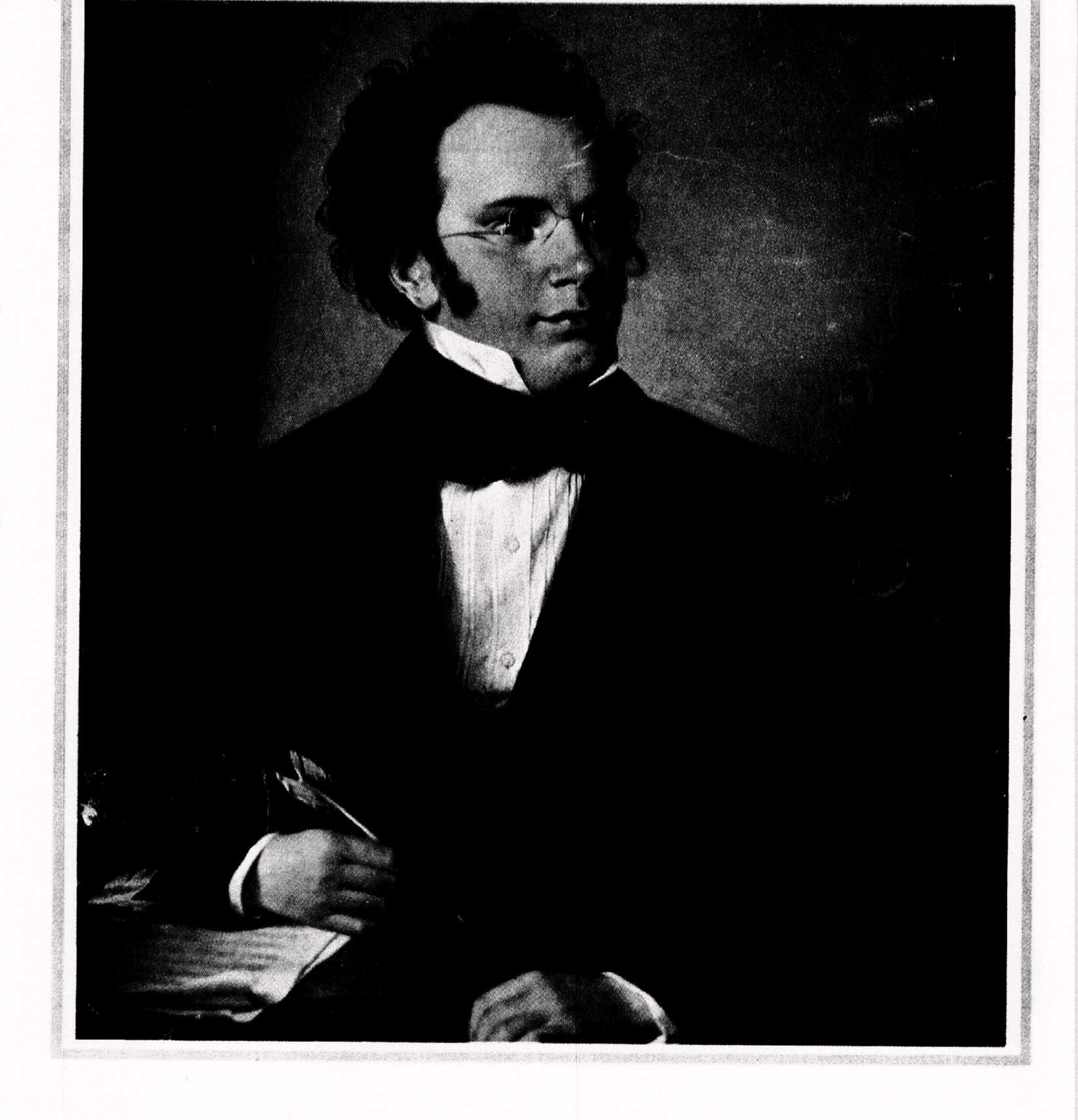
نستعرض معا جانبا من حياة فرانز شوبرت FRANZ SCHUBERT الإبداعية والعاطفية وعندما أقول « جانبا » .. فهذه هي الحقيقة لأننا فى هذا المجال المحدود لا نستطيع أن نستعرض إلا قليلا من كثير .. فحياة هؤلاء العباقرة من الرحابة والخصوبة بحيث لا يوفيها حقها العشرات أو المئات من المؤلفات .. ولا تكف دور النشر العالمية عن تزويد المكتبات بالجديد عن حياة الخالدين ، لتكشف فى كل يوم صفحات تراثية تضاف إلى رصيدهم من وثائق الفكر الإنسانى الرفيع .

ولد فرانز شوبرت فى فيينا من أسرة متوسطة يجمع بين أفرادها حب الموسيقى وولعهم بالعزف على الآلات الموسيقية المختلفة ، فكان الأب يعزف على التشيللو وهو الكمان كبير الحجم ، وباقى أفراد الأسرة يعزفون على الكمان والفيولا والبيانو .. بل كانوا يؤلفون الأغانى ويلتفون كل ليلة حول رب الأسرة ينشدون ويعزفون كفرقة متكاملة .. وكان فناننا فرانز يتفوق فى العزف على كل هذه الآلات حتى لقبوه بالعبقرى الصغير .

ألحقه والده بمدرسة « فيينا الكبرى » التى كانت تعد الموهوبين الصغار ليصبحوا أعضاء فى جوقة البلاط الإمبراطورى .. وأظهر فرانز نبوغا وتميزا جعله العازف الرئيسى لآلة الكمان .. ثم قيادة المجموعة فى المناسبات الهامة ، وانكب الصبى على الدرس والتحصيل والتدريب ، حتى تحول إلى التأليف الموسيقى وهو فى هذه السن المبكرة .. وبجانب التأليف الموسيقى ، كانت هوايته الكبرى تأليف الأغانى .. حتى لقد كتب أكثر من ستمائة أغنية فى حياته القصيرة التى عاشها .. وكانت أول أغنية ترددها أوربا من تأليفه هى مقطوعة كتبها عام ١٨١١ وهو فى الرابعة عشرة من عمره . وكانت نقطة تحول فى حياته الموسيقية ! .. وتطول قصة الموسيقى الصغير وتتوالى أحداثها .. وليس أمامنا إلا أن نتخطاها لنصل إلى الملهمات فى حياته ، ولنعيش معهن ومع خفقات قلبه المتفتح لمباهج الحياة وإلهامات الحب والجمال !

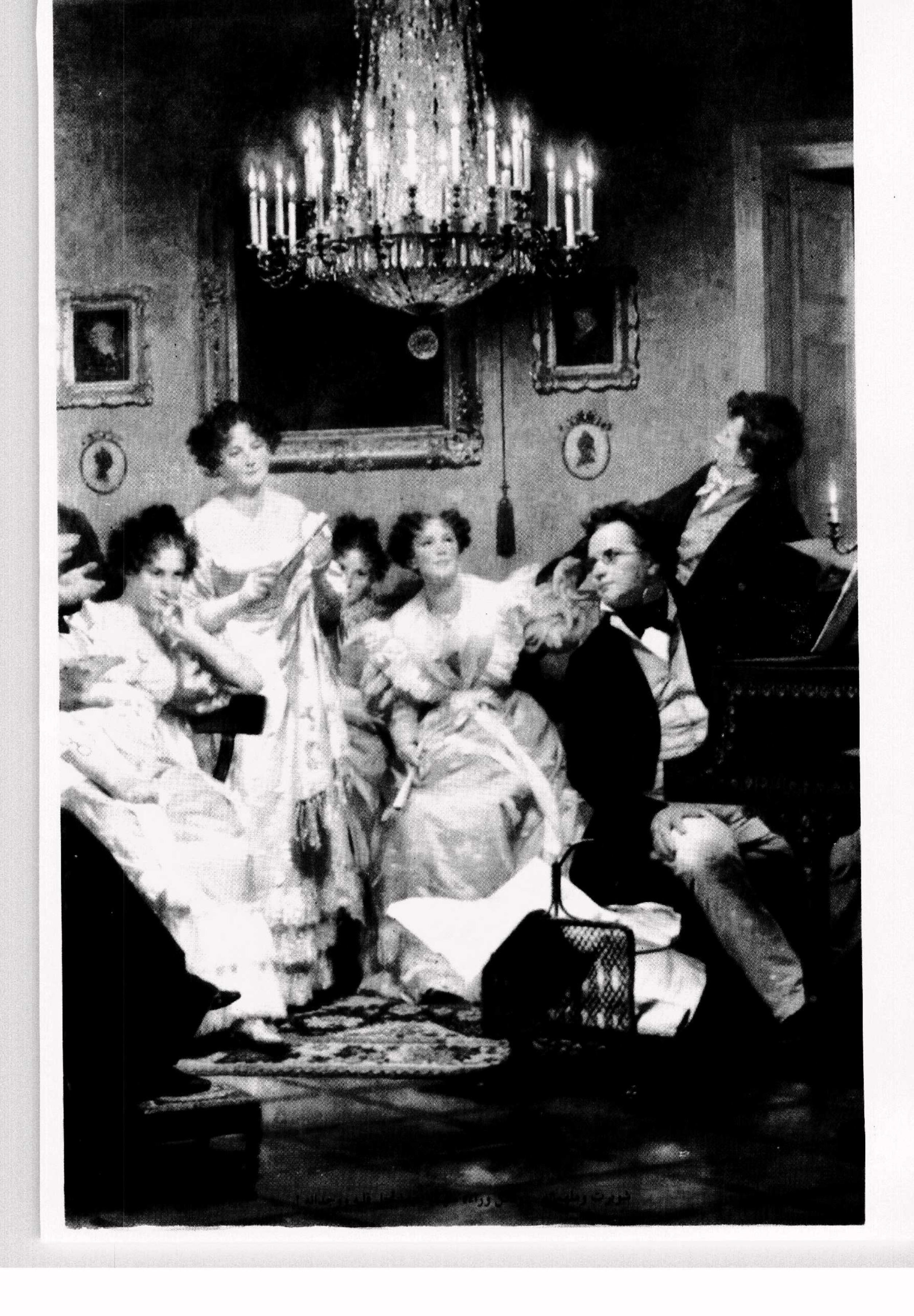
الحب الأول

كان يعيش بفنه ولفنه فقط .. يهيم بحب الموسيقى والأجواء الشاعرية .. ويعشق الجمال فى كل شىء .. ويضعف أمام الجمال النسائى .. يحلق فى إلهاماته الوردية .. يستمتع بقرب الحبيب ، ويعانى من هجره ويعتصر بهجة قلبه وعذابات حرمانه ويسكبها فى



قريحته لتتحول إلى أنغام عبقرية تضعـه فى مصاف الخالدين العظام . ولم يرتبط شوبرت بزواج شرعى ، لكنه كثيرا ما وقع فى الحب وخفق قلبه لأول مرة وهو فى سن السابعة عشرة حين أحب فتاة تدعى « تيريزا جروب TERESA GROB كانت هى المغنية الأولى التى تشدو « السوبرانو » المنفرد لعمل موسيقى من تأليفه وهو فى هذه السن المبكرة .. وكانت بعـد الانتهاء من غنائها تسرع إليه لتعرف منه مدى نجاحها

فى الأداء وملاحظاته وتعليماته للعروض القادمة .. وحدثت بينهما ألفة وتقارب تحولت مع الأيام إلى إعجاب متبادل .. ثم إلى حب جارف .. وكانت فى مثل سنه .. تعيش سنوات المراهقة كالفراشة الجميلة التى تحلق فى الأطياف بين خمائل الربيع اليانعة .. وانصهرت فى حب شوبرت كما ذاب هو الآخر فى حبها . وباندفاع الفنانة المرهفة ارتمت فى أحضانه الدافئة .. واتفقا على الزواج .. وكان عليه أن يشق



طريقه الصعب ليحتل مكانه بين زحام الموسيقيين فى عصر يتسابق فيه الموهوبون إلى إثبات ذواتهم بين الجموع الحاشدة .. ولكن الفتى الغض — وهو يعيش حبه الكبير — أخفق فى مسعاه ، وفشل فى الحصول على وظيفة تضمن له دخلا معقولا يعينه على الحياة . ويوفر له السبل لإسعاد حبيبته . فكان لا بد له من مكاشفة ملهمته الجميلة .. فافترقا فى عام ١٨١٧ .

ونقرأ فى مذكراته عن حبه الأول :

« .. كانت صورتها لاتبرح مخيلتى .. أتمثلها فى كل لحظة من لحظات حياتى .. فى عملى .. وفى عزفى .. وفى كل حركاتى وسكناتى .. وفى نومى .. أتعجل الصباح لكى ألقاها . كما أتعجل المساء لكى أحظى برفقتها وأمتع عينى بصورتها الرائعة وهى تشدو وتتألق تحت الأضواء المبهرة .. ظللت ثلاث سنوات أمنى النفس لكى أحقق أملى بالزواج منها .. وأضاعف العمل والعرق والجهد .. ولكنى فى النهاية ، لم أوفق فى الحصول على وظيفة .. فقد كانت « فيينا » بل وكل مدن النمسا تزخر بالعشرات من الموسيقيين الذين يعملون كل ما فى وسعهم للحصول على مثل هذه الوظيفة .. وبعد تكرار الإخفاق .. سيطر على نفسى يأس قاتل ، وأيقنت أننى لن أستطيع تحقيق أملى . وفى إحدى سهراتنا كاشفتها بالواقع المؤلم .. وقررنا أن نفترق .. وسيطر علينا جو من الكآبة والحزن العميق !! » .

.. وهكذا .. كان حبه الأول وقودا لقريحته المبدعة .. وحلق استمتاعا فى إلهاماته الوردية ، كما أن إخفاقه وما سبب له من إسعاد حبيبته المترفة . وكان آلام ومعاناة وجدانية مبرحة قد ألهمه كذلك بفيض من الشجن الموسيقى الذى يميز به إنتاجه الفنى فى تلك الفترة المبكرة !

الحب الكبير

وكالنحلة التى لا تكف عن التحليق حول الزهور الجميلة وامتصاص الرحيق ، هام شوبرت فى حب موسيقاه .. وانكب على التأليف والاطلاع والعزف والسعى الدائب فى ليالى العاصمة النمسوية التى لا تنام .. ويوما بعد يوم — وما أقصر أيام حياته — رددت فيينا اسمه ، وطربت لموسيقاه وهى بين الشجن والدفء والثورة العارمة .. وعرف الفنان الشاب طريقه إلى الشهرة والانتشار ، كما فتحت أمامه أبواب الأسر العريقة والبيوت النبيلة !





فيينا فى عهد الموسيقيين العظام

وفى عام ١٨٢٤ .. استدعته إحدى هذه العائلات الكبيرة وهى أسرة « إسترهازى ESTERHAZY ليعطى بعض أبنائها دروسا فى الموسيقى .. وذهب الشاب .. وأخلص فى عمله .. معا جعله محل الثقة والرعاية من أفراد العائلة .. وكانت نجمة الأسرة .. فتاة رائعة الجمال تدعى كارولين .. أقبلت على الدرس بشغف واستمتاع ودأب غريب .. وحرصت الفاتنة على أن تستبقى شوبرت ليتناول معها طعام العشاء .. وكثيرا ما كانت ترافقه فى حضور حفلاته الساهرة على مسارح العاصمة .. وتحدث الجميع عن علاقة الفنان بالكونتيسة الحسناء .. ولاح فى أفق الفن الرفيع إلهامات حانية يعمر بها قلبه . وتفتح وجدانه لهذا الحب الأرستقراطى النبيل .. واحتلت كارولين مكانها وتربعت على كيانه كملهمته التى عوضته حرمانه ومعاناته فى سنوات الكفاح الماضية .. وتوالت مؤلفاته الكبيرة وازدهرت موسيقاه .. بل وتألق كأحد العمالقة الذين تتحدث عنهم فيينا وتزهو النمسا بعبقرياتهم التى صارت محط أنظار جميع دول أوربا . ومن عجب ، أن اسمه — وهو فى مقتبل العمر — أصبح يتردد فى المحافل الفنية بجانب بيتهوفن .. كما أضحت مؤلفاته تقارن بمؤلفات الصفوة من أساطين الإبداع الموسيقى الذين استأثرت بهم فيينا من أمثال هايدن وموزار وبيتهوفن وبرامز .. وغيرهم من المشاهير .

وكانت دفقة الإلهام والسعادة التى يرفل فى حللها فناننا فرانز شوبرت ، والمجد والشهرة التى ينعم بها وهو فى هذا الشباب المبكر .. موضع العجب والحسد من أقرانه ومواطنيه .. وكيف لا وهو أحق من غيره من الموسيقيين الكبار بالانتماء إلى بلده « النمسا » لأنه ولد وعاش فيها حتى نهاية حياته القصيرة . على عكس الآخرين الذين اتخذوا من دول أوربا كلها موطنا لهم يتلمسون المجد والانتشار من خارج حدود بلدهم .

انعكست سعادة شوبرت واستمتاعة بحبه لكارولين على أعماله .. فكان غزير الإنتاج لدرجة مذهلة . فيحدثنا التاريخ أنه استطاع أن يكتب ثمانى أغنيات فى يوم واحد !

وسقطت الزهرة اليانعة

كان شوبرت قد أتم آخر مؤلفاته وهى « السيمفونية التاسعة » المسماة « بالسيمفونية العظمى » حين دخل مطعما اعتاد أن يتناول فيه وجباته .. وطلب طبقه المفضل من السمك . وفى أثناء تناوله لطعامه .. أحس بشىء ما فى أمعائه ... فأبعد عنه الطعام متذمرا . ونادى على صاحب المطعم وقال له صائحا :

« ما هذا .. إنه طعام ردىء لا يؤكل » !

وتحامل على نفسه حتى وصل إلى بيته .. وارتمى على فراشه صريع مرض عضال .. ولم تسعفه العناية البالغة التى بذلها له أخوه الأكبر « فرديناند » .. ولا

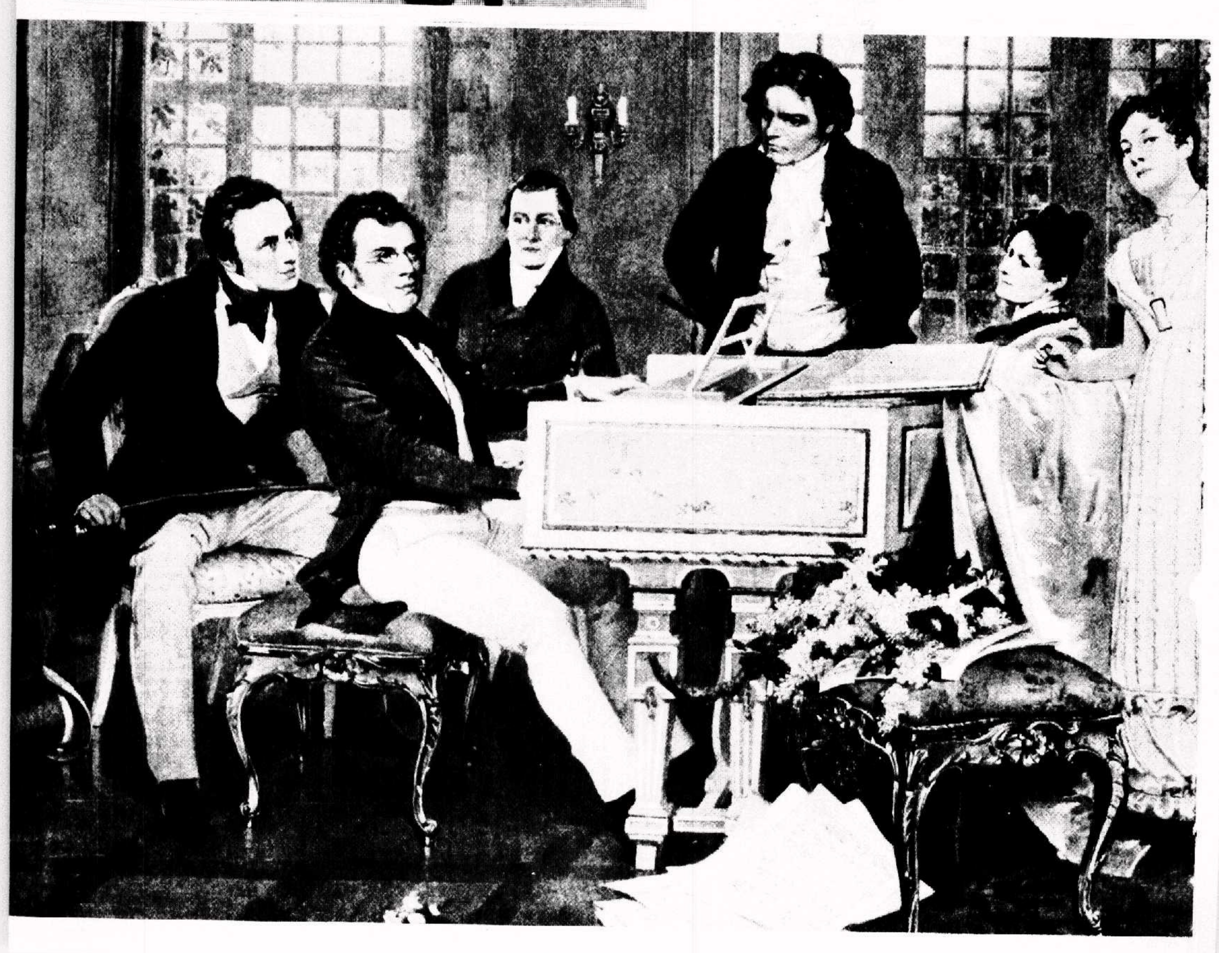
ذلك الحشد من الأطباء المعروفين فى العاصمة .. فمات وهو فى ريعان شبابه ، و لم يجاوز الحادية والثلاثين من عمره .. وكانت آخر كلماته وهو على فراش الموت هى وصيته بأن يدفن بجانب بيتهوفن — الذى توفى قبله بعام واحد — فنفذت وصيته .

وهكذا كان فرانز شوبرت .. زهرة يانعة تنثر شذاها السخى لتنعم بأريجها الدنيا بأكملها .. قبل أن تسقط عن عودها وهى فى وهج الضوء وازدهار الربيع !

وهكذا كان قلبه الدافئ الغض .. يفيض بإلهامات العواطف الشابة المستعرة لتتفتق قريحته عن أحلى الأنغام العبقرية الخالدة .

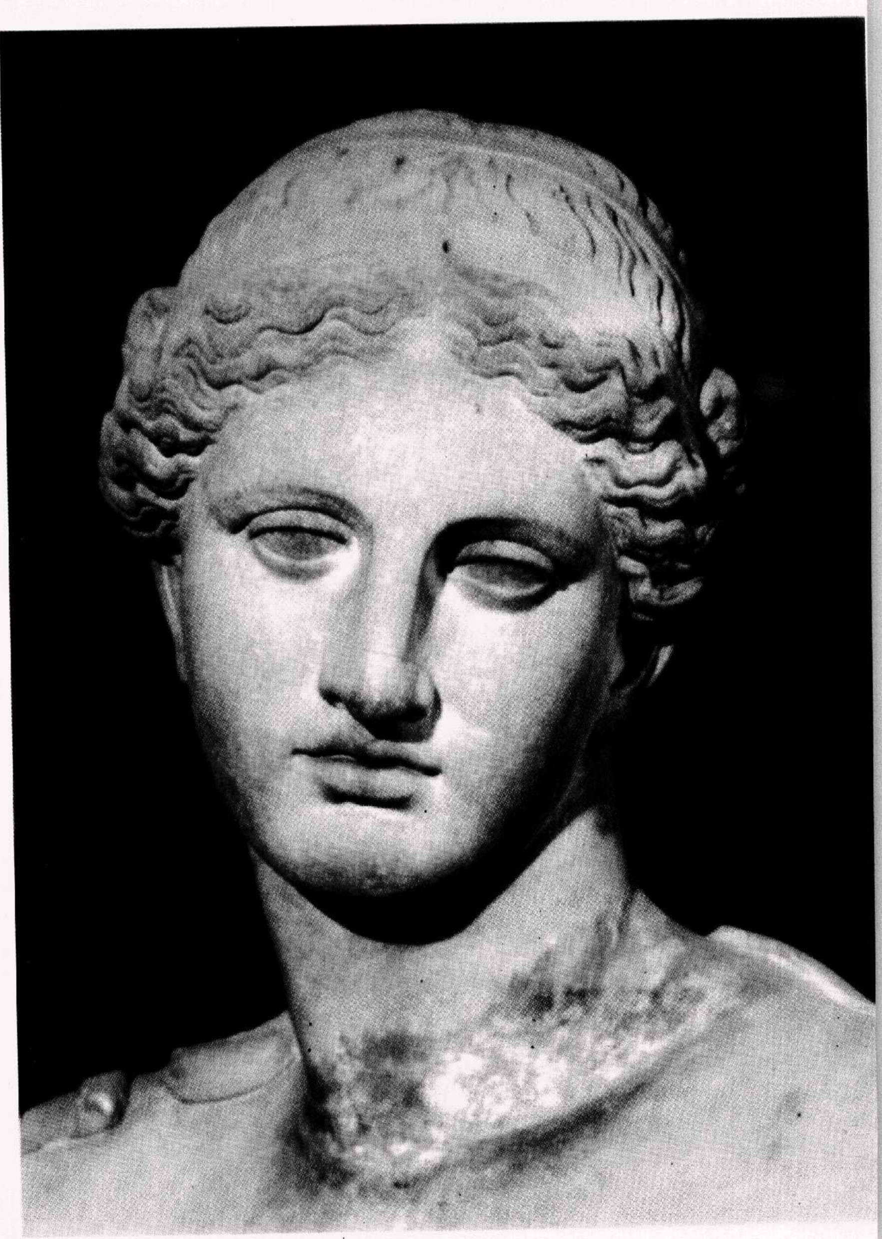


كارولينا إسترهازى



ربة الجمال والدلال ..
وما زال النقاش مستمرّا

« فينوس » اسم نتمثله فى خواطرنا ووجداننا قيمة إبداعية موحية بالفتنة والرشاقة والجاذبية، حتى لقد أضحى تجسيدا عبقريا للجمال فى صورته المثالية التى تبهر البصر والبصيرة .. وصارت (فينوس) ربة الجمال عند الرومان، أو (أفروديت) كما كان الإغريق يطلقون عليها، نموذجا يُقاس عليه ويحتذى به كمثل أعلى للمرأة فى جمالها ودلالها واكتمال مفاتنها الأنثوية الملهمة .



ولذلك رأينا الفنانين فى عهود الرومانسية واستلهام الميثولوجيات الإغريقية ، يبدعون العديد من أعمالهم التى تدور حول (فينوس) كرمز للجمال والحب والفتنة فى كافة أوضاعها ومواضيعها .. وتعتمل فى نفوس الفنانين مقاييس الجمال المثالى الذى يرونه واقعا ملموسا فى متحف اللوفر مجسداً فى تمثالها الشهير .. مختلطة بشطحات الخيال وأطياف الشاعرية .. وتثمر هذه المحصلة آيات فنية خالدة تستقر فى سجل الإبداع البشرى الذى ينير وجه الحياة .

● إنها ما زالت تقف فى شموخ ودلال حتى اليوم فى متحف (اللوفر) بباريس ، وقد أشاحت بوجهها قليلا فى انثناءة حانية لطيفة .. تحاط كل يوم بجموع الرجال والنساء والنظرات المعجبة المتعجبة التى تتنازعها الأشجان والظنون والفضول والرغبات المكبوتة .. إنها مادة جمالية حية لكل دارس ومتأمل وباحث وشاعر ومتذوق . إنهم يطلقون عليها « فينوس » .. « فينوس دى ميلو » نسبة إلى موطنها الأصلى . و« ميلو » أو « ميلوس » كما تُنطق بالانجليزية ، جزيرة صخرية من جزر اليونان المتناثرة فى بحر إيجه ، ولكنها فى الربيع تبدو كخميلة يانعة تنشر عطرها وظلالها على أرضها الدافئة .

اكتشاف الكنز

فى صباح يوم مشرق باسم من أيام الربيع سنة ١٨٢٠ ، قصد اثنان من فلاحى الجزيرة هما « جيورجيوس » وابنه « أنطونيو » أرضهما ذات التربة الصخرية التى تنبت فيها بعض الأشجار والشجيرات القليلة ، وأخذا يحفران بمعوليهما حول جذع قديم شديد الصلابة لاستصلاح الأرض للزراعة .. وفجأة .. ذعر الرجل وابنه عندما مادت الأرض من تحت أقدامهما وأخذت الأتربة وشظايا الصخور المندثرة من حولهما تنهار فى هوة وكأن الأرض تبتلعها فى أعماقها .. وعندما أفاقا من هول المفاجأة ، أيقنا أن هناك سرا لا بد من استجلائه والبحث عما فى هذا المخبأ الصخرى العميق ..



لوحة انتصار فينوس .. للفنان بوشيه



فينوس ميلو ..
القرن الثانى قبل الميلاد
(ارتفاع ٢٠٤ سم)

وانهمك الاثنان فى إزالة الأتربة حول الفوهة .. وأخذا ينظفان المكان وصولا إلى ما يكمن فى جوف الفراغ الذى كشفت عنه الفوهة المفتوحة فى السطح الصخرى من تحت الأتربة .

وسرعان ما لاح لهما قبو طُليت جدرانه بطلاء باهت كأنه طلل متهالك تحول إلى بقع لونية لا تفصح إلا عن لون التراب والرطوبة والأحجار الكالحة .

وفى القاع العميق ، بين ركام من شظايا المرمر ، رقد تمثال على هيئة امرأة فاتنة الجمال .. وكان سكان جزيرة ميلو من الفطنة بحيث يقدرون ما تكشف عنه الحفريات فى بلادهم اليونانية من آثار إغريقية هى حديث الناس فى كل مكان وزمان .. فأيقنوا على الفور أنهم بصدد اكتشاف كنز من تراثهم المجيد .

وجلس جيورجيوس مع ابنه انطونيو يدبران أمرا يعود عليهما بفائدة مادية .. فما أحوجهم إلى المال وهم على هذا النحو من رقه الحال فى جزيرتهم الجرداء . لقد سمع الوالد من قبل عن اكتشافات مشابهة فى أماكن يونانية أخرى دفعت بعضُ الجهات الأجنبية مبالغ سخية ثمناً لها .. فلماذا لا يقصد (مسيو برست) وهو الممثل المحلى للثقافة الغربية فى ميلو ، ويتفاوض معه بغرض شراء هذا الكنز الأثرى الذى يهمُّ فرنسا أكثر من غيرها من دول العالم .. سيما وقد سمع الكثير عن اهتمام الفرنسيين بالفن والمتاحف حتى أضحت بلادهم أشعاعا حضاريا فنيا لكل ما يتعلق بشئون الإبداع آنذاك ... وما هى إلّا ساعات معدودة حتى كان الاثنان (مكتشف الكنز والقنصل الفرنسى) فى موقع التمثال يتفحصانه ويتخذا الإجراءات المناسبة .

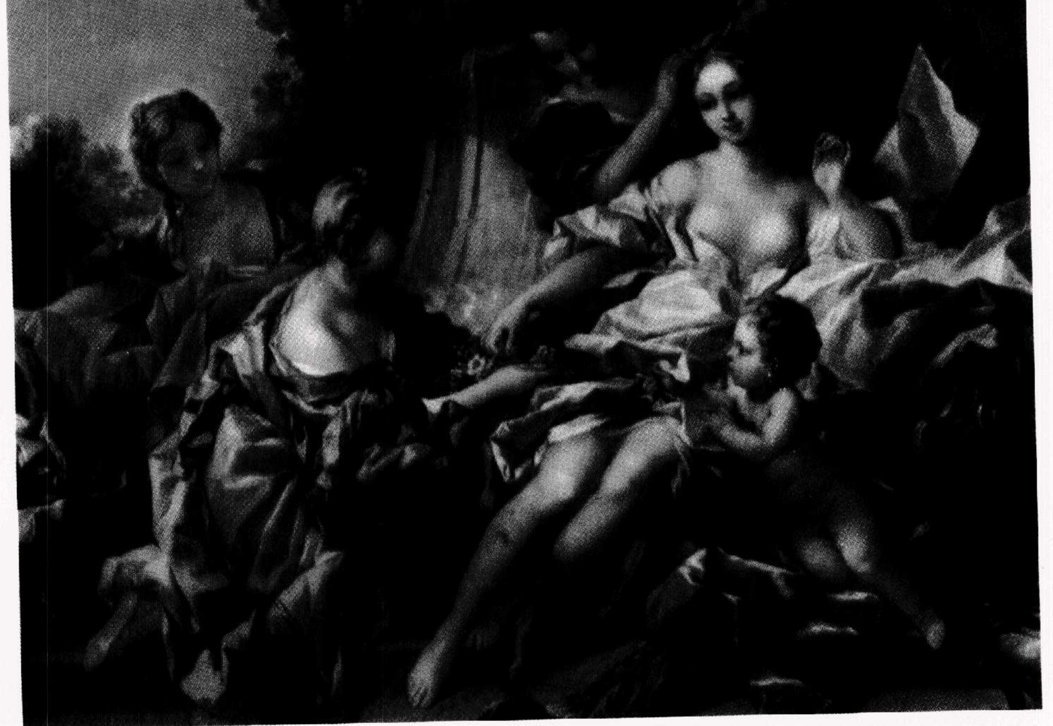
● وفى اليوم التالى ، أرسل القنصل (مسيو برست) إلى رئيسه قنصل فرنسا فى « أزمير » رسالة تفصيلية قال فيها :

« إن التمثال قد لحق به الكثير من التشويه ، فذراعاه مبتورتان ، وجسمه مشطور عند الخصر إلى قطعتين ... » .. وبالرغم من ذلك فقد أشاد (برست) بجمال التمثال وأسهب فى وصف قيمته الفنية فى تحمس كبير ، ثم طالب بضرورة اتخاذ الترتيبات اللازمة لضمان حصول فرنسا عليه قبل أن يتزاحم المتنافسون الذين ــ بلا شك ــ سيزايدون بسخاء لكى يستأثروا به . ثم ختم القنصل رسالته بالقول أنه حصل على وعد قاطع من (جيورجيوس) بأن تكون الأولوية فى امتلاك التمثال لفرنسا إلا إذا أبدت رغبتها فى عدم شرائه .

وفى هذه الأثناء كان جيورجيوس وابنه قد بذلا جهدا جبارا فى جمع أجزاء التمثال ونقله إلى بيتهما ملفوفا فى جوال ، ومحمولا عبر الحقول والصخور والدروب على عربة صغيرة يجرها حمار ! وحين وصلا ، أودعا التمثال خظيرة الماشية وأغلقا بابها جيدا بالمفتاح .. كان الفلاح الذكى على علم يقين بأنه اكتشف كنزا ثمينا ، ولكنه ــ مع بساطته ــ لم يستطع تكوين فكرة تقريبية عن القيمة المالية للتمثال .. فماذا لو استنار بآراء ذوى المعرفة ؟ إن سفينتين فرنسيتين راسيتان فى ميناء الجزيرة ، ولا شك أن الضباط يعرفون الكثير عن مثل هذه الأمور فدعا بعضهم إلى بيته المتواضع واستشارهم فى قيمة اكتشافه الأثرى ، لكن أحدا منهم لم يقطع برأى يستطيع أن يعتمد عليه .

● وانتظر جيورجيوس على أحر من الجمر حتى يأتيه البشير من فرنسا .. على أن القدر لم يلبث أن ساق إليه أحد الخبراء ، حين مرت بالجزيرة السفينة الفرنسية « لا شيفريت » فى طريقها إلى القسطنطينية ، وكان بين ركابها مسيو « دومون دورفيل » الذى ذاعت شهرته باعتباره من مكتشفى المنطقة القطبية وبما عُرف عنه من اهتماماته بالآثار والتاريخ الطبيعى . فهرع جيورجيوس إلى الميناء لاستدعائه فى سرية تامة . وكان ذلك فى يوم ١٩ من أبريل عام ١٨٢٠ .. ورحب العالم بهذا الطلب المثير ، ففحص التمثال ، ثم عاين المكان الذى اكتشف فيه .. وكتب ــ على الفور ــ تقريرا جاء فيه :

« إن التمثال قد اكتشف فى سراديب ونقشت عليه عبارات موجهة إلى « هرمس » و« هرقل » ، والتمثال عبارة عن امرأة عارية تمسك فى يدها اليسرى تفاحة ،



عندما تتزين فينوس (للفنان فرانسواه بوشيه)

وتمسك بيدها اليمنى طرف ثوبها ، لكن كلتا الذراعين قد بُترتا » .

وبعد خمسة أيام أبحر (دورفيل) ومعه تقريره ، ومحملا أيضاً بتوصيات (مسيو برست) واستعجاله قرار الحصول على التمثال .. فقد كانت وجهة دورفيل إلى القسطنطينية حيث يوجد مقر (المركيز دى ريفيير) سفير فرنسا لدى سلطان تركيا التى كانت تحكم جزر اليونان فى ذلك الوقت ... وأرسل (برست) رسالة إلى السفير تستحثه قبل أن يتناهى الخبر إلى السلطات التركية المسيطرة على الجزائر اليونانية فتتعقد الأمور !

التنافس بين تركيا وفرنسا

وأبدى السفير (المركيز دى ريفيير) اهتماما شديدا بموضوع التمثال ، واتخذ قراراً على الفور بإيفاد أحد معاونيه إلى جزيرة ميلو ليفاوض جيورجيوس مباشرة بشأن الصفقة . ولكن الأمور لا يجب أن نتصورها بمقاييس أيامنا هذه .. فبالرغم من الاهتمام والتسابق اللاهث وحث المسئولين فى باريس على سرعة اتخاذ قرار قاطع يزوّد « مسيو دى مارسيللاس » مبعوث السفير بالتفويض الكافى لشراء التمثال الثمين ، إلا أن شهرا كاملا قد انقضى قبل أن يحظى السفير بهذا التفويض !

وما أن وصلته التعليمات من حكومته ، حتى فوجئ بما حدث خلال هذا الشهر الضائع ..

فكانت تجرى فى الجزيرة مساومات من جانب آخر هدفها اغتصاب التمثال من الفلاح الساذج بالدهاء والمكر والخديعة ! وكان بطل هذه المخادعة كاهن يونانى يدعى (أويكونوموس) اشتهر بأنه محتال يهتم بعرض الدنيا أكثر من خبرته بأمور الدين تربطه بالحاكم التركى (نيقولاق موروزى) صداقة قديمة ، ولكنه فقد حظوته عنده على أثر اتهامه باختلاس سندات حكومية .. واشتُهر عن هذا الكاهن مغامراته فى الاحتيال بجهات أخرى كثيرة . وما أن علم بقصة اكتشاف جيورجيوس للتمثال حتى أسرع إليه وقد عزم على أمرين فى نفسه : أولهما : اغتصاب التمثال بطريقته الخاصة ، أما الأمر الثانى فهو التقرب إلى الحاكم التركى طمعا فى استرداد حظوته عنده مرة ثانية ، بأن يكون التمثال من نصيب تركيا .

واحتلى الكاهن بالفلاح الساذج ونصب شباكه حوله .. وراح يتوعده ويهدده قائلا له : ما دام التمثال قد وجد فى أرض تركية ، فهو ملك خالص للسلطان ـــ بحكم تبعية جزر اليونان لتركيا ، ولو وصل الخبر إلى مسامع المسئولين لاستولوا عليه بقوة القانون وبأمر مباشر من السلطات القضائية .. بل ولا بد أن تكون أنت (جيورجيوس) مستهدفا بالحكم عليك بالسجن والغرامة لأنك لم تبلغ السلطات التركية فور عثورك على التمثال .. وربما كان مصيرك أسوأ من السجن إذا اعتبرها القضاء خيانة !!

وتظاهر الكاهن بالشهامة وعرض على جيورجيوس أن يشترى منه التمثال بسبعة جنيهات بدافع الشفقة عليه آخذا فى الاعتبار جهله ورقة حاله .. بل وتعهد له أن يكتم الأمر عن مسامع الجهات الحكومية !

وقصد (أويكونوموس) ممثلى الأتراك ينقل إليهم تفاصيل الاتفاق ، وسرعان ما نقل التمثال إلى سفينة تركية فى ميناء (ميلو) .. وقد أخذت تستعد للاقلاع إلى الموانى التركية .. وكان فى الميناء (مسيو برست) وهو لا يكاد يصدق ما يرى أمامه .. لقد شلّ الروتين الحكومى فى باريس قدراته على اغتنام الفرصة الذهبية التى لاحت له كحلم جميل يداعب وجدانه لمدة شهر كامل ! ولكم تصور تمثال فينوس واقفا فى شموخ وخيلاء فى إحدى قاعات متحف اللوفر لتتباهى فرنسا بهذا الجمال العبقرى الذى يُعتبر النموذج المثالى لعبقرية الجمال ! وأفاق القنصل الفرنسى (مسيو برست) على حركة السفينة التركية وهى على وشك الإقلاع ... فرفع منظاره المكبر فورا إلى عينيه فى لهفة وقلق .. واستدار بنظارته نصف دائرة ينقب فى أرجاء البحر عن نجدة فرنسية يرسلها القدر فى تلك اللحظات ...

وكانت المفاجأة المذهلة التى لم يكن يتوقعها أو كان ينتظرها ... لا ندرى ! سفينة فرنسية يرفرف عليها العلم الفرنسى ... تشق عباب البحر إلى ميناء ميلو !

ويحار المؤرخون من تلك المصادفة أو ذلك التوقيت المدبَّر المحكم .. هل هى صدفة أم خطة فرنسية مرسومة ؟ على أية حال ، فقد اندفع الرجل (برست) يعدو مهللا يطلق صيحات الفرح !

أما ما أعقب ذلك فقد أتت بشأنه روايتان .. وإن كانت كل رواية منهما تؤدى إلى نتيجة واحدة : الأولى رواية (مسيو مارسيللاس) سكرتير سفير فرنسا فى القسطنطينية وهو يقرر أنه نجح بالديبلوماسية الناعمة الهادئة فى إقناع الأتراك بتسليم التمثال وديا إلى فرنسا . أما الرواية الثانية فجاءت على لسان أحد ضباط السفينة الفرنسية حيث قرر أنه مع عشرين من رجاله بقيادة قبطان السفينة وقد انضم إليهم القنصل المتحمس مسيو برست ، قاموا بالهجوم على السفينة التركية وهم مسلحون بالسيوف والهراوات ، وانتزعوا التمثال انتزاعا من براثن الأتراك ونقلوه إلى سفينتهم .. وخلاصة القول ـــ سواء أكان هذا أو ذاك ـــ أن السفينة الفرنسية قد حملت كنزها الثمين واتجهت به غربا إلى الشاطئ الفرنسى . ليُنقل التمثال إلى مستقره فى متحف اللوفر بباريس !

● واستُقبل التمثال بالحماس الذى هو أهل له .. وأعلن المتخصصون الكبار فى المتحف بعد فحص أجزائه فحصاً واعيا متأنّيا .. أن هذه التحفة الرائعة لا بد وأن تكون من إبداعات المثال الإغريقى الشهير « براكستيل » ، ووضعوه فى قاعة مغلقة من قاعات المتحف ، وشددوا عليه الحراسة .. وأخذت الروايات عن التمثال وقيمته الفنية وعن عبقرية « براكستيل » وأمجاده فى الفن الإغريقى ... تترى وتتلاحق وتثير قرائح الباحثين والمحللين .. ووجدها الفنانون العظام من أمثال جرو GROS وأستاذه لوى دافيد Louis David وغيرهما من فنانى مدرسة (الكلاسيكية الجديدة) التى كانت سائدة فى فرنسا آنذاك ولو أنها كانت فى أواخر مراحلها (الكلاسيكية الجديدة بلغت أوجها مع الثورة الفرنسية .. ولكنها اضمحلت بهزيمة نابليون وانكسار المد الثورى الذى روع العالم فى أوائل القرن التاسع عشر) .



أفروديت

وهنا نقول : كان لا بد من أن يسهم لويس دافيد زعيم (الكلاسيكية الجديدة) برأيه فى هذا الحدث الفنى الخطير .. وكان دكتاتور الفن الأكبر دافيد يعيش فى منفاه فى (بروكسل) وقد بلغ السبعين من عمره وقتها .. فأرسل أحد تلامذته ليرسم له التمثال بكل تفاصيله موضحا كافة معالمه .. وكم كانت دهشة (دافيد) عندما تبين فى بعض الرسوم المنقولة عن قاعدة التمثال عبارة مكتوبة باليونانية تقول : « صنع هذا : الكسندوس بن فيدس من بلدة أنطاكية » .

إذن ، فالتمثال ليس من صنع « براكستيل » عبقرى النحت الإغريقى فى عصره الذهبى ! بل إنه تمثال حديث نسبيا ينحصر فى فترة محدودة هى مائتى عام قبل الميلاد ، ولا يمت بصلة إلى العصر الذهبى للفن الإغريقى فى قمة ازدهاره !

وأسقط فى يد الخبراء (الكبار) المهيمنين على متحف اللوفر ، وهم الذين تعتبر كلمتهم حجة فى الأمور الفنية ! وثار الجدل العنيف حول التحفة وصانعها .. وما زال الجدل يستعر حتى يومنا هذا .. ولا سيما وأن الدليل الوحيد التى يحسم الأمر كما حسمه (لويس دافيد) من قبل .. قد اختفى منذ ذلك التاريخ .. إنه — بلا شك — دليل إدانة لخبراء اللوفر الذين تسرعوا وأعلنوا على الملأ أن التمثال من صنع « براكستيل » !

كما فشلت جميع الجهود التى بذلت للاهتداء إلى هذا الدليل وهو الجزء من القاعدة الذى كتب عليه اسم المغمور ومدينته البعيدة عن عاصمة الفن فى عصره الذهبى « أثينا » ! وأجمعت الآراء على أن خبراء المتحف هم الذين أخفوا دليل إدانتهم خشية أن يزعزع ثقة العالم الفنى فى مقدرتهم ، ومن ناحية أخرى : خشية أن يؤثر على القيمة الإبداعية للتمثال إذا أشيع أنه من عمل فنان مغمور .

.... وما زال الجدل محتدما حول الفنان والمكان والزمان والقيمة والرمز لهذا التمثال الفريد . هل هى حسناء من المواطنات الفاتنات ؟ أم هى رمز لإحدى آلهة الإغريق ... ومن تكون ؟ وماذا كانت تمسك بيدها اليسرى ؟ هل اليد التى كانت تحمل تفاحة ووجدت مع التمثال فى قبو (ميلو) كانت جزءا من التمثال .. أم أنه جزء لا يمت إلى التمثال بصلة ؟

واليد اليمنى : بعد دراسة وضع الساقين وانثناءات الثياب وملاحظة التشريح السطحى لجسم الفاتنة ، نستنتج أن يدها اليمنى كانت تمسك بطرف ثوبها الذى يغطى جزءها الأسفل .. فأين ذهبت اليدان .. لقد فشلت كل الجهود فى العثور على أى أثر لهما ...

وقال بعض الخبراء : إنها ترمز للإلٰهة « أرتيميس » ، وقال آخرون إنها إلٰهة النصر .. وفريق ثالث يرى إنها إلٰهة لجزيرة (ميلو) أو (ميلوس) إذا صح أنها كانت تحمل بيدها اليسرى تفاحة لأن ذلك يرمز إلى شعار الترحيب بالزائرين عند أهل جزيرة ميلو .. ويذهب فريق رابع إلى أن صاحبة التمثال هى فينوس ربة الجمال ، وهو الاسم الذى أطلق عليها مجازا من فرط جمالها والذى لا ينكر أحد أنها تستحقه !

ولعل هذا الغموض .. كان سببا فى إضفاء الفتنة والسحر الأنثوى على قوامها وملامحها الجميلة الرائعة .. ولا شك أن مفاتنها المثيرة يجب أن تكون مجالا عاطفيًّا رحبا حافلا بأسباب الجمال والحب لكل من يراها أو يجهد فكره ويستحث قريحته لكى يتمثلها فى خياله ووجدانه طيفا نورانيا وإلهاما حانيا يلف بإيحاءاته القلوب والبصائر !

- « فينوس دى ميلو » سيظل هذا اسمها — مهما تعددت صفاتها وأنسابها — لأنه الاسم الذى عرفت به منذ أن اكتشفها جيورجيوس وابنه أنطونيو فى سرداب جزيرة ميلو فى صباح ذات يوم من شهر أبريل عام ١٨٢٠ .



فينوس فى الإبداع عبر التاريخ



فينوس تعصب عينى كيوبيد
(للفنان تيتيان)

●● فى عصور الرومانسية الفنية ونهضة الإبداع الأوروبى ، لجأ الفنانون إلى الميثولوجيات الإغريقية القديمة بما تزخر به من أساطير مثيرة عن ربات الجمال آنذاك ، فاشتعلت قرائحهم . واتقدت مخيلاتهم . مستلهمين هذه الصور الشاعرية فى أعمالهم التشكيلية ، وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، نجد كثيرا من روائع إبداعات هؤلاء الفنانين العظام التى تعمر بها المتاحف ولا تخلو أعمال أى فنان من هذه الإلهامات الأسطورية الإغريقية . وبخاصةً فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وبلاد الشمال الأوروبى (الأرض المنخفضة) حيث برزت أسماء كثيرة مثل (روبنز) مثلا الذى كان يحلق فى أطياف الأساطير ويبدع من إلهاماتها معظم أعماله الخالدة ، ناهيك عن المنحوتات الإغريقية نفسها ، تلك التى خلفت لنا روائع مذهلة لتجسيد هذه (الملكات والإلٰهات) حسب معتقداتهم القديمة وكانت أفروديت فى تلك المعتقدات الإغريقية القديمة هى رمز الحب والجمال والاخصاب وشال السحر والفتنة عند المرأة وكانت تعد أحيانا راعية المحاربين وحامية البحارة فى (أسبرطة) بنوع خاص ، وكانت ترادف ــ فى ذلك الزمن القديم ــ عشتروت عند السامين ، وأناهيتا عند الفرس ، وفينوس عند الرومان ، وقد تحدثت عنها (الإلياذة) على أنها الفاتنة الساحرة التى تقهر جميع الرجال بمفاتنها الجسدية المثيرة وتغنى بها الشعر اليونانى القديم فوصفها (هزيود) بأن من صفاتها دلال الغيداء وسحر الجمال الذى لا يقاوم ومكر الأنثى إلى جانب ما تشيعه من دفء الحب وبهجة المنظر ووداعة المحيا . ووصفها (هوميروس) فى أشعاره بأن سلطانها وسطوة مفاتنها تمتد حتى تشمل الرجال والنساء معا .

وتساءل الشاعر العاطفى المتأجج (ممنرموس) ما قيمة الحياة بدون إلهامات أفروديت ؟

وتقول الأسطورة : إن أفروديت انتقلت من اليونان إلى قبرص ، وما أن وضعت أقدامها لأول مرة على أرض الجزيرة حتى نبت العشب الأخضر وغطى سطح الجزيرة . وهو دليل على قوة تأثيرها على النماء منذ أن ظهرت إلى الوجود .

ولقد صورها الفنانون فى أروع صورة للجمال الأنثوى الصارخ . وأشهر تماثيلها فى الأزمنة القديمة التمثال الذى نحته الفنان الإغريقى (براكستيل) وتمثال (ميلوس) الذى استعرضنا قصته على هذه



الصفحات ، وهما محفوظان حتى يومنا هذا ، ولقد كان بالقرب من أحد معابدها عين جارية تقصدها النساء ليشربن من مائها ويغتسلن طلبا للمحبة والزواج أو الحمل والسعادة الزوجية ، وإذا كانت القرابين قد قدمت لأفروديت من أجل الحب والإنجاب ، فقد قدمت لها أيضا من أجل الثراء والخصب والنماء ، وتحكى الروايات والأساطير القديمة . كيف أن النساء أثناء الحروب ، كن يقدمن على الأعمال البطولية الفدائية بعد أن يهبن أرواحهن إلى أفروديت ، ولا تزال أفروديت حتى الآن تلهم قرائح الفنانين والشعراء بروائع الفن والإبداع الرفيع .



بسمة الأمل على جزيرة النهاية

فى حلكة اليأس .. ونضوب الرواء .. وذبول الأزهار فى خمائل الحياة .. كانت الساعات تمر ثقالا متباطئة على الأسد الجريح فى جزيرة النهاية .. ويستعرض البطل الأسير شريط الذكريات فى ذهنه المكدود .. ويتمثل فى خاطره بطولاته الأسطورية على مدى عشرين عاما .. روّع خلالها الدنيا بأسرها .. لقد كانت شخصيته الفذة .. وقيادته المثيرة .. ملء الأسماع والأبصار فى أرجاء المعمورة .. إنه نابليون بونابرت ! وطويت تلك الصفحات المجيدة وها هو ذا اليوم يعيش أسيرا حسيرا كسير النفس محطم القلب الوجدان ! يتفنن الإنجليز وهم (ألد أعدائه) فى إذلاله والتنكيل به ، وهو يحيا وحيدا ينتظر ساعة النهاية فى منفاه وسط جزيرة صمّاء لا يرى فيها إلا صخورها الجرداء وصمتها الموحش الرهيب !

وإذا ما تصفحنا كتب التاريخ التى تزخر بالعديد من صور الأسد الجريح فى أيام الأسر على جزيرة « سانت هيلانه » صافحت أعيننا صورة فتاة جميلة ... ذات ملامح دقيقة تنم عن البساطة والبراءة والرقة الفطرية فى غير صنعة أو سفور أو تكلف .. صبية وادعة تخطو نحو أعتاب الأنوثة والشباب المبكر .. اسمها (بتسى بالكومب) كانت هى لمسة الحنان وبسمة الأمل الوحيدة للقائد الأسير فى أيامه القاتمة الخاوية .. لقد تبارى الفنانون فى رسم صورتها واستلهام مواقفها وعلاقتها بنابليون .. لتخلد هذه الصور فى أروقة المتاحف وصفحات التاريخ .. ونرنو

إلى صورة الملهمة الصغيرة .. ومن نسيج خطوطها وألوانها .. نستعرض معا إحدى قصص الملهمات التى تزخر بها كتب الفن والتاريخ .

●● كانت (بتسى) صبية حلوة تزيدها براءة الأطفال نضارة وتفتحا لمباهج الحياة وعبث المراهقة وصدق المشاعر وحرارة الانفعال .. لم تكد تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها صافية البشرة ، ينساب شعرها الطويل فى عفوية هوجاء ، وترتعش ذوائبه فوق جبينها المشرق عندما تعدو وتقفز هنا وهناك فى مرح وانطلاق ساذج يثير الخيال ويأخذ بالألباب .

●● وعندما تحالفت أوروبا كلها على نابليون .. حتى خارت قواه . ووقع فى قبضة الإنجليز اقتادوه إلى جزيرة سانت هيلانه فى يوم من أيام شهر أكتوبر فى عام ١٨١٥ .. ليقضى فيها آخر أيامه .

ونزل الرجل من البارجة الحربية فى جنح الظلام .. ليقيم — مؤقتا — فى عاصمة الجزيرة « جيمستاون » حتى ينتهى إعداد البيت الذى تقرر أن يقيم فيه .. وفى الصباح قصد نابليون — وهو محاط بحراسة الإنجليز — إلى (لونجوود) ليلقى نظرة على موقع البيت الذى خصص له (أو موقع السجن الذى ينتظر فيه نهايته). وفى أثناء عودته من الطريق الصخرى الوعر الذى أرهق حصانه وأنهك قواه ، وقعت عينا نابليون على منظر غريب . يشذ بجماله عن كآبة المكان وجدب الحياة فى هذه الجزيرة الموحشة .. لقد رأى واحة خضراء مزهرة تقع بين مرتفعين صخراوين كأنهما إطار للوحة فنية رائعة ، وتنتهى هذه الواحة المنبسطة إلى شلال صغير تنهمر منه المياه العذبة الصافية .. ويرقد عند حافته بيت ريفى أنيق تحيطه الورود والخمائل اليانعة .

واستدار نابليون بجواده نحو حراسه وسألهم :



(هادسون لو) الحاكم البريطانى لجزيرة سانت هيلانة .. لقد تفنن فى إذلال نابليون حتى النهاية



بتسى

ـــ لمن هذا البيت الشاعرى الجميل ؟

ـــ إنه لرجل إنجليزى يدعى (وليم بالكومب) يعمل وكيلا لشركة الهند ، ويمكنك أن تستريح فيه لبعض الوقت . ولم تمض لحظات حتى وجه نابليون حصانه نحو الممر المفضى إلى مدخل البيت .. وعندما صار على قيد خطوات من الباب الرئيسى ، إذا به وجها لوجه أمام فتاة صغيرة رائعة الجمال ، شقراء ، متوردة الوجنتين ، ذات شعر متهدل أسود ، وكأنها جمعت بين إشراقة الصباح وحلكة الليل حول محياها المضىء ! وعرفته الفتاة لتوها .. وانحنت برشاقة أمامه لتحيته .. اسمها (لوتشيا إليزابيث بالكومب) ويدللونها باسم (بتسى) .. فبادلها التحية .. ومما أدهشه أنها رحبت به بلغة فرنسية مع أنها إنجليزية . وبعد دقائق .. انفرج الباب .. وأقبل عليه باقى أفراد



بتسى بالكومب – كما رسمها الفنان (ميليه Milliet) فى عام ١٨٢٤

أسرتها بكامل ثيابهم يرحبون به ويحيونـه فى أدب واحترام .. وأخذت بتسى تقدم أسرتها لنابليـون والدهـا .. والـدتها ، وأختها الـكبرى « جين » ، وأخويها الصغيرين .. وطلبوا أن يقضى الإمبراطور ورفاقه بعض الوقت فى بيتهم ليستريح من عنـاء الطريق . وجال نابليون ببصره فى أبهاء البيت .. جمال وبساطة وأناقة تنم عن ثقافة ووعى وذوق رفيع ! واتخذت بتسى مكانها بجواره وهى تجاذبه أطراف الحديث . وفى هذه الأثناء اختلى رب البيت برئيس الحرس ، ودار بينهما حديث هامس قصير .. وبعده قال « مستر بالكومب » موجها حديثه لنابليون :

ــ هل يتكرم سيدى ويقبل ضيافتنا ليقيم معنا سيدا لهذا البيت المتواضع بدلا من إقامتكم وحـدكم فى العاصمة ؟

فكر نابليون فى هذا الطلب الكريم ، وهو لا يدرى لماذا تعلق قلبه بالصبية الحلوة « بتسى » التى لم تكف عن مداعبته والتحدث معه بالفرنسية تنطقها بلكنة جذابة محببة إلى نفسه ، وتسأله من وقت لآخر أن يصحح لها بعض المقاطع والتعبيرات التى تجهلها . وقد لاحظ نابليون أن الصبية خفيفة الظل . لم تدخر وسعا فى إضفاء البهجة وروح المرح على هذه الجلسة العائلية . كما أخذت تستعرض مواهبها المتعددة أمامه فى فن الرسم وعزف الموسيقى وإلمامهـا بأحـداث التاريخ .. ولم يفتها أن تشيد ببطولاته وانتصاراتـه الأسطورية التى غيرت خريطة العالم أجمع ، حتـى قالت له بثقة وتأثر : مهما آلت إليه الأمور ، فإنك بطل صنعت التاريخ بشجاعتك وعبقريتك ! وفكر نابليون مليا فى أمر الإقامة مع هذه العائلة المهذبـة المضيافة .. ثم قبل دعوتهم شاكرا .. ريثما يتم إعداد بيته فى « لونجوود » .

الحبيبة الصديقة

وكما يقال : إن أحب الترويـة إلى النـفس هـى القطرات النادرة فى لحظة الظمأ .



وإن وقع أقدامنا يسمع عاليا مدويا فى الأماكن الخالية الساكنة ..

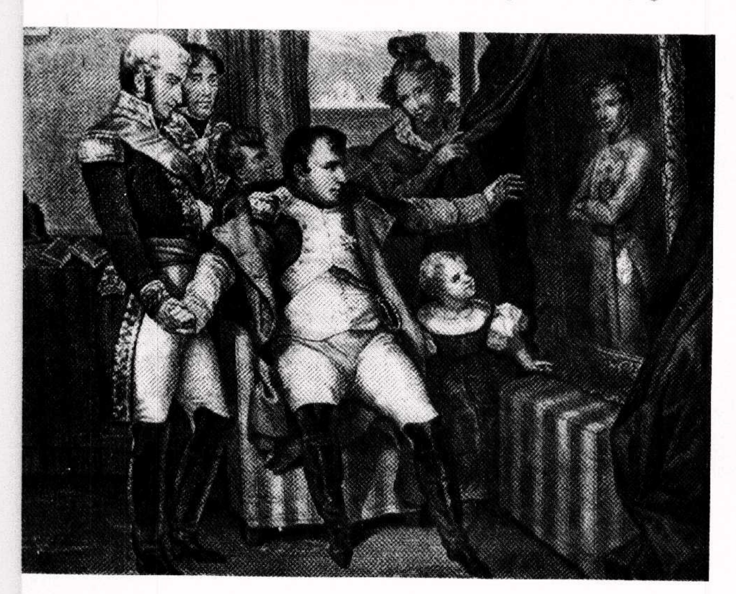
فإن بطلتنا الصغيرة قد ملكت على نابليون كل حواسه ومشاعره فتعلق بها قلب البطل وهو فى أسوأ حالاته النفسية ، أما هى فقد رأت فيه الإنسان الوادع المرهف البسيط .. بعكس ما كان يصوره الإنجليز على هيئة وحش مفترس أو غول مخيف .. إنه معها لطيف المعشر باسم الثغر .. وإن أوحى مظهره فى الوقت ذاته بالعظمة والهيبة والوقار !

وسرعان ما وجد كل منهما فى صاحبه أخلص الرفقاء وأحسن الأصدقاء فى عالم الجزيرة الموحشة الصماء ! فهو بالنسبة إليها كأحد آلهة الإغريق هبط من عليائه ليدخلها إلى عالمه السماوى .. أما هى فإنه يتمثلها شعاعا تألق فجأة فى حلكة اليأس .. وأحال حياته إلى بسمة أنارت دربه الضيق الذى تتعثر فيه خطاه المكدودة على أرض النهاية !

وتمر الأيام ، وتتوطد عرى الصداقة بينهمـا .. وكثيرا ما كان الإمبراطور يساعد صديقته الصغيرة فى



حفل تتويج نابليون ، وقد رفع الإمبراطور بيديه تاج الإمبرطورية ليضعه على رأس جوزفين « للفنان دافيد »



ما بين الأمس واليوم ! ..

لوحات ثلاث : الأولى (على اليمين) لنابليون فى مصر .. والثانية (أعلى) حفلة تتويج الإمبراطور فى باريس .. أما الثالثة (على اليسار) ففى سجن النهاية على جزيرة سانت هيلانة ، يتطلع فيها نابليون إلى صورة وحيده ، التى أرسلوا بها إليه ليلقى عليها نظرات أخيرة قبل أيام من وفاته ..



أداء واجباتها فى دروسها بأن يقرص طرف أذنها كما كان يفعل مع ضباط جيشه بعد كل معركة من معاركه الكبيرة .

ولم تكن بتسى بالفتاة المستسلمة لصديقها الإمبراطور . بل لقد أذابت الفوارق وحواجز الهيبة وسلطت لسانها الحاد عليه فى بعض الأوقات فى مناقشاتهما ومساجلاتهما الدائبة .. فعندما كان نابليون يتعمد إثارتها بقوله إن الإنجليز باردون ولكنهم لا يسخنون إلا عندما يلتهمون « البودنج » و « الروزبيف » .. كانت بتسى ترد على الفور بقولها : والفرنسيون لا يشبعون من أكل الضفادع !

وكان نابليون يضحك من قلبه لهذه المداعبات الجريئة مما يدفع صديقته الحبيبة إلى الاسترسال فيها . وكثيرا ما كانت تصنع لنفسها سيفا خشبيا تغمده فى جراب حول وسطها وتنهض فجأة فى أثناء مناقشتهما الحامية وتطلب منه أن يبارزها .. وكانت — طبعا — هى المنتصرة دائما . ويتظاهر نابليون بالهزيمة والاستسلام لها .. وفى مرح الأطفال وشقاوة المراهقة .. تتعلق فى رقبته وتقبله .. وسرعان ما أحست الفتاة الفاتنة بشىء ما يجذبها دائما نحو القائد الحنون .. وبكل الشوق واللهفة على رؤيتها .. يبحث عنها نابليون إذا غابت عنه لساعات قلائل ..

فهل يشرق على حياته شعاع أمل من أفقه المعتم الغارب بعد أن حرمه الإنجليز من أمجاده ومرغوا سمعته فى أوحال الهزيمة ، وحرموه من وطنه وأهله وولده وأوشكوا على حرمانه من الحياة ذاتها ؟

● ● وقد بلغت من شقاوتها إلى حد أنها أحضرت لنابليون لعبة صنعها الإنجليز وروجوها بين الأطفال والتلاميذ للتحقير من شأنه ، كانت عبارة عن « نابليون » مصنوع من الورق ، وعندما يشد أحد الخيوط فى أسفل اللعبة يصعد الإمبراطور « الورق » على درجات سلم كتبت عليها أسماء المعارك التى خاضها وانتصر فيها .. وعندما يصل إلى القمة ينهار



بتسى كما رسمها اثنان من فنانى عصرها

السلم فيهوى نابليون إلى القاع ، ويقع على رأسه فوق قاعدة صخرية كتب عليها « سانت هيلانه » !

وحدث أن علم والدها بما فعلت . فصمم على معاقبتها بأن حبسها فى قبو البيت وأغلق عليها الباب طول اليوم ، و لم ينقذها منه إلا توسلات نابليون بأن يصفح الوالد عنها .

وهكذا تعود الإمبراطور على شقاوة الفاتنة الصغيرة « بتسى » حيث كان يقضى أمتع أوقاته فى صحبتها ، وكان من المألوف أن يسيرا معا كل يوم حول حديقة البيت لساعات طويلة ، يتحادثان ويتجادلان ويتشاجران ويتخاصمان ويتصالحان .. وتعود لتحكى له عن طفولتها وأصدقائها وأقاربها وغير ذلك من المسليات البريئة بعيدا عن الحرب والسياسة ومشاكل الكبار .

أطياف الحلم .. والواقع المرير

وذات صباح ، أفاق نابليون من نومه ومن حلمه الجميل . ليجابه عالم الواقع الكئيب ، فقد جاء إليه كبير حراسه يخبره بأن الأوامر قد صدرت ليكون لزاما عليه التوجه إلى « لونجوود » ليقيم فى بيته الذى تم إعداده .. فها هى ذى أيامه الهانئة قد مرت وأدبرت ، لتلوح فى الأفق أيام أخرى مريرة .. هى أيام الأسر فى منفاه الرهيب !

وتمالك الإمبراطور نفسه وهو يودع فتاته .. حبيبته الصغيرة .. التى استولت على قلبه المكدود .. لقد ساقتها الأقدار إليه فى حلكة ظلام اليأس . لتبعث فى نفسه بصيصا من نور الأمل بعد أن غربت أحلامه وانهارت طموحاته وآماله وأمجاده .. وأضحت حياته فارغة خاوية تتلمس طريقها إلى الأفول !

ووقفت بتسى وهى بين الألم والذهول .. تنظر إليه تاره .. وترنو ببصرها إلى السماء تاره أخرى .. وقد انهمرت دموعها غزيرة على وجنتيها .. و لم تلبث أن تعلقت بصدر صديقها الحنون .. تمرغ عليه وجهها اليانع الجميل حتى غسلت سترته بدموعها الحارة .. وأخذت تنتحب فى براءة الطفولة وصدق الانفعال ..

وتصنع القائد الثبات .. وصاح بنبرات هدهدها التأثر :

— فيم البكاء يا أجمل صديقة عرفتها فى حياتى ؟ إنك سوف تأتين كثيرا لرؤيتى فى لونجوود .. أليس كذلك ؟ ثم أخرج من حقيبته كأسا ذهبية صغيرة نقشت عليها صورته ، وقدمها لها قائلا :

— انظرى إلى صورتى دائما على هذه الكأس .. وإذا فاض بك الشوق .. تعالى لأراك .. فإنى مشوق إليك دائما !

و لم تستطع بتسى أن تسيطر على نفسها فى تلك اللحظات القاسية . ففرت هاربة إلى حجرتها ، وأغلقت بابها ، وراحت فى نوبة حادة من البكاء !

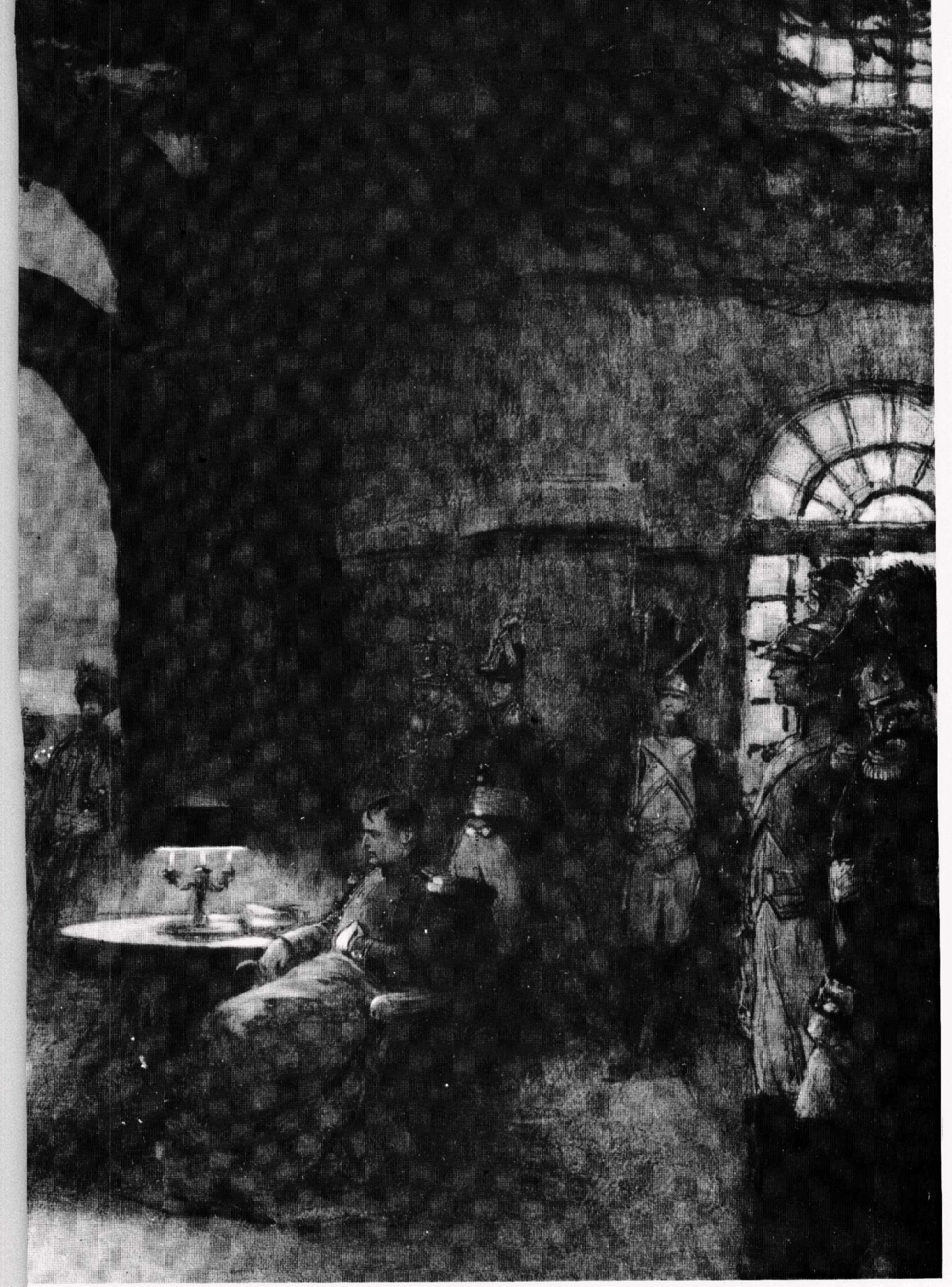
الهوة السحيقة

لم يكن يفصل بين بيت عائلة بتسى وبيت نابليون فى لونجوود إلا أربعة أميال فقط .. ومع ذلك فإن هوة سحيقة قد فصلت بين الصديقين الحبيبين بعد رحيل الإمبراطور الأسير إلى مستقره الجديد .. أو بمعنى أصح : إلى سجنه الأخير !

فقد كانت بتسى تتكبد الكثير من المعاناة وتعقيد الإجراءات لكى تحصل على تصريح بالزيارة . ولكنها افتقدت فى نابليون المرح والتفاؤل اللذين اعتادت عليهما فى بيتها فكانت تراه فى كل مرة ، نهبا لليأس القاتل والانطوائية والاكتئاب !

لقد أضنت الوحدة حواسه ، وغزت البدانة جسمه ، وطبعت مرارة الأسر على وجهه بصمات كئيبة ، وأيقنت بتسى — والألم يعتصر قلبها — أن ماتراه هو الموت البطىء . وفى إحدى زياراتها له كعادتها ، هب واقفا . وقادها من يدها إلى النافذة وقال لها :

— يا بتسى الحبيبة ، إنك لمسة الوفاء الجميل



نابليون تحت الحراسة في انتظار النهاية

الوحيدة على أرض سانت هيلانه .. انظرى إلى هذه الصخور الصماء الموحشة التى تحيط بسجنى وتجثم على صدرى .. انظرى إلى الأسوار الرهيبة التى أقاموها لتسد أمام أنظارى زرقة السماء ..

غدا ستعلمين يا أحب الأصدقاء أن الإمبراطور نابليون بونابرت قد ودع الدنيا ليموت وحيدا حسيرا كسير النفس محطم الفؤاد !

وأحست بتسى أنه اللقاء الأخير ! ومن فرط حزنها وألمها .. ومن كثرة ما حزنت وتألمت ، تعودت على مثل هذه المواقف الأليمة .. فقالت للإمبراطور فيما يشبه الهمس والمناجاة :

ــ سيدى .. إن أناتى تمزق أحشائى .. وشوق دفين .. فلا أملك إلا أن أحيا على ذكرى رفقتك التى هيأتها الأقدار وكأنها حلم جميل .. والآن . هل لى أن أحظى منكم بتذكار خاص جدا لا يملكه أحد سواى ؟ وعلى الفور ، استدعى نابليون خادمه وأمره بأن يحضر له مقصا صغيرا ، وتناوله بيد مرتعشة ، وقص لها خصلة من شعره المسترسل على جبينه سلمها إليها .. وتعانقت اليدان طويلا ، وتشابكت الأصابع فى وداع صامت حزين ..

وعادت بتسى إلى بيتها وقد زاغ بصرها وهى ترنو إلى المجهول .. واهتزت المنظورات وتداخلت أمام عينيها .. وفقدت الأشياء أحجامها وأشكالها وألوانها .. واختلت فى ذهنها مقاييس الزمان والمكان .

....

● ●وقد ذكر المؤرخون أن بتسى بالكومب ظلت تحتفظ بخصلة شعر نابليون فى علبة ذهبية طول حياتها حتى ماتت فى لندن عام ١٨٧١ .

لقد دخلت بتسى دائرة الضوء على صفحات التاريخ ، لا لأنها فاتنة من الفاتنات المغامرات .. ولا هى ملكة أو عبقرية قلبت الموازين فى عصرها .. ولكن لأن الظروف ساقتها فى طريق القائد الأسطورى الذى أقام الدنيا و لم يقعدها قرابة عشرين عاما تغيرت فيها خريطة أوروبا كلها .. وشاءت الأقدار أن تخفف عنه بعضا من آلامه المبرحة فى أيام محنته ، وقد انحدر من القمة إلى أرض النهاية بين صخور سانت هيلانه .. فوهبته قلبها الصغير الذى ينبض بالدفء والبراءة والتلقائية الصادقة ..

وبذلك استحقت أن تحظى بتخليد اسمها وصورتها فى كتب الفن والتاريخ ، وأسرع الفنانون يستلهمون صورها فى إبداعاتهم .. والمؤرخون ينقبون عن أصلها وفصلها وأسرار حياتها .

وهكذا تدور عجلة التاريخ . ومع دورانها نستحث الخطى . ونستثير القرائح لنواكب الأحداث بالروائع الخالدة لعباقرة . المبدعين !



سيدة القصر .. سحر الجمال .. وصفقة الشيطان

قفزت فوق المثل والأخلاق ، وتعالت على الطبقات الدنيا ، واتسعت دائرة طموحاتها ، وهى لا تملك سوى جمالها ومفاتنها الجسدية المثيرة ، حتى وصلت إلى قصر أحد النبلاء ، واتخذت من بيته ومن اسمه الكبير منطلقا إلى البلاط الفرنسى ، فوصلت ، وملكت ، وتحكمت ، واستبدت ، وكانت النهاية ، فما بعد القمة إلا الانهيار !



كالفراشات الهائمة بين خمائل الزهر والعطر والغدير كان الفنانون والشعراء والكتاب المبدعون فى عهد الرومانسية ، والأطياف الوردية التى يسبح فى أجوائها البلاط الفرنسى ، فى القرن الثامن عشر ، وكانت أخطر القرارات المصيرية آنذاك تصاغ من المخادع المذهبة فى قصور الترف والسرف والرفاهية والبذخ . وهكذا رأينا مقاليد الحكم لم تكن بيد الملك ووزرائه ومستشاريه ، وإنما كانت بيد سيدة البلاط ، سواء أكانت هذه السيدة محظية أم زوجة أو خليلة . تستمد نفوذها وسلطانها من جمالها وفتنتها ، وخبرتها فى المغامرات ، والعبث بقلوب الرجال ، رجال القمة وقصور الحكم فى العاصمة الفرنسية العريقة

الطموح والثمن :

الكونت جان دى بارى والحسناء التى حملت اسم عائلته النبيل ، تلك التى عرفت فى التاريخ باسم « مدام دى بارى » ، هما صنف واحد من المغامرين المقامرين الذين يلهثون للوصول إلى القمة من الأبواب الخلفية ، مرورا بالأعتاب التى تطؤها أقدام الساهرين والسامرين والمتاجرين فى بيع العبث والمتعة للحجرات المغلقة . ومن عجب أن اسم « مدام دى بارى » قد اقترن فى التاريخ بعاهل البلاط الفرنسى لويس الخامس عشر . والزائر لقصر « فرساى » بباريس حاليا يشاهد ضمن تحفه ومزاراته المهمة جناح مدام دى بارى ، وصورها ، وتماثيلها التى أصبحت جزءا لا يتجزأ من تاريخ الدولة الفرنسية .

اسمها الأصلى ، مارى جان بيكو ، ولدت نحو عام ١٧٤٦ ، فليس لدى المؤرخين ما يثبت تاريخ ميلادها على وجه التحديد ، وهم لا يكترثون بالروايات العديدة التى ذكرتها مارى عن نفسها وأصلها وحسبها ونسبها ، وكثيرا ما كانت تذكر سنى عمرها بأرقام مختلفة فى جلساتها ، كما كانت تتباهى بمغامراتها مع الوجهاء والمشاهير فى عصرها .

نشأت مارى فى بيئة متواضعة ، فقد كان أبوها



مدام دى بارى ــ تمثال رخامى للمثال باجو PAJOU

موظفا صغيرا من جباة الضرائب ، كما كان ضعيف الذاكرة إلى حد أنساه أن يتزوج أمها زواجا شرعيا ! وشبت الفتاة بين الفقر والحرمان والتمزق العائلى ، وتفجرت أنوثتها سريعا بشكل جعلها موضع تطلعات الشباب فى قريتها « فوكولور » . وقد أشعل الفقر والحرمان خيالها وطموحها ، فهجرت بلدتها إلى العاصمة باريس ، وهناك وجدت ما يرضى نزواتها ، ويحقق أحلامها ، وما يتفق مع ما تحظى به من جمال ومفاتن جسدية مثيرة . وكأى فتاة تقفز فوق المثل والأخلاق ، ولا تقيم لها وزنا ضاعت فى قاع المدينة ، ومالبثت أن تعاظمت طموحاتها ، فتعالت على الطبقات الدنيا ، ووسعت دائرة مغامراتها الطائشة ، حتى وصلت إلى قصر أحد النبلاء من ذوى الأسماء الكبيرة ، إنه الكونت دى بارى « وهو لقب نبيل ، لا يحظى به إلا صفوة القوم الذين ينحدرون من الأسر ذات العراقة والأمجاد » .

صفقة الشيطان :

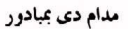
كان الكونت دى بارى يتخذ لنفسه بيتا فى باريس ، يتناسب مع منزلة لقبه وعائلته . وقد فشل الكونت فى حياته العملية ، وأخذ يعيش على ما بقى من تراث العائلة ، يتاجر فى الصفقات المشبوهة ، ويضع نفسه فى خدمة البلاط ورجاله وشئونه ما ظهر منها وما بطن . وقد أوصلته حالة الإفلاس التى يقاسيها إلى اصطياد المال بشتى الوسائل ، واقتناص الفرص لإرضاء الموسرين من علية القوم ، وهيهات أن تتاح له الفرصة من سيد البلاط لويس الخامس عشر ، فهو يعانى من الوحدة بعد موت خليلته مدام دى بمبادور ، تلك الفاتنة التى حولت فرنسا إلى ضيعة ، تستثمرها لحسابها ، وهى فى فراشها بقصر الحكم .

وقد وجد الكونت العجوز ضالته المنشودة فى تلك الفتاة الجامحة مارى جان بيكو ، فإن لديها من كنوز الفتنة ما تتفوق ، به على مدام دى بمبادور .



مدام دى بارى
رائعة قصر فرساى




مدام دى بمبادور

فكيف لا يستغل هذه الفرصة السانحة ؟ وكانت الفتاة الطموحة أسرع منه فى سعيها إليه ، لتسلم له قيادها ، ولتتخذ من بيته شركا للصيد الثمين . ورسمت فى مخيلتها ثروات فرنسا وهى فى قبضتها ، وكيف تتربع على عرش الجاه والنفوذ والسلطان . وقد أضحت ملء الأسماع والأبصار ، وأصبح كثيرون من رجال المجتمع الأرستقراطى يتمنون أن يحظوا بصداقتها ورفقتها ، والجميع يثنون على مواهبها وجمالها وسحر لحاظها . وها هى ذى فرصتها الكبرى فى القفز إلى قصر فرساى ، منطلقة من بيت هذا الكونت المغامر .

لكن شيئا ما ينقصها لتكتمل حلقات المخطط ، إنها بحاجة إلى اسم كبير يفتح أمامها بوابات القصر الملكى ، وهذا الاسم المنشود بيد الكونت العجوز ، فليتصرف ، وسيقتسمان معا أرباح الصفقة . ولن يتاح لها الحصول على اللقب النبيل إلا بالزواج .

الزيارة

فوجئت أسرة الكونت (وهو عميدها ومدبر شئونها) بمقدمه إليها فى الريف ، بعد طول غياب ، وقد اختلطت تجاعيد وجهه بحبات العرق ، ومظاهر العصبية والاضطراب ، وسرعان ما وقفوا منه على حقيقة أمر هذه الزيارة المفاجئة ، وبعد مناقشات ومحاورات أشار الكونت إلى شقيقه الشاب « وليم » بلهجة آمرة ، لكى يستعد فورا لاصطحابه إلى باريس ، وكانت الخطة كما يلى : يقيم « وليم » عدة ساعات فى بيت شقيقه ، ويتم إعلان زواجه بمارى جان بيكو ، ويوقع على عقد الزواج ، لكى يمنحها اللقب النبيل : الكونتيسة زوجة الكونت وليم دى بارى ، ولتصبح هى : مدام دى بارى ، ثم يعود وليم فورا إلى الريف بعد توقيعه على العقد ، ويترك لعميد العائلة التصرف ، ويترك مارى لباريس ولملك باريس . وستكون المحصلة المرتقبة جاها ومالا ، ينعم بهما كل أفراد العائلة العريقة المفلسة !

وتم كل شىء كما خطط له الكونت . وكانت للعائلة التى ترضخ لأوامره مبرراتها ، فقد كان أفرادها على الرغم من عراقة أصولهم ، يفوقونه فشلا ، لكنهم يتباهون بأمجاد الماضى ، وقد نضبت مواردهم إلى حد العوز والغرق فى الديون ، وقد راقت الفكرة فى أعينهم ، فى وقت يبحث فيه لويس الخامس عشر عن محظية جميلة ، تأخذ مكان الراحلة الأسطورية مدام

دى بمبادور . وأغلب الظن أن الكونت الكبير فى وسعه ــ بمعونة شركائه من المنتفعين ــ أن يصلوا بمارى إلى هذه المكانة ، وكل شىء له ثمن ، وأى ثمن !

وحدث ما توقعه شركاء الصفقة تماما ، وانهال الذهب على خزائنهم الخاوية ، لكن هذا الذهب قد اختلط بدماء الضحايا ، وعرق الفقراء من أفراد الشعب الضائع البائس ، أولئك الذين أثقلت كواهلهم بالإتاوات والضرائب الباهظة . وامتثل لويس الخامس عشر لأطماع حسنائه اللعوب ، وانصاع لأوامرها . وأعادت مدام دى بارى سيرة مدام دى بمبادور مرة أخرى ، فلقد تقربت وملكت وتحكمت واستبدت . لكن الجريمة لم تمر بلا تبعات ، فلم تفلت غادة القصر من العقاب فى آخر المطاف ، فقد مات لويس عام ١٧٧٤ ، وبموته انزوت رفيقته فى عزلة عن عيون الشعب المكدود الذى استنزفت دماءه . وعاشت الغانية فى رعب وذعر ، تنتظر القصاص بين لحظة وأخرى ، وطال بها الانتظار القاتل سنوات ، وكأنها الموت البطئ .

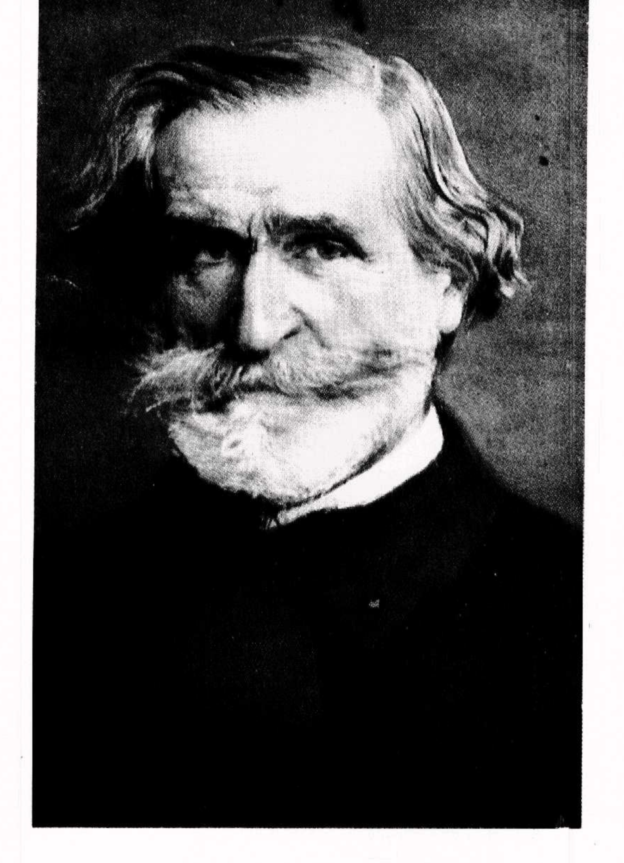
تولى لويس السادس عشر حكم فرنسا مع زوجته مارى أنطوانيت ، فى فترة تزدحم بالاضطرابات والأحداث الجسام ، حتى هبت العاصفة التى اقتلعت كل الجذور ، فقد قامت الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ ، حيث فتحت الملفات وراجعت الحساب ، واحتل اسم مدام دى بارى رأس القائمة . وكانت آنذاك سادرة فى غيها ، تلهو وتغامر وتقامر ، بعد أن ظنت أن صفحة الماضى قد طويت ، وذابت تحت تراكمات السنين والأحداث .

وفى صباح السابع من ديسمبر عام ١٧٩٣ اقتيدت المغامرة الحسناء إلى المقصلة الرهيبة فى الميدان العام ، وأمام الجموع الهادرة هوت السكين على رقبتها الجميلة لتنهى حياتها إلى الأبد ، ولتنتهى بموتها قصة واحدة من أجمل فاتنات التاريخ اللاتى ألهمن المبدعين والمؤرخين بسيل من الإيحاءات العبقرية الخالدة .



البداية والنهاية :
لوحتان : (الأولى اللقاء) الأول مع لويس الخامس عشر ثم النهاية (فى اللوحة الثانية) ..





فيردى بين روعة الحب وتفجر العبقرية

عندما أرسل الخديو إسماعيل مريت باشا إلى الموسيقار الإيطالى الشهير « فيردى » ليكلفه بتأليف « السلام الخديوى » .. رفض فيردى أن يلبى طلب حاكم مصر .. لسببين هما : انشغاله وانهماكه فى أعماله الكبيرة وأوبراته التى ذاعت شهرتها فى أرجاء العالم .. و أيضا ، لأنه لم يتعود أن ينزل بفنه إلى مستوى « موسيقى المناسبات » .. ولكنه عندما طلب إليه بعدها أن يؤلف موسيقى أوبرا « عايدة » ، رحب بذلك لأنه عمل خالد يضاف إلى رصيده العالمى مهما كانت المناسبة التى يقدم فيها على مر السنين !

●● كان فيردى يتصرف بكل الثقة والاعتزاز بالنفس الذى يصل لدرجة الغرور والخيلاء .. وقد أرجع المحللون سلوكه هذا إلى استقرار عاطفته وتفجر طاقاته آنذاك .. لأن قلبه كان عامرا بالدفء والحب.

وبمثل تلك المشاعر الوجدانية الضرورية للعباقرة المبدعين .. يسير الفنان بخطوات راسخة واثقة فى طريق الابتكار والتألق والتحليق فى عالم الفن !

.. هكذا يقول علماء النفس والباحثون فى أسرار السلوك البشرى ، ولا سيما فيما يتعلق بأقطاب الإبداع والفكر الإنسانى الرفيع !

وهذه حقيقة تاريخية ثابتة ، كانت ـــ وما تزال ـــ تعلن عن نفسها دائما وحتى اليوم .. فقد كان فيردى فى ذلك الوقت فى أوج سعادته العاطفية وأمجاده وشهرته الفنية .. تقف وراءه ملهمته « جسبينا » الرائعة .. مغنية الأوبرا الشهيرة التى شجعته ودفعت به إلى دائرة الضوء وسط حشود العمالقة وتزاحم العباقرة فى تلك العصور الفنية المزدهرة التى غمرت أضواؤها العواصم الأوروبية فى القرن الماضى ، فيما يشبه النهضة الفكرية الشاملة !

... وحرى بنا أن نستعرض سويا جانبا من حياة فيردى وملهماته وعوالمه الإبداعية المثيرة .

●● كانت أول أوبرا من تأليفه هى « أوبيرتو » فى سنة ١٨٣٩ .. كما كانت آخر أعماله العملاقة فى

مجال الفن الأوبرالى الكوميدية « فالستاف » بعد خمسين عاما من تأليف « أوبيرتو » .. وبين هذه وتلك توالت أعماله العبقرية التى هزت وجدان العالم من أدناه إلى أقصاه وكان من أهمها : نابوكو — اللومبارديون — هرنانى — فوسكارى — جان دارك — السيرا — آتيلا — ماكبث — لنيانو — ريجوليتو — لاترافياتا — التروفاتورى — ثم الأوبرا الشهيرة التى كانت بمثابة درة التاج فى أمجاده الفنية ..

مارجريتا

أنطونيو باريتسى

وهى أوبرا « عايدة » .. التى عرضت لأول مرة فى العالم بالقاهرة فى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٧١ . واختتم فيردى أعماله الكبيرة بأوبرا « عطيل » التى أوصلت شهرته فى أرجاء الدنيا إلى عنان السماء !

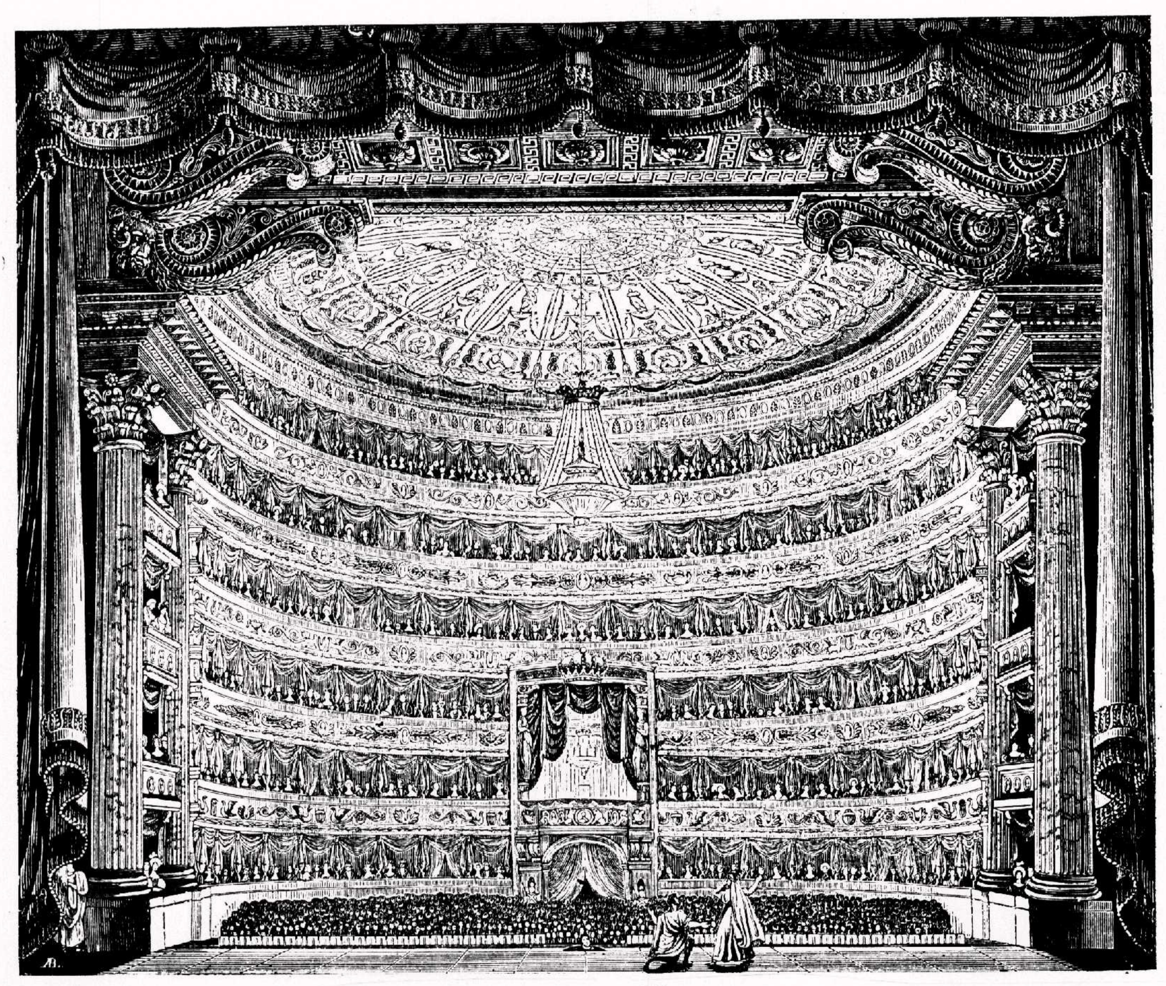
● كان فيردى معجزة موسيقية تفخر بها إيطاليا .. مهد الأساطين العظام من رواد الفن .. بكل أنواعه ونزعاته وعوالمه المثيرة .. ولكنه كان فنانا يحيا بالحب ويتغنى بالجمال ويستلهم خفقات قلبه مع كل يوم جديد .. يحياه محبا متطلعا إلى النظرات الهائمة فى عيون الحسان .. وكانت معجباته من فاتنات روما وميلانو يعدون بالعشرات .. ولكن قلبه المرهف قد عرف الحب الحقيقى وهو فى التاسعة عشرة من عمره فى عام ١٨٣٢ .

وذبلت الزهور فى الربيع

فى تلك الأثناء ، كان أبوه قد أرسله إلى مدينة « بوسيتو » القريبة من قريته (ليه رونكولى) ، ليلتحق بمدرستها ، وقدر له أن يقيم فى منزل فنان من محبى الموسيقى يدعى « أنطونيو باريتسى » ، مما أتاح للغلام أن يستمتع بالإصغاء إلى العزف وإلى الحديث عن الموسيقى .. ويوما بعد يوم .. تدرب على العزف على يد باريتسى الذى أخذ يرعاه ويشجعه ، ويتيح أمامه الفرص لحضور الحفلات والاشتراك فى الفرق الموسيقية بالمعزوفات الصغيرة .. ومضى الفتى فى التدرب على العزف والتأليف والتلحين .. وكانت لباريتسى ابنة جميلة رقيقة طبعت على تذوق الفن وحب الموسيقى .. وقد دأبت على ملازمة فيردى لساعات طويلة كل يوم تصغى إلى عزفه وتناقش ألحانه وتنقد مؤلفاته .. وتشجعه على السير قدما فى طريق الفن الرفيع .. لاحظ باريتسى الذى أحب الفتى وقربه إليه أن تآلفا قويا يجمعه بابنته « مرجريتا » .. فبارك الرجل هذه العاطفة الوليدة وعزم على أن يتبنى

الشاب الموهوب حتى يدفع به إلى قمة النضج والشهرة .. فأوفده إلى ميلانو .. المدينة الكبيرة التى كانت — وما تزال — العاصمة الموسيقية لإيطاليا كلها . وتكفل بنفقات تعليمه وإقامته هناك . فأقبل الفتى يدرس ويعزف ويتعلم أصول التأليف الموسيقى على يد رئيس فرقة الأوبرا « سكالا دى ميلانو » وكانت تدعى « لافنيا » .. وسنحت الفرصة أمام فيردى .. فعزف فى الحفلات العامة .. وأخذ يخطو أولى خطواته الواثقة نحو الشهرة .. وكانت رسائل حبيبته مرجريتا هى وقود قريحته الدائم .. وإلهامه اليومى الذى يشجعه ويحفزه على التألق والنبوغ ..

وتعجل العودة إلى « بوسيتو » .. ولم يعد يتحمل البعد عنها أكثر مما تحمل فقد استبد به الشوق إليها .. وكانت مرجريتا الحسناء أشد اشتياقا إلى فتاها كذلك .. فلم يكد يستقر به المقام فى المدينة ويقدم تقريرا وافيا لوالدها الذى جعل منه أبا وأستاذا له منذ أن تفتحت بصيرته على حب الموسيقى على يديه .. حتى طلب منه أن يزوجه مارجريتا . وهكذا عقد قرانهما فى مايو ١٨٣٦ .. لينعم بالحب والفن والشهرة فى المدينة الوادعة ! وواصل الزوجان الحبيبان الليل بالنهار .. تقف الحسناء خلف فنانها تدفعه وتلهمه أجمل المعانى وأعذب الألحان ، وأثمرت



سكالا دى ميلانو

هذه السنوات الحالمة عن أعمال رائعة .. وعن طفلين جميلين اضاءا حياتهما وأضفيا عليهما غلالة من الشاعرية والتعاطف والحنان والإبداع .. وكانت طفرة مذهلة للموسيقى الشاب .. ظن معها أنه وصل إلى قمة سامقة يحسده الجميع عليها .. وخشى من السقطة من هذا الارتفاع الشاهق .. وفجأة . عبست الأيام .. وكشرت عن أنيابها ، فرافقه النحس فى تلك الفترة : فقد لازمه المرض ، ونفدت نقوده واضطرت مرجريتا إلى أن ترهن حليها وكثيرا من أمتعتها .. وبلغ سوء الطالع مداه ، فاختطف الموت الطفلين ، واحدا تلو الآخر فى أيام قلائل !

ولكن النحس قد تطور إلى كارثة حلت بالفنان البائس ، فمرضت الحبيبة مرضا عضالا .. وأصيبت بالاكتئاب والهزال .. حتى لفظت آخر أنفاسها وهو يحتضنها فوق صدره الذى كاد يتأجج بأنفاسه اللاهثة المحمومة !



جسبينا ـــ الحبيبة الثانية رفيقة عمره وأمجاده

الحب الثانى

ومرت أحداث وأحداث .. وفناننا بين الطفرات والعثرات .. حتى كان عام ١٨٥٩ عندما تـزوج بالمطربة التى قامت بالدور الأول فى إحدى أوبراته الأولى .. فقد تعلق بها قلبه من سنوات طويلة .. فقد كانت « جسبينا ستريبونى » فتاة متألقة فى دائـرة الضوء على المسارح .. كما كانت تحظـى بصوت موسيقى رخيم جعلها أشهر المطربات فى الأوبرات العالمية آنـذاك ، تعاطفـت مـع فيردى .. وكانت صداقتهما وتقارب أفكارهما موضع الاعتزاز لكـل منهمـا .. وصارت .. علاقتهمـا العاطفيـة يعرفهـا الجميع حتى إنهما وحّدا معيشتهما فى بيت واحد .. وعـرفـت « جسبينـا » بـاسـم « سنيـورا فـردى » لسنوات عديدة قبل أن يتوجا ارتباطهما بالزواج سنة ١٨٥٩ .

فكرست كل حياتها لزوجها ، وراحت تستحثه على التجديد والابتكار .. كما صارت تغنى كل ألحانه بفهم وحب عميقين .. فانتظمت حياته أدق تنظيم وتوفر له الجو الذى يحفزه على الإنتاج ويبعث فى نفسه ملكة الريادة والتفوق .. وكانت إلهاماتها على فنـه غامرة مبدعة .. ولم يقدر للزوجة المخلصة أن تنجب أطفالا .. فاتخذت من زوجها ابنا توفر له كل رعايتها وتحيطه بعواطفها وحدبها وشتى صنوف العطاء بغير حدود ! وهكذا لم يكن حبهما عن عاطفة مشبوبة ورغبة مستعرة هوجاء ، وإنما كان حبا حقيقيا ناضجا منبعثـا مـن القـلب والعقـل يتوجـه الفهـم والفـن والإدراك .

وعاشت معه أحلى أيامه وأمجاده .. كما شاطرته انتكاساته التى كانت تعترض مسيرته فى بعض مراحل حياته .. وكان إخلاصهما مضرب الأمثال ومثـارا للعجب والإعجاب .. فقد عاشا معا نحو أربعين عاما عامرة بصنوف الحب والعطاء العبقرى المعجز .. وفى نوفمبر من عام ١٨٩٧ .. توفيت الزوجة المتفانية .. وتركت رفيقها يعانى الحزن والشيخوخة والعجز وقد تخطى الثمانين مـن عمـره .. فظـل يبـكيها ثـلاث سنوات .. حتى تدهورت صحته .. واعتل قلبه .. وهو لم يزل يردد اسمها صباح مساء ..

.. وأخيرا .. وفى ٢٧ يناير من عام ١٩٠١ .. لفظ آخر أنفاسه فى أحد فنادق مدينة ميلانو ليلحق برفيقة عمره « جسبينا » .. وليرحل عن عالمنا أحد نوابغ التاريخ العظام .. بعد أن دخله من أوسع أبوابه .. كما افتتح التاريخ صفحاته كذلك للمهماته اللاتى ساقهن القدر ووضعهن فى طريق الموسيقار العبقرى ليشعلن جذوة قريحته العبقرية المبدعة .



فيردى فى آخر أيامه

الشرق وعالم الحريم في الإبداع العالمي

الشرق العربى ... ربما كانت هذه العبارة لا تعنينا بأكثر من موقعنا الجغرافى على سطح الكرة الأرضية .. للتمييز بين شرقنا العربى حول البحر الأبيض المتوسط وبين الشرق الأقصى فى قارة آسيا وحول شواطئها المترامية . ولكن لكلمة (الشرق) فى وجدان الفنان الأوروبى شأن ومضمون آخر .. اختلطت فيه الرؤية بالرؤيا والواقع بالخيال والإعجاب بالتعجب والانبهار .. والحقيقة بالحلم والشاعرية !

● فى عام ١٨٥٨ كتب (كارل هاج) ــ وهو فنان ألمانى زار مصر فى ذلك العام ــ لمواطنيه من الفنانين وذوى البصائر المتوهجة بحثا عن الشاعرية والإلهامات التى تفجر طاقاتهم الإبداعية .. كتب يقول :

« على هؤلاء الذين يبحثون عن مادة مثيرة يستلهمونها فى فنونهم أن يتوجهوا إلى القاهرة ..



فى الشرفة على ضفاف النيل ــ للفنان أوجين جيرو Eugéne Giraud عام ١٨٧٨

ويجب أن يعلموا أن هناك « قاهرة » واحدة فى العالم أجمع .. تقبع فى جلال ودلال على صفاف النيل العظيم ، وإننى واثق من المحصلة الرائعة التى سيعودون بها .. إن كنوز السحر والإلهام تكمن على روابيها الخضر وهضابها الذهبية وفى آثارها الفرعونية وتراثها القبطى والإسلامى . وبين قلاعها وأحيائها الشعبية ذات الطابع العربى الأصيل ، ولا شك أن خيال الفنان سينسج من الواقع صورا فنية شرقية خالدة » !

ولذلك رأينا القرن التاسع عشر يشهد ما يشبه الهجرة الجماعية من الفنانين المستشرقين الباحثين عن هذه الكنوز الملهمة ، ويعتبر النصف الثانى من هذا القرن ذروة هذه الحركة الرائعة .

وقبل أن نستعرض فى عجالة قصة الاستشراق الفنى ، يجدر بنا أن نميز ونفرق بين نوعين من الاستشراق : الأول هو تلك الحركة المنقبة عن الأصول والجذور والعقائد والمعتقدات .. يستخرجون من تراكمات اللغة والدين والتقاليد ما يعتقدون إنه نقائص أو سلبيات يستثمرونها لأغراض فى نفوسهم أو فى نفوس من أرسلوهم لهذه المهام ذات الأغراض المشبوهة . ولا شك أن بعضا منهم من ذوى النفوس الخيرة أو ممن انتهجوا البحث العلمى الخالص المتجرد .. وجدناهم منصفين فى كل هذه الأمور ، فصاروا نبراسا يضىء بنور الحقيقة والمعارف الإنسانية الرفيعة . وهذا الفريق بوجهيه المتناقضين ، لا يعنينا ، ولا هو موضع اهتمامنا فى هذا الاستعراض . ولكن اهتمامنا الأساسى هو الفريق الثانى من الفنانين الباحثين عن الجمال إلهاما لإبداعاتهم وعبقرياتهم .. هؤلاء الذين استحدثوا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مدرسة فنية عالمية ذات ملامح شرقية تجمع بين الواقعية والرومانسية الممتعة هى (الأوريانتاليزم)



فلاحات على شاطئ النيل ــ للفنان ليون بيلى Léon Belly عام ١٨٦٣

ORIENTALISM وتعريفها : المدرسة الفنية العالمية التى تستلهم موضوعاتها من وحى الشرق .

وقد تناولنا هذه المدرسة الفنية ذات النزعة الشرقية بالإسهاب والتحليل الدقيق فى كتبنا السابقة (روائع الفن العالمى) و(الفن والحرب) و(الملهمات) وغيرها فيما نشر بأجهزة الإعلام العربية المختلفة .. أما فى مجالنا هذا ، نستعرض اهتمامات الفنانين المستشرقين بالمرأة الشرقية بعامة والمرأة المصرية بخاصة ، ذلك لأن مصر كانت ــ وما زالت ــ تحظى بالحظ الأوفر من الثراء الإبداعى سواء فى مناظرها الطبيعية الخلابة أو فى آثارها وتراثها الذى يشهد بعبقرية الزمان والمكان .. وكانت دائما فى بؤرة الضوء والإعلام والاهتمام العالمى من وقائع التاريخ وتحولاته وأحداثه المدوية . وظل العالم يردد قصص نفرتيتى وكليوباترا وشجرة الدر وست الملك .. وفاتنات القصور وأجنحة الحريم والمحظيات والجوارى اللاتى كانت تعمر بهن بيوتات السلاطين والمماليك وأثرياء القوم فى تلك العصور . وعندما ترجمت قصص (ألف ليلة وليلة) فى القرن الثامن عشر من العربية إلى الفرنسية بجهد خاص من الروائى الفرنسى الشهير ــ آنذاك ــ أنطوان جالان .. ثم توالى نشرها بعد ذلك فى أنحاء أوربا والعالم أجمع بعشرين لغة أجنبية كان لها مفعول السحر فى وجدان القراء وخيالهم ، وقد سميت يومها بقصص جالان ، لأنه أضاف إليها بعض القصص من تأليفه . وأعاد صياغيها بجاذبية خاصة تتناسب مع اهتمامات الشعوب على اختلاف نزعاتها وثقافاتها . ونحن نعلم أن قصص (ألف ليلة وليلة) قد اكتملت بعد أن تلاقت عند ثلاثة أصول :

- حكايات فارسية ممزوجة بعناصر هندية .
- حكايات عربية (فى العصر العباسى) فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجرى .
- أما أروعها جميعا فهى التى أُلفت فى مصر فيما بين القرنين السابع والثامن الهجرى من حيث شطط



العلمة ــ للفنان جيروم

فلسطينية على ربى القدس ــ للفنان شارل فيرلان







ليلى – للفنان سير – فرانك ديكسى عام ١٨٩٢

الخيال وحبكة الرواية وثراء العناصر الدرامية الشائقة وهى التى حظيت بالاهتمام الأكبر من جالان فى ترجماته العالمية .

ولما كانت المرأة تحتل مكان الصدارة ومحور الأحداث فى قصص ألف ليلة .. ألهبت قرائح الفنانين فى كل مكان ، وحثتهم على الرحيل إلى بلادنا .. فقد تمثلت هذه الأساطير فى مخيلتهم وكأنها حقائق وواقع يشكّل حياتنا اليومية ! وداعبت هذه الإثارة القصصية أحلامهم الفنية وازدادت رغبتهم فى الرحيل نحو الشرق علّهم ينفذون إلى مخدع شهر زاد عبر الأسوار والأستار المخملية السابحة فى أطياف الغمـوض والأسرار وسحابات البخور وعبق العطور الملكية الساحرة !

وفى عام ١٨٩٧ استيقظت القاهرة على الدوى الهادر لمدافع الحملة الفرنسية .. وكان ما كان من وقائعها وصولاتها وجولاتها .. ومع مغامرات العسكر وعبثهم وحكاياتهم المثيرة وغرامياتهم التى كانوا يروونها واقعا أو خيالا ، حقيقة أو حلما ، ولكنها كانت تروى على مسامع أوروبا لتشعل الرغبات وتلهب القرائح .. وصارت المرأة الشرقية محط الأنظار ومحور القصص والأشعار الملتاعة .

وما أن حل عام ١٨٦٩ ، حتى شهدت القاهرة والإسماعيلية وبور سعيد مهرجانات افتتاح قناة السويس الأسطورية ، وكانت رئيسة الحفل الشرفية (أوجينى) إمبراطورة فرنسا ، يحف بها جمع الفنانين الفرنسيين العظام الذين سجلوا فى لوحاتهم الرائعة هذا السحر الشرقى الدافئ على ضفاف القناة وفى قصور الخديوى إسماعيل وعلى رُبَى الأهرام ومعابد الفراعنة .. وتغلغل الفنانون فى حياة الشعب وسجلوا فى إبداعاتهم سحر الشرق وأصالة الطابع فى الحياة المصرية .. وبهذه الإبداعات المبهورة أضافوا كنوزا جديدة إلى روائع المستشرقين وفنانى الحملة الفرنسية



فلاحة مصرية ـــ تمثال من البرونز الملون

من قبلهم .. وصارت المرأة (الشرقية) كيانا جماليا معنويا يجمع بين سحر كليوباترا وجاذبية شهر زاد وأنوثة المحظيات والجوارى ودفء العواطف فى أجنحة الحريم وإثارة الراقصات والعوالم فى ليالى الطرب والسهر والسمر .. وفى الجانب الآخر نرى الفلاحات فى حيوية وحركة دائبة تزخر أجسادهن بالفتنة الفطرية الوادعة الحانية وهن يملأن جرارهن على ضفاف النيل أو يرتدن الأسواق ويشاركن الرجال فى الحياة العامة بكل مرافق الحياة .

فليس عجيبا أن نرى العديد من هؤلاء (المستشرقين) وقد طاب لهم العيش بين ظهرانينا ، واتخذوا من بلادنا وطناً لهم ، وذابوا بين أفراد الشعب بالمصاهرة والتجنس والإقامة الدائمة .. وأقاموا أحياءهم الفنية فى القاهرة والإسكندرية وبعض المدن المصرية الأخرى ، على غرار الأحياء الفنية فى باريس مثل (مونمارتر) و(مونبارناس) والأحياء الفنية البوهيمية فى معظم العواصم الأوروبية .

فكان حى (الخرنفش بالجمالية) نموذجاً مصغرا لحى مونبارناس فى العاصمة الفرنسية ، تتألق لياليه بحفلات الكونشرتو والمعارض والسهرات الراقصة حتى الصباح .. ويرتاده الفنانون الأجانب من ذوى الأسماء الشهيرة فى أفواج متتالية ضيوفا على أقرانهم من المقيمين الدائمين فى القاهرة ، ونذكر من هؤلاء المشاهير : فرومانتان ـــ فورشيلا ـــ فرير ـــ ميون ـــ إميل برنار ـــ كليمان ـــ دينو ـــ جيرارديه ـــ برشير ... وعشرات غيرهم من أعلام الفن الأوروبى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وساعد على هذه الحركة المتفرنجة المتفرنسة فى معظمها ، حب أعضاء الأسرة المالكة (أسرة محمد على) لكل ما هو أجنبى متحيزين بصفة خاصة لمثلهم الأعلى فى الحضارة والإبداعات الفرنسية وتشجيعهم لجموع الفنانين المستشرقين بشراء لوحاتهم ورعايتهم



رقصة العوالم فى أحد ملاهى القاهرة ▲

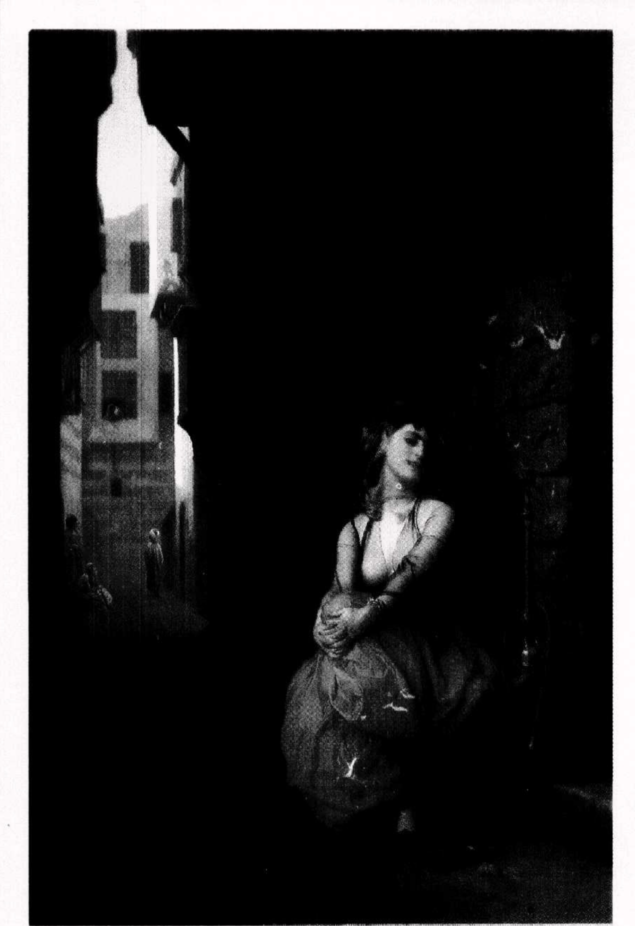
▼ رقصة السيف



والإغداق عليهم ، مما حدا بهؤلاء الرسامين الأجانب إلى تحسين شارع الخرنفش وأطلقوا عليه (شارع الفن) .. وكان من المناظر المألوفة فى هذا التجمع الفنى ، جلوس الفتيات المصريات أمام الفنانين فى مراسمهم لساعات طويلة كل يوم لرسمهن فى كافة الأوضاع ومختلف الموضوعات ، فكانت الفتاة المصرية هى نجم لوحاتهم التى بهرت العالم ، وعُلّقت فى أطر من ذهب فى المتاحف والمعارض العالمية .. وتصافح أعيننا هذه اللوحات حتى اليوم ونقرأ أسماءها : فاتيما (فاطمة) ــ آيشا (عائشة) ــ أمينا (أمينة) ــ آلما (العالمة) ــ فلاها (فلّاحة) ... إلى آخر هذه الأسماء والأوصاف المصرية . كما نرى أسماء مركبة استُلهمت من تاريخنا العربى مثل : آليا مهدى (علية بنت المهدى) .

•••

وظلت هذه الحركة الفنية الأجنبية تشغل الفراغ الفنى على الساحة المصرية فى العصر الحديث حتى أوائل القرن العشرين عندما افتتح أحد أمراء الأسرة المالكة هو الأمير يوسف كمال ، مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة على نفقته الخاصة ، وعين صديقه المثّال الفرنسى (جيوم لابلان) ناظراً لها ، وكان ذلك فى ١٢ مايو عام ١٩٠٨ ، وكان طبيعيا أن تكون هذه المدرسة على غرار مدرسة الفنون بباريس وأن يقوم بالتدريس فيها فنانون أجانب ليلقنوا شبابنا تعاليم الفن الأوروبى ... ولكن جذورنا الممتدة عبر آلاف السنين فى أرض الحضارة المصرية العريقة .. أضفت على فنانينا ــ عاما بعد عام ــ تحولات أُنتائية تنضح بالأصالة وتستلهم مقوماتنا التراثية .. فرأينا الأساليب التعبيرية الخاصة : فرعونية قبطية إسلامية شعبية .. فى أعمال الفنانين المصريين ، مُنسلخين عن هذه التبعية الأكاديمية التى فرضت عليهم أثناء دراستهم فى مدرسة الفنون المصرية ذات النهج الأوروبى أو فى بعثاتهم إلى العواصم الأجنبية . وهكذا سارت قافلتنا الإبداعية الحديثة .



العلمة والنرجيلة

الحريـم

ومن كثرة ما يتردد فى مجمعات الفن والوثائق الأوروبية من معلومات حول (الحريم Harems) ، نرى فى المكتبات العالمية سيلا من المؤلفات الفنية المصورة عن عَالَم الحريم فى الحياة الشرقية .

وهذا العالم السحرى المثير الذى نقرأه ونشاهده فى موسوعات وكتب أنيقة طباعةً وإخراجاً وجاذبية يعتمد على لوحات المستشرقين الذين رأوا بأعينهم أو الذين اعتمدوا على روايات جسدوها بخيالاتهم وعبقرياتهم مثل الفنان الفرنسى الأشهر (آنجر Ingres) وقد رسم العديد من اللوحات الشرقية عن الحريم والمحظيات وحمامات النساء والميثولوجيات المستمدة من الأساطير الشرقية ، وهو لم يرحل إلى بلادنا طوال حياته وعالم

الحريم ظل حتى اليوم جانبا مجهولا وغامضا من الحضارة العربية تختلط فيه الحقيقة بالخيال ، وروايات ألف ليلة وليلة بآراء المستشرقين الذين شغل بالهم هذا الغموض ، فحاولوا قدر جهدهم فك أسراره .

وكلمة حريم كانت تطلق أساسا على الجزء من المغرب الذى تسكنه النساء ، ثم اتسع ليشمل النساء أنفسهم ، وأصبح يرمز إلى نظام إجتماعى معين خاص بعزلة النساء عن عالم الرجال .

أما الشكل النهائى الذى أخذه نظام الحريم فى الشرق فقد تبلور تحت حكم الأتراك العثمانيين .

وإذا رجعنا إلى عصر الفتوحات الإسلامية الكبيرة رأينا أن الدولة الأموية التى تنقل الخلافة إلى سوريا ، والدولة العباسية التى تنقلها إلى العراق ، والتى تبلغ فيها الدولة الإسلامية درجة كبيرة من الاتساع ، تجعلها تشمل شعوبا غير عربية ، لها عادات وتقاليد قديمة خاصة بها . ويصبح الخلفاء أشبه بملوك الروم والفرس ويتخذون لأنفسهم بلاطا وحاشية ضخمة ، تضم نساء من كافة أنحاء الدولة ، زوجات ووصيفات وراقصات وخليلات .

وكان الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك أول من أدخل تقليد عزل النساء فى مكان خاص من القصر ، تحت حراسة العبيد الخصيان .

وخلف الصورة الظاهرة لحكم الرجال المطلق ، كان « الحريم » هو مجال تأثير النساء من عالمهن السرى فى بلاط الخلفاء .

وفى العصر العثمانى ، تأخذ الدولة الإسلامية شكلا جديدا ، بانتقال مركز الحكم إلى تركيا ، وامتداد الغزوات حتى قلب أوروبا .

ويمكن اعتبار هذا العصر بمثابة العصر الذهبى

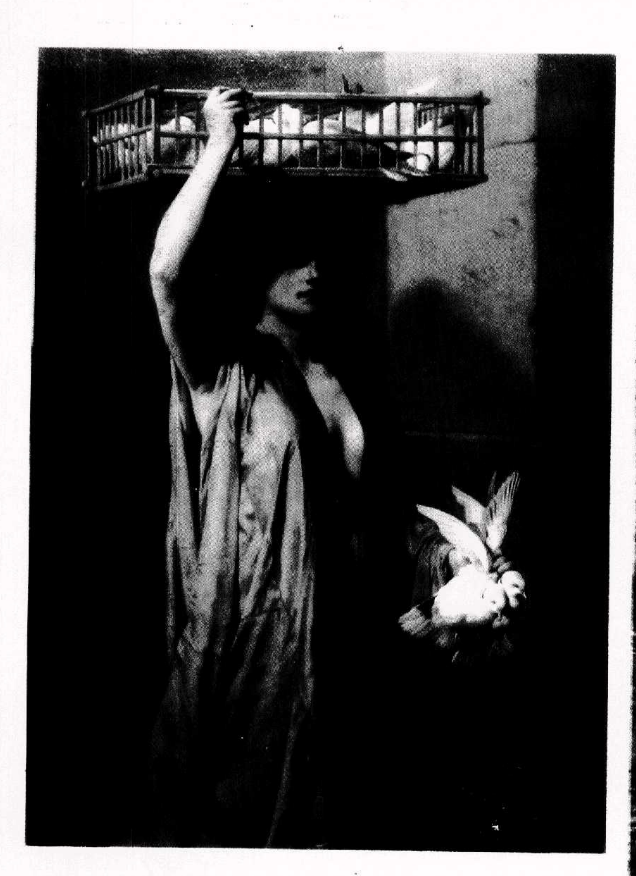


المحظية ولحظات الطرب ـــ للفنان أنطونيو كوستا

لنظام الحريم ، فقد أصبح الآن نظاما محكما ودقيقا ، له تقاليد وقواعد كثيرة ومعقدة ، حتى أن كلمة حريم تعنى عند الكثيرين الآن نساء تركيا على وجه التحديد ، أو من يقلدن نساء تركيا العثمانية . وقد حدث التطور النهائى فى نظام الحريم فى تركيا بسبب تأثير العادات التركية القديمة ، من جهة وبسبب ثراء الدولة العثمانية والأمراء العثمانيين من جهة أخرى ، مما سمح بتزايد عدد نساء البلاط بدرجة كبيرة حتى وصل عدد حريم السلطان إلى عدة مئات . وفى البداية كان السلاطين الأتراك يتزوجون من نساء الأرستقراطية التركية ، ولكن مع اتساع نفوذ الدولة العثمانية ، انتشرت عادة زواجهم من نساء أجنبيات لا

الفلاحة فى السوق :
لوحتان لويليم هول مان عام ١٨٦٠ (على اليمين)
والأخرى للفنان فريدريك جودال عام ١٨٧٥







فلاحات يملأن الجرار ــ للفنان فرانسين كلارك



راقصة ــ إدوارد رشتر



راقصة ــ أوتو بيلنى عام ١٩٠٩

يعرفن قواعد وتقاليد البلاط التركى ، ولذلك كانت الواحدة منهن تمر بامتحانات عديدة حتى يتم اختيارها فى حريم السلطان ، ثم بعد ذلك تمر بفترة تدريب قاسية لكى تتحول إلى سيدة تركية ، وذلك تحت رعاية سيدة فى البلاط تدعى كلفة Kalfa .

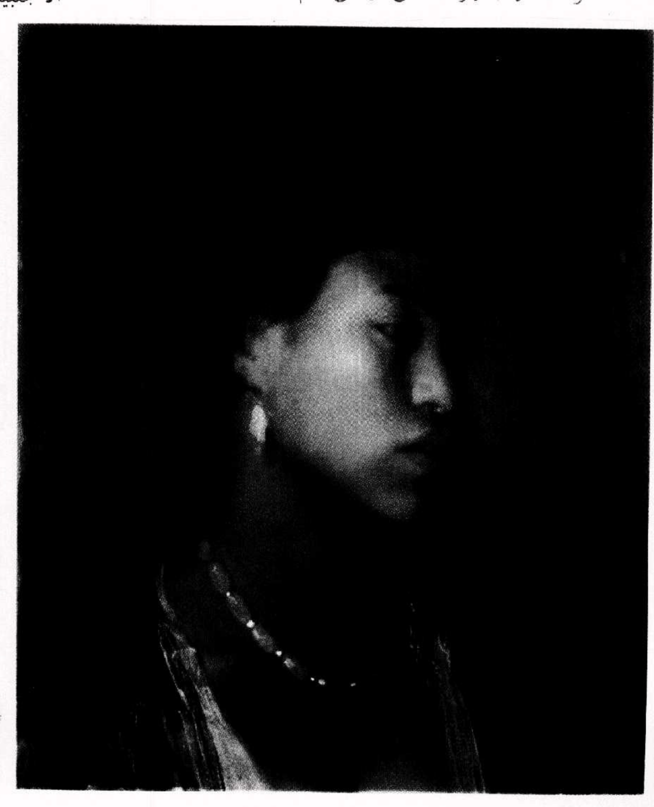
وكان حريم السلطان لا يخرجن من القصر مطلقا ، إلا مرة واحدة فى السنة ، فى فصل الربيع ، حيث يتم إعداد معسكر خارج المدينة ، تقضى فيه النساء يوما كاملا فى الهواء الطلق ، وكان موكب الحريم كبيرا ومهيبا يحرص الجميع على رؤيته ، فكان يخرج من القصر ويخترق المدينة ويسير أمامه عدد من الرجال الأقوياء ، يسمى الواحد منهم باللغة التركية «بلطجى» ويحمل عصاه لكى يفرق الناس من أمام الموكب ويمنعهم من إطالة النظر إليه .

وكانت مصر منذ عام ١٥١٧ ترزح تحت الحكم العثمانى ..

وقد أفرغها السلطان سليم الأول من فنانيها وصناعها المهرة الذين أرسل بهم الغازى العثمانى إلى الآستانة بل وانتزع تحفها وفنونها وآثارها وحمّلها على ألف جمل (كما ذكر محمد بن إياس فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور ») وخرج بكل هذه النفائس وبما نهبه من ذهب وفضة . وظل الذوق التركى وأساليب الحياة الأرستقراطية التركية فى قصور الحكم هى السائدة أكثر من ثلاثة قرون .. واستقر نظام الحريم فى البيوتات الثرية طوال تلك الفترة .. رمزا للفتنة الأنثوية وإلهاما للفنانين ، ولما كان الجمال النسوى الشرقى مثيرا للإبداع ، فقد امتدت بصائر هؤلاء المبدعين إلى فتنة المرأة فى كافة مواقعها ، منقبا عن جمالها وجاذبيتها حيثما تكون وكيفما تحتل مكانها ومكانتها فى المجتمع المصرى كرمز للجمال الفنى الذى يداعب الخيال ... أميرة أو نبيلة أو نديمة أو محظية .. مطربة أو عازفة أو راقصة أو عالمة .. فلاحة أو بائعة أو خادمة ..

وبهذا الكيان الإبداعى كان فن (الأوريانتاليزم) .. مدرسة فنية عالمية نرى فيها ملامحنا الشرقية .. قبل أن تندثر أصالتها تحت طوفان الحداثة الأجنبية المستوردة ! .





فلاحة مصرية فى زى أبيض ـــ للفنان فرانز كوسلر

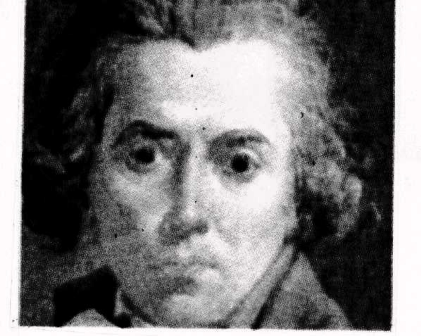
الجمال النوبى ـــ ليوبولد كارل مولسر عام ١٨٧٠

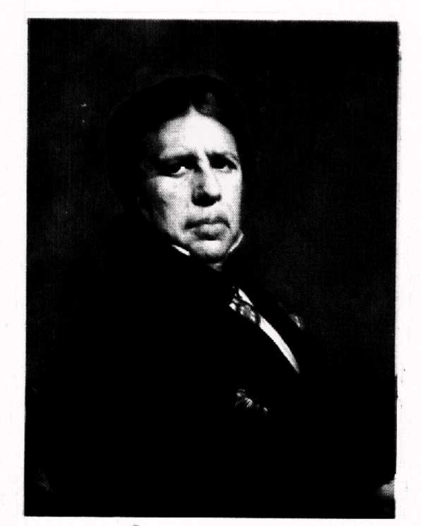
غراميات الإمبراطور

كثير من المدارس الفنية العالمية التى قادت الوجدان العالمى إلى آفاق رحيبة من الإبداع المتطور فى العصور الحديثة ، نشأت وترعرعت واستقرت فى فرنسا ، ومنها انتشرت إلى باقى أرجاء المعمورة .. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر ، تركزت أنظار العالم إلى باريس (مدينة النور) المتألقة بنور المعارف والثقافة والفن الرفيع .. حتى أضحت فى القرن التاسع عشر إشعاعاً حضاريا وقبلة المفكرين والمبدعين ، وملتقى المواهب والعبقريات الوافدة من كل مكان .

وكانت الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ من أعظم هذه التحولات الحضارية التى غيرت المفاهيم وشكلت القيم وقلبت الموازين ، واستحدثت سلوكيات وأنماطا حياتية ووجدانية فى العلاقات الإنسانية .



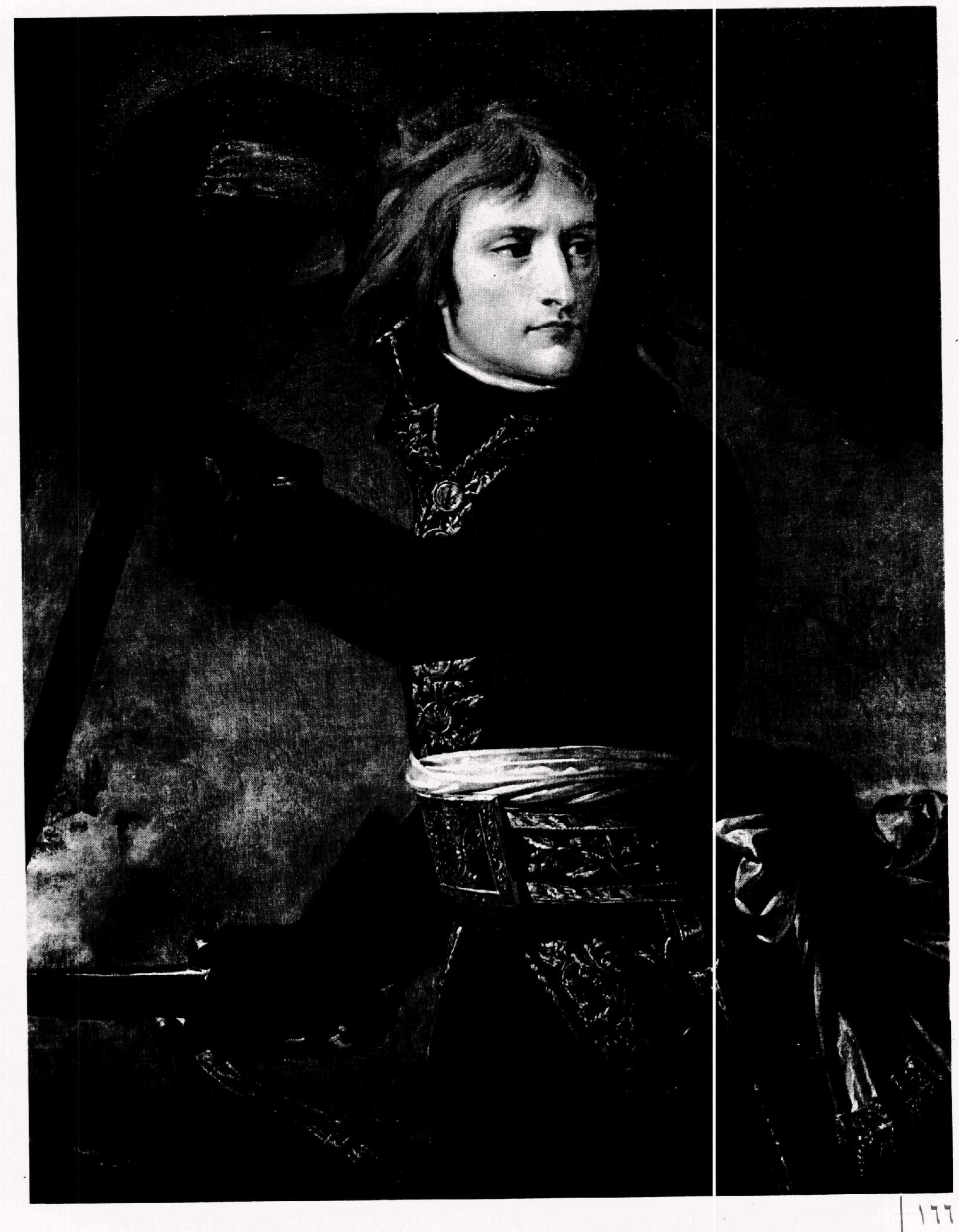

دافيد


جان أوجست دومينيك آنجر


جرو

● كانت الحياة الفرنسية قبل الثورة ، تسير فى سلاسة وتنساب فى رقة وشاعرية .. كما كانت العلاقات العاطفية هى الشغل الشاغل للطبقات الأرستقراطية .. فى القصور الملكية التى كانت تعج بحسان المجتمع وبالوصيفات والخليلات والمتقربات إلى دوائر النفوذ وفى بيوتات الحاشية ذات الجاه والسلطان .. وقد فرضت هذه الحياة الدافئة الناعمة نمطاً خاصاً يواكب الترف والبذاخة والرفاهية التى تحياها الطبقات الحاكمة فى عوالمها الرومانسية المتألقة ! فظهر فن (الروكوكو Rococo) أو (فن البلاط) ، الذى يعتمد على الإبهارات البصرية والبهرجة والليونة ، وكأنه فن راقص يتلوى فى رهافة سكْرى حالمة ! وبقيام الثورة الفرنسية وما صاحبها من مقدمات تمردية ، شارك فيها الفن الرافض للروكوكو كإرهاصات تؤذن ببزوغ فكر جديد ، وجدنا أن (الكلاسيكية الجديدة) كانت بمثابة ثورة حقيقية على فن البلاط وعودة إلى الجذور التراثية الرزينة ذات النزعات الوطنية الكلاسيكية المستمدة من التراث الإغريقى (أسلوباً) والبطولات الرومانية (موضوعاً) .. وظلت هذه السمات الإغريقية الرومانية تضفى على مدرسة (الكلاسيكية الجديدة) ملامح جادة رصينة هى النقيض لميوعة المنهج الطبقى فى عهد الملكية الذى انتهى بنهاية لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت . وهكذا كانت مدارس الفن المختلفة : أصداء وردود أفعال لتحولات جذرية فى المجتمعات الأوروبية .

●● وإننى عندما أتناول بعض هذه الجوانب العاطفية من قصص الأعلام وعباقرة التاريخ ، أستعرضها من زاوية تخصصى فى الفن التشكيلى .. فهذا هو نابليون وقد توالت مغامراته وغرامياته العابثة التى استلهمها الرواة والمؤرخون والفنانون ، على مدى قرنين حتى اليوم بشكل مثير جذاب .



ديزيريه

كان جوزيف بونابرت هو الشقيق الأكبر لنابليون .. وكانت لزوجته شقيقة صغرى وهبها الله من الجمال ما جعلها محط أنظار أهل مارسيليا ، تعرف عليها نابليون وارتبط بعلاقة عاطفية معها طوال الفترة التى قضاها فى مارسيليا كأحد قادة الجيش هناك . وعندما عاد إلى باريس كانا يتبادلان الخطابات الغرامية الملتهبة .. ولكن أحداث باريس السياسية وصخب مجتمعاتها وفاتنات سهراتها وأجوائها الحافلة بالمتغيرات والتقلبات حينذاك حوّلت علاقته بديزيريه إلى مجرد ذكرى أو تعارف عائلى .. واتجه الضابط القائد الذى كانت تسلط عليه الأضواء يوما بعد يوم إلى عزمه على الزواج من إحدى الارستقراطيات الأنيقات ... وبالفعل تزوج من جوزفين.

وعندما وصل إلى مسامع ديزيريه أن صديقها بونابرت قد منح اسمه ولقبه إلى جوزفين ، كتبت إليه رسالة تفيض بالحب والإخلاص والحسرة والعتاب الرقيق . إذ قالت فيها :

« لقد تسببت فى شقائى مدى الحياة ، ومع ذلك ، فما زلت أشعر بالاستسلام الذى يجعلنى أغفر لك ما ألحقته بى من لوعة وأذى ! لقد ضاقت بى الحياة التى كانت ملكا لك وحدك . هل تزوجت حقيقة ؟ لقد فشلت أن أروض نفسى على قبول هذا الواقع الأليم الذى يكاد أن يقتلنى ، وبالرغم من ذلك ، سترى أننى سأظل وفية لعهودى على الرغم من أنك قطعت الروابط بيننا ، فلن أتزوج مطلقا ! وكل ما أرجوه — وأنت تنعم بالسعادة والشهرة والمجد — أن لا تنسى ديزيريه » !



ومن الغريب أن نابليون — وقد أحس بشىء من تأنيب الضمير — عزم منذ ذلك التاريخ على أن يصلح الضرر الذى سببه للفتاة المحبة ، بأن يرتب لها زيجة طيبة تتناسب مع إخلاصها له ! ولكن الأقدار كانت ترتب لها مصيرا آخر .. أكبر قدرا وأعلى شأنا من مصيرها مع نابليون .. لأنها لو كانت قد تزوجته لما استطاعت أن تعتلى عرش الامبراطورية كما فعلت جوزفين .. بل لما استطاع نابليون نفسه أن يصبح امبراطور فرنسا .. لأن جوزفين هى التى رسمت له الطريق بوسائلها الخاصة ووصلت معه إلى هذه المكانة .. أما ديزيريه ، رغم كل العهود التى قطعتها على نفسها — فقد تزوجت من (برنادوت) وهو أحد القادة الأفذاذ فى جيوش نابليون ، وقُدّر لبرنادوت أن يتألق نجمه بعد الانتصارات الأسطورية التى حققها الجيش الفرنسى تحت قيادته ، فاعتلى عرش السويد وغدت ديزيريه ملكة تنعم بترف القصور وبهيبة التاج فوق جبينها .. وتحظى بما هو أهم من المُلك والتاج ... حب زوجها وإخلاصه لها .

ما بعد جوزفين

لن نعود إلى قصة نابليون مع جوزفين تفصيلا .. **ولكننا — وصولا إلى من بعدها — نقف برهة معهما** أمام مسجل للعقود الذى استعانت به جوزفين ليقتطع من سنّها الحقيقية أربع سنوات .. وهو يسلمها الشهادة ويقول لها :

« إنك تتزوجين من رجل لا يملك غير قبعته العسكرية وسيفه ، فأنت بهذا ترتكبين حماقة كبرى » !

ومن الطريف أن نابليون طلب من المسجل نفسه يوم زواجه أن يزوّر له شهادة ميلاده ليعدّل فيها عمره الحقيقى ، تماما كما فعلت جوزفين ، وليغير مكان ميلاده ليزعم أنه ولد فى باريس وليس فى بلدته (أجاكسيو) ..

ومن دعابات القدر أن يلتقى نابليون بهذا المسجل فى حفل تتويج نابليون إمبراطورا على فرنسا .. فابتسم الإمبراطور ابتسامة ذات مغزى قائلا للمسجل : « هل



جــوزفين

مازلت تعتقد حتى الآن أننى لا أملك غير قبعتى وسيفى » ؟!

.... وتدور عجلة الزمان والأحداث دورانا لاهثا حتى نصل إلى طلاق الإمبراطور من حبيبته الخائنة .. وهو محطم النفسى كسير الفؤاد بالرغم من وصوله إلى ذروة طموحاته فى أمجاد النصر والقيادة وعرش الإمبراطورية .. وأصبحت مسئولياته الجسام حائلا بينه وبين شطط عواطفه أو الانشغال بالنساء والتغنى بالحب والهيام .. وصدرت عنه فى تلك الأيام شعارات كزفرات الألم يستنكر فيها العلاقات العاطفية وسيطرة النساء ، كقوله :

« الحب لعبة الكسالى ومصيدة الحكام ومفسدة للشعوب » !

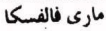
« الأمة التى ينشغل قادتها بأمورهم العاطفية هالكة لا محالة » !

وبالرغم من ذلك فقد اعترف فى أواخر أيامه وهو بمنفاه فى قبضة الإنجليز على صخور (سانت هيلانه) بأنه لم يحب طوال حياته إلا امرأة واحدة هى جوزفين !

●● أما المرأة (الرسمية) فى حياته هى (مارى لويز) وقد أنجبت له ولده الذى أطلق عليه (ملك روما) أو (النسر الصغير) . ولم تكن قصة زواجه منها وليدة حب جارف أو علاقة ذات روابط عاطفية أو عائلية .. أو أنها ذابت فى حبه من أعماقها كما حدث مع فاتنته البولندية (مارى فالفسكا) ، وهى الصبية ذات الثانية عشر ربيعا .. ذات الشعر الذهبى والجمال الأخاذ الذى سلب لب القائد الأسطورة أثناء زيارته







مارى فالفسكا

للعاصمة البولندية عام ١٨٠٧ بعد أن غزا النمسا وبروسيا ، فرأى فيه البولنديون منقذا لبلادهم بعد أن هزم أعداءهم فى النمسا وبروسيا اللتين كانتا عدوين لبولندا ، وكانت الفتاة ضمن طوائف الشعب التى استقبلت نابليون بالعرفان والترحيب .. وما هى إلا نظرات أعقبها ابتسامة ثم مدّ القائد يده بباقة من الزهور إلى الفاتنة الصغيرة .. معرباً لها عن أمله فى أن يراها مرة أخرى .. وما أن علم الشعب البولندى بهذا اللقاء حتى اعتبر (ماری فالفسكا) رسول صداقة وتحالف مع نابليون ، وذهب أمير البلاد (بونيا توسكى) إلى الفتاة يرجوها أن تحضر حفل استقبال لتكريم القائد العظيم .. وتحمس البولنديون لذهاب ماری إلى الحفل .. بل إن زوجها الذى يكبرها بعشرات من السنين ، كان أول المتحمسين . وحضرت ماری حفل الاستقبال .. وطلب الإمبراطور أن يراقصها فرفضت .. فذهل من رفضها .. إنها فرصة العمر لأى امرأة على ظهر الأرض . فكيف بهذه الحسناء الصغيرة أن تتمنع والإمبراطور نفسه يطلب منها أن تراقصه ؟! واستاء نابليون ولكنه تمالك وتظاهر بعدم الاكتراث .

وكما يقال :

إن الرجل لا يهتم إلا بالمرأة التى لا تهتم به .

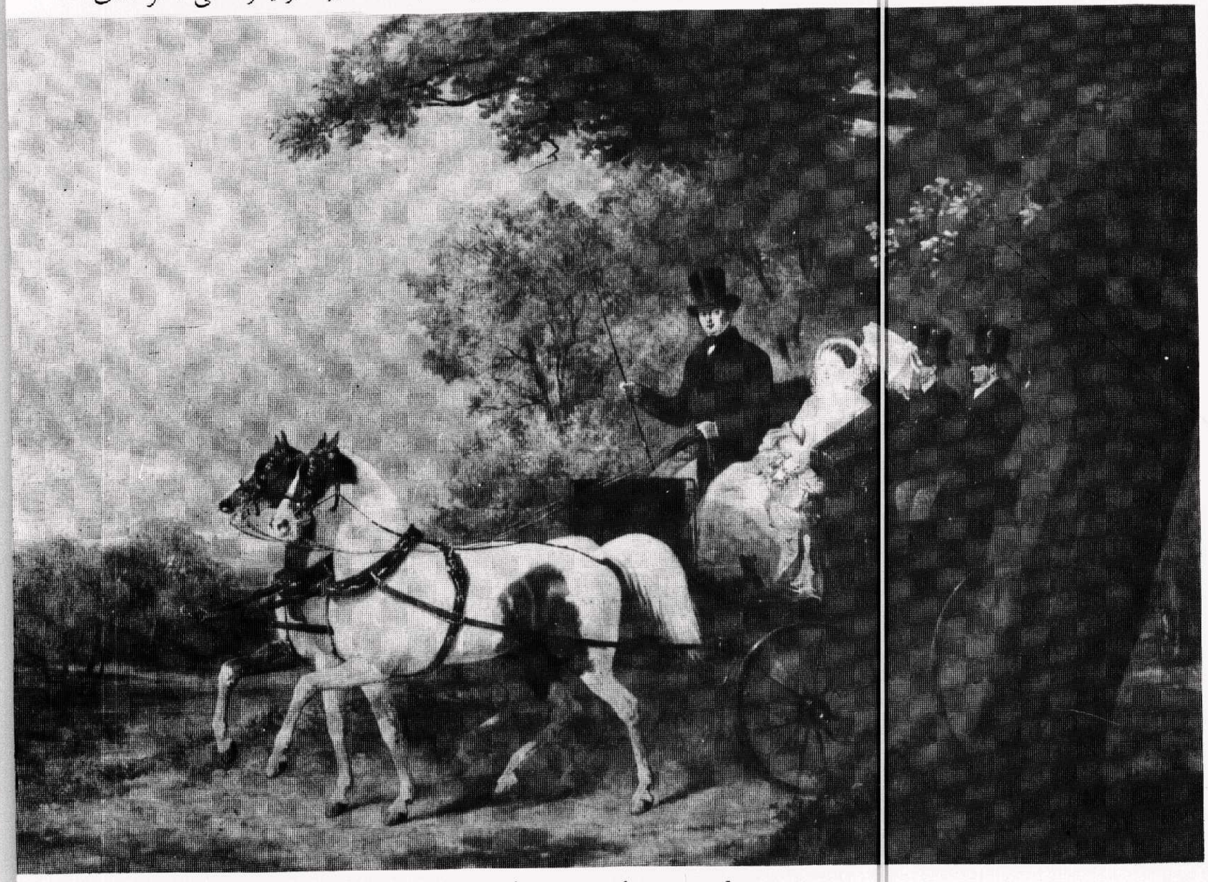
أو إن المرأة لا تهتم إلا بمن لا يهتم بها ..

أى أن كل ممنوع مرغوب ! فقد رأينا نابليون ينزل من عليائه ويصمم على أن يحظى بهذه الفتاة المستعصية على إرادته !

وعندما عادت إلى بيتها واعتكفت فى مخدعها .. حملت إليها وصيفتها بطاقة أتت لتوها من الإمبراطور كتب عليها :

« لم أر فى الحفلة غيرك ، ولا أريد سواك ، فبادرى بكلمة تهدئ من روع من أحبك . ن . » !

ومن عجب أن الأمير « بونياتوسكى » هو الذى



الكونتيسة فالفسكا مع زوجها الكونت

احضر الرسالة بنفسه .. وأصبح الإلحاح على الفتاة لأن تستجيب لرغبة نابليون ، مطلبا شعبيا حتى من زوجها الذى تأبى أن تخونه !

وقدم إليها أشراف البلاد يهيبون بها أن تلبى نداء الوطن وتذهب إلى الإمبراطور لتحقق سعادة الملايين من البولنديين ! وهكذا انهارت مقاومة الفتاة !

وحملوها إلى قصره الكبير .. وهتف الإمبراطور مهللا عندما رآها قائلا لها :

« تعالى .. ستجاب كل رغباتك ويصبح وطنك عزيزا على نفسى » !

.... وانقضى الجزء الأكبر من الليل وهو يستمع إلى قصتها مع زوجها الكهل وأسرتها المنكوبة التى أرغمتها على هذا الزواج غير المتكافئ ..

وفى الصباح التالى تلقت مارى باقة من الزهور ، وعقدا ماسيًّا ثمينا ، وخطابا كتبه نابليون وملأه بعبارات العشق والهيام ...

وتوالت اللقاءات ... وقد راودتها الآمال الوردية فى أن تثمر تضحيتها ويفى نابليون بوعده فيحرر بلادها .. ولكن القائد أخذ يماطل ، وكأنما كان يخشى أن تتحرر هى أيضا من تبعيتها لرغباته .. وغالباً ما يتحول الود والعادة إلى نوع من الحب والتآلف .. فهكذا آلت علاقتهما إلى غرام جارف من كلا الطرفين .

● واضطر الإمبراطور فى النهاية إلى الرحيل عن بولندا .. وتضاعفت همومها بعد أن أوقعها ــ بالفعل ــ فى حبائل غرامه الذى لا يقاوم .. فلا هى تستطيع الحياة بدونه ، كما أن تضحيتها لم تأت ثمارها باستقلال وطنها الذى اعتبره أهل البلاد أمانة فى عنقها .. وراحت تلح على نابليون لكى يفى بوعوده .. ولكنه قال لها مراوغا :

« ما دام العالم كله سيصبح ملك يدى ، فلا بد من أن تتحرر بولندا فى يوم من الأيام » !

فهددت الفتاة بأنها ستعتزل الحياة وتعتكف منطوية على نفسها .. ورد على تهديدها ببرود قائلا :

« إذا كان فى وسعك أن تعيشى بدونى ، فليس أمامى إلا أن أعيش بدونك كذلك » !

وكانت علاقتهما قد توثقت بشكل لا يسمح بافتراقهما ، فتبعته إلى باريس فى أوائل عام ١٨٠٨ .

ويقول المؤرخ « فردريك ماسيون » : إن مارى فالفسكا أنجبت من الأمبراطور ولدا منحه نابليون لقب (كونت الإمبراطورية) وخصص له معاشا كبيرا .. وقد وصل هذا الابن ــ خلال عهد نابليون الثالث وزوجته الإمبراطورة أوجينى ــ إلى منصب رئيس الجمعية التشريعية .

وتطورت الظروف ، فعندما نفى نابليون إلى جزيرة (ألبا) أسرعت العاشقة إليه لتكون إلى جواره مع ابنهما للترفيه عنه فى محنته .. ثم عاد إلى باريس ليكمل صولاته وجولاته .

ولكنه عندما نُفى إلى جزيرة النهاية (سانت هيلانه) ، كانت مارى قد غدت أرملة بوفاة زوجها الشيخ البولندى وأصبحت فى حل من أمرها لتتزوج زواجا شرعيا ، فاقترنت بقريب لها يُدعى (كونت أورنانو) واستقرت مع زوجها الجديد فى وطنهما .. وكان نابليون ــ وهو فى منفاه الأخير ــ لا يذكر مارى فالفسكا إلا بقوله : زوجتى البولندية !

واختتم نابليون بهذا الغرام سجل مغامراته الحافل بالعديد من العلاقات العاطفية المثيرة .

رسائل النهاية

ونعود إلى زوجته الرسمية مارى لويز ... فهى ابنة فرانسيس الأول إمبراطور النمسا ، وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها حينما تعب أبوها من الحرب مع نابليون ، فقبل شروط الهدنة معه ، وزوجه بابنته (زواجا سياسيا) لتكون بمثابة رهينة عنده .. ومرت أربع سنوات حتى ربيع عام ١٨١٤ عندما أعلن نبأ انهيار جيوش نابليون لينتهى أمره بنفيه إلى (سانت هيلانة) .. وهكذا أصبحت مارى لويز أمام أحد أمرين : إما أن تلحق بزوجها فى منفاه ومعها طفلها



ماری لویز

الصغير معرضة حياتهما للخطر ، وإما أن تلحق بوالدها ومعها ابنها فتدلل بذلك على عدم وفائها لزوجها فى محنته !

ومن المفارقات الغريبة أنه فى اليوم التالى لذيوع أنباء هزيمة نابليون فوجئت مارى لويز بفرار وصيفاتها وأفراد حاشيتها ، بل إن شقيقَىْ زوجها (جوزيف بونابرت وجيروم بونابرت) وكان قد نصبهما نابليون ملكين على أسبانيا ووستفاليا ، سارعا بالاتصال بها يحضّانها على ترك زوجها لمصيره المحتوم والفرار بابنها إلى والدها ليكون هو الحماية لهم جميعا .. وتعجبت مارى لويز لهذا السلوك الشائن من الشقيقين .. وآثرت البقاء .. ولكن الفاجعة كانت أكبر من قدرتها على الاستقرار أو الاختيار .. فنراها ترسل إلى زوجها رسائل تذوب حبا وإخلاصاً ، وفى الوقت ذاته كانت تسترضى والدها وتخطب وده وتترقب تعليماته .

ومنذ نحو أربعين عاما ، عُثر على الخطابات المتبادلة بين مارى لويز وزوجها وهو فى محنته ، وخطاباتها لوالدها فى الوقت ذاته ، ونشر بعضها فى الصحف العالمية .. وكانت أولى هذه الرسائل فى أعقاب لقاء الشقيقين بها يحرضانها على الرحيل بابنها إلى النمسا لتستقر فى كنف أبيها الإمبراطور .. فانسحبت مارى لويز إلى غرفتها الخاصة وكتبت على عجل رسالة إلى زوجها هذا نصها :

« زوجى وحبيبى العزيز ، أرسل إليك الآن رسولا ، لكى تزوده بالتعليمات التى ينبغى أن أتصرف على هداها . إننى أتوسل إليك أن ترحمنى ، وأن تدعنى ألحق بك ، لأنى أكاد أفقد عقلى هنا . لقد جاءنى الملك (تعنى جوزيف أخا نابليون) فى هذا الصباح ، وألح على فى أن ألحق بأبى ، وذكر لى أنه سيتبعنى هو وجيروم (الأخ الثانى لنابليون) ، لأن هذا هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن يكفل لهما المستقبل . وقد حاولا أن يرغمانى على عدم استشارتك ، خشية ضياع الوقت ، وخشية ألا توافق على هذا المسلك ، وكان جوابى أن هذا يعد خيانة من جانبى ، وأننى — طالما بقى فى قلب ينبض — سأظل متعلقة بك . وقد رد جوزيف على ذلك بأنه سيلجأ إلى القوة إن لم أذعن له . فوافقت على أن أذهب معه إلى « رامبوييه » على ألا أتقدم بعد ذلك . وفيما كان يتأهب لإصدار الأمر برحيلى ، دخل أحد الحراس ، وقال إنه وأعوانه يفضلون الموت على أن يسكتوا على عمل ينطوى على الخيانة لك أو لابنك أو لى . ولذلك لن يسمحوا برحيلى إلا بأمر يتلقونه منك أو منى .

« وعلى هذا ، قلت للملك (جوزيف) فى حزم : إننى لن أترك محل إقامتى ، لأننى أفضل أن أنتظر تعليماتك . وقد غضب هو وأخوه ، ولكننى لا أبالى غضب أحد ما دمت راضيا عنى . ولذلك تجدنى فى انتظار تعليماتك وأرجو أن ترسلها لى قريبا

« ابنك فى صحة جيدة ، وأنا كذلك . أقبلك وأحبك من كل قلبى

حبيبتك الوفية » .

* * *

وكانت اليد الراجفة التى كتبت بها مارى لويز ذلك الخطاب العاجل إلى نابليون ، زوجها المهزوم ، قد كتبت فى اليوم نفسه خطابا آخر وجه إلى والدها ، قالت فيه :

« سأبعث إليك فى كل يوم برسول يخبرك أين أكون ، وأرجو أن تخبرنى على لسانه بالمكان الذى يمكننى أن آتى إليك فيه إذا لم تسر الأمور على ما يرام . إن كل ما أريده أن أحيا فى هدوء فى أى مكان من مملكتك ، وأن أتمكن من تربية ولدى . يعلم الله إننى سأبذل كل ما فى وسعى حتى لا يشب جشعا مثل أبيه ، واثقة بأنك ستحمى حقوقه ، وأنك ستوفر له حياة أفضل . كما أتمنى أن تتمكن من رؤيته .. ذلك الطفل المسكين الذى لا ذنب له ، ولم يشترك فى شىء من أخطاء والده ، ولذلك لا يستحق أن يشاركه فى مصيره المشئوم . إننى أشعر بآلام شديدة فى صدرى ، كما أننى أبصق دما . إن صحتى قد انهارت ، وأعتقد أنها لن تعود !

ابنتك الوفية »

... وأخيرا ...

أنجب نابليون ابنه الوحيد

« ملك روما » « النسر الصغير »

من زوجته الثانية مارى لويز

لقد كانت « مارى لويز » مترددة حائرة ، لا تدرى : أمن الخير لها ولولدها أن تلحق بنابليون أم تلحق بوالدها ؟. ولذلك تركت للأيام أن تقرر مصيرها وأى الطريقين تسلك وكانت مفاوضات الهدنة قد أشير فيها إلى أن تنتقل « مارى لويز » من بلدة « بلوا » حيث كانت مقيمة ، إلى مدينة « أورليانس » الواقعة عند مفترق طريقين : أحدهما يؤدى إلى « مونتنبلو » حيث يقيم نابليون ، والآخر يؤدى إلى باريس . وقد رأت أن تنتقل إلى « أورليانس » على أن تتخذ هناك قرارها الأخير . وقبل أن تبدأ رحيلها ، كتبت إلى نابليون هذه الرسالة :

« زوجى وحبيبى العزيز .. أكتب إليك هذه الرسالة القصيرة ، لأخبرك بأننى فى صباح غد سأسافر إلى « أورليانس » . على أن أنتقل منها إلى « مونتنبلو » فى اليوم التالى . إننى أريد أن أراك ، وأن أشاركك فى أحزانك . ابنك فى صحة جيدة . أما أنا



فمريضة جدا . وأشعر بحمى عنيفة . إننى أرجو أن أستجمع قوة تمكننى من التسلل إليك . وليحدث لصحتى بعد ذلك ما يحدث . إننى أحبك وأقبلك من أعماق القلب .

زوجتك الوفية »

* * *

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ، بدأ موكب « مارى لويز » رحلته إلى « أورليانس » . وبلغها فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم . وكانت قواها قد أنهكها التعب والحزن والقلق . فأمضت ليلتها مسهدة لم تذق طعم النوم . وفى الصباح كتبت إلى نابليون هذه الرسالة :

« حبيبى العزيز .. إننى واثقة بأننى أستطيع أن أؤثر فى والدى كثيرا لقد كتبت إليه منذ قليل أرجو منه أن يأذن لى فى أن أراه ، وأنا مصصمة على ألا أغادر مكانى هنا قبل أن أراه إننى واثقة بأننى سأستطيع أن أؤثر فيه كثيرا ، وأننى سأستطيع أن أحقق ما هو لصالح ولدك . وإذا اقتضى الأمر أن أؤجل زيارتى له بضعة أيام ، فسألحق بك بعد ذلك ومعى أخبار سارة .

« إن أبى رحيم القلب ، فيه رأفة وشفقة وسوف يتأثر حينما يرى دموعى . وسوف يعمل حتما لصالحك إن أمنيتى الوحيدة الآن أن ألحق بك وأن أستوثق من حبك » .

زوجتك الوفية »

على أن مارى لويز ، كتبت إلى أبيها ، فى ذلك اليوم نفسه ، رسالة تحمل معانى تختلف عما تضمنته رسالتها السابقة إلى زوجها !..

ولم تكن تعرف مقر أبيها فى ذلك اليوم ، ولذلك أوفدت ثلاثة رسل إلى جهات مختلفة ، يحمل كل منهم صورة من رسالتها إليه . وقد جاء فى هذه الرسالة :

« أبى العزيز .. أرسل لك هذه الرسالة مع أحد الضباط المرافقين لى ، لكى تأذن لى فى الحضور لرؤيتك إن الإمبراطور (نابليون) أوشك أن يرحل إلى جزيرة ألبا . وقد أخبرته بأن لا شىء يمكن أن يجعلنى أترك مكانى هنا حتى أراك وأسترشد برأيك . وأنا أتوسل إليك أن ترد على خطابى . لقد قررت أن أنفذ كل ما ترى أن من واجبى أن أفعله من أجل ولدى . وأننى على يقين من أنك تحبنى كثيرا ، وأنك تحرص على مصير ولدى ومصيرى . إن كل ما أريده هو السلام ، وهو لازم جدا لصحتى . إننى أتوسل إليك يا أبى العزيز أن تدعنى آتى إليك وأراك . إن مركزى يزداد سوءا وحرجا . إنهم يريدون أن يخطفونى ويذهبوا بى بعيدا دون أن أراك ، وأنا أعتمد كل الاعتماد على نصيحتك . إننى سأفضى إليك بكل شىء حينما أراك

« أكرر رجائى فى الرد على فى أقرب فرصة ، فإننى أكاد أموت من الخوف ! » .

ولا يستطيع مؤرخ أن يخبرنا ممن كانت تخاف ؟. أمن حراسها ؟ أم من أخوى زوجها اللذين كانا ما يزالان يهددان بخطفها ؟ أم أنها كانت تخاف السلطات الحكومية فى فرنسا ، أو تخاف أن يخطفها نابليون نفسه ؟!

على أن إقدام نابليون على اختطافها ، فى ظروف محنته تلك ، كان بعيد الاحتمال ، وقد أجمع المؤرخون



مارى لويز

على أنه فى ذلك الحين ، تملكه التشاؤم ، وأصبح يحس أن زوجته توشك أن تهجره . وقد رد على رسالتها إليه برسالة قال فيها :

« عزيزتى الوفية ..

« لقد تلقيت رسالتك . إن جميع أحزانك متجسمة فى قلبى ، وهى الأحزان الوحيدة التى أعجز عن تحملها . حاولى أن تكونى أشد صلابة وقوة من خصومك .

« إننى سأرسل لك الليلة موجزا بالترتيبات التى اتخذت . لقد أعطيت جزيرة « ألبا » وخصص لك ولولدك « بارما » و« بياكنزا » و« جواسنالا » وهذه يقيم بها نحو ٤٠٠ ألف نسمة

« سيكون لك على الأقل منزل جميل ، وبلد جميل ، عندما تملين البقاء فى جزيرتى « ألبا » ويتملكك السأم منى . وهذا أمر لا مفر منه عندما أتقدم فى السن وأنت ما تزالين فى ميعة الشباب .

« إن ما ترنيخ (وزير خارجية النمسا) فى باريس . أما والدك فلا أعرف أين هو . ينبغى أن تدبرى موضوع رؤيته وأنت فى طريقك إلى

« حالما ينتهى كل شىء سوف انتقل إلى « بريار » حيث تستطيعين أن توافينى هناك .

« وداعا يا حبيبتى ، إننى أفكر فيك دائما ، وأحزانك هى التى تشقينى وتقض مضجعى

ناب »

ولما تلقت مارى لويز تلك الرسالة من زوجها ، سارعت إلى الرد عليه بالرسالة التالية :

« عزيزى ..

« تلقيت منذ قليل الرسالة التى أرسلتها إلى مع مسيو دى بوسيه . إننى أعدك بأن أكون شجاعة . وأرجو أن أستجمع قوتى بعد أيام قليلة ، وأن أبرهن لك على أننى جديرة بأن أكون لك . ولكننى فى هذا الوقت الذى هجرنى فيه حتى من كنا نتوهم فيهم الوفاء لا أستطيع أن أخفف من شعورى باليأس الذى كاد أن يحطمنى لقد جاءنى رسولان من عند أبى ، وألحا فى أن أصحبهما على الفور إلى « رامبوييه » . ولما أخبرتهما بأننى لا أستطيع أن أغادر مكانى بغير موافقتك ، صرحا لى بأنهما لا يستطيعان أن ينتظرا ، كما أنهما لا يستطيعان أن يدعانى أتوجه إلى أى مكان آخر دون أن أرى أبى ، بل هما سيحولان بينى وبين ذلك بكل ما لديهما من وسائل . وعلى هذا لم أجد بدا



فرانسيس الأول إمبراطور النمسا .. والد الإمبراطورة مارى لويز



مارى لويز ونابليون

القادة الأربعة الذين هزموا نابليون فى معركة (واترلو)



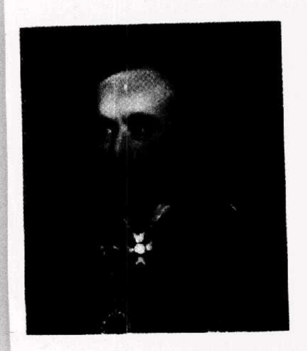
ولنجتون (بريطانيا)



ألكسندر (روسيا)



الأمير شوارزمبرج (النمسا)





مارشال بلوخر (بروسيا)

من الموافقة .

« إنه ليحز فى قلبى ، أن أجد نفسى مضطرة إلى أن أبدأ الرحلة دون أن أراك . لقد ملأ هذا نفسى يأسا جعلنى أجهل ما ينبغى أن أفعله . ولكن لا تغضب على يا زوجى العزيز إن هذا أمر لا سبيل إلى دفعه أو تفاديه . إننى أحبك حبا يملأ كل جارحة فى .

« إننى أخشى أن تظننى أننى أشترك فى مؤامرة مع أبى ضدك . ولكننى بعد أن أراه سوف ألحق بك . إننى أعتقد أنهم سليجأون إلى العنف والوحشية لكى يمنعونى من ذلك . ولكننى برغم ذلك أعتقد أنهم سوف يعجزون عن الحيلولة بينى وبينك . إننى أريد أن أشاركك متاعبك ، وأشتهى أن أقوم بالعناية بك والترفيه عنك وتخفيف آلامك .

« ابنك سعيد جدا . وهو لا يدرك مدى ما حل به من سوء الحظ . أنتما فقط يمكن أن تجعلا الحياة محتملة لى . إننى سآخذه معى إلى أبى ، وأعتقد أنه سيمس أوتار قلبه ، وسوف أتمكن من إحضاره لك فيما بعد . إننى أريد أن أعيش معك . وكلما زادت رغبتهم فى إبعادى عنك ، اشتد شعورى بحاجتى إلى القرب منك .

« فكر فى دائما ، وامنح ولو قليلا من الحب ، زوجتك التى تقبلك بكل جوارحها .

زوجتك الوفية .. آمى لويز »

* * *

وقد وصل خطاب مارى إلى نابليون بعد وقت قصير ، فكتب إليها الرد القصير التالى ، وقد كتبه فى الساعة الثالثة صباحا :

« وداعا يا عزيزتى الجميلة ..

« أنت أحب شيء عندى فى الحياة . ضربات القدر لا تؤثر فى إلا لأنها تؤلمك .

« أرجو أن يظل حبك لأكثر الأزواج حبا لزوجته ، باقيا طول الحياة . قبلى ولدنا قبلة . وداعا يا لويز »

* * *

ولم تكن النغمة الحزينة التى انطوت عليها هذه الرسالة متكلفة . وقد ذكر المؤرخون أن نابليون عقب كتابته عمد إلى ابتلاع مادة سامة ، أخرجها من كيس كان يحتفظ به دائما معه . وقد ظل عدة ساعات يتلوى من الألم ، ثم أخذ يتقيأ . ولما زال الخطر عنه فى الساعة الحادية عشرة من اليوم التالى ، قال لمرافقيه : « ما زال القدر يريدنى أن أعيش ! »

وفى ذلك الوقت الذى كان فيه نابليون يتلوى من الألم ، كانت « مارى لويز » قد أرغمت على السفر ، وأقامت فى قلعة عتيقة يحرسها جنود من الروس فى انتظار أبيها حتى يمهد مع الحلفاء الطريق لإطلاق سراحها . وقد حضر لها أبوها بعد بضعة أسابيع . وما أن رآها حتى انفجر باكيا ، فإنه لم يكن قد رآها منذ عامين . وبعد أن تمتمت بضع كلمات بالألمانية دفعت بولدها فى أحضان جده ، ثم اختلى الاثنان معا فى غرفة خاصة . ويبدو أن الأب قد تحطم قلبه لرؤية ابنته وقد هد كيانها الحزن والمرض .

وبعد حضور الأب ، كتبت مارى لنابليون تقول :

« حضر إلى أبى منذ ساعتين ، وقد كان رقيق القلب عطوفا ولكنه برغم ذلك وجه إلى أعنف صدمة كان يمكن أن يوجهها إلى . لقد أصر على منعى من اللحاق بك كى أراك . وعبثا حاولت أن أقنعه أن واجبى يقتضى أن أتبعك ولما لمس إصرارى ، أراد أن يسايرنى بعض الشىء ، فقال إنه يصر على أن أقضى شهرين فى النمسا . وبعد ذلك يمكن أن أراك

« ثق يا عزيزى إن هذه الصدمة سوف تقتلنى . إن كل ما أرجوه الآن أن تغدو سعيدا وأنا بعيدة عنك أما أنا فلا يمكن أن أكون سعيدة بدونك . أتوسل إليك ألا تحرمنى من أخبارك . سوف أكتب إليك كل يوم وسوف أفكر فيك دواما » .

* * *

ولم يصحب مارى فى رحلتها إلى فينا سوى ثمانية من أتباع أبيها وكانت رحلة كئيبة حزينة استغرقت تسعة أيام ولكن الموكب عندما عبر الحدود النمساوية ، بدأت حالة « مارى » النفسية تتحسن ، فقد حيا الفلاحون النمساويون أميرتهم العائدة ، وكأن زواجها بنابليون لم يحدث قط . لقد اجتمعوا فى ساحات القرى يهتفون بحياتها وأخذ الفتية والفتيات يغنون . واطلقت المدافع . وقد نسيت فى غمرة هذا الإحساس نابليون ، فلم ترسل له رسائل إلا بعد شهرين ، فقد كتبت له : « زوجى العزيز ..

« إن الأسابيع التى مضت دون أن أكتب إليك فيها تبدو لى أنها عدة قرون . والذنب ليس ذنبى ، فإننى لا أجد وسيلة لإرسال الخطابات وأخشى ما أخشاه أن تتوهم أن فى وسعى أن أنساك . لقد كان من حسن حظى أن بلغنى بطريق سرى أن صحتك بخير . ورجائى إذا لم يكن فى وسعك أن ترسل لى خطابات أن توافينى بأخبارك بكل وسيلة ممكنة فهى تسبب لى سعادة نفسية . وهى الوسيلة الناجعة فى التعجل بشفائى مما أشكو منه من مرض . إن ابننا الآن فى فينا ، وقد كتبوا لى يقولون إن صحته جيدة وأنه مرح ذكى . يبدو أن أبى يحبه كثيرا . لقد عين أبى الجنرال « نوبرج » لمرافقتى . إنه رجل طيب ، يذكرك بالخير دائما . إننى أتنزه هنا كثيرا ، وأشغل أوقات فراغى بالرسم . دعنى أسمع منك قريبا .

وبعد ذلك بأسبوعين فوجئت « مارى لويز » بوفد من نابليون يصل إليها متخفيا ، ويطلب إليها أن ترافقهم للعودة إلى نابليون . فقد كان ينتظرهم جميعا زورق فى « جنوا » . فرفضت أن ترافقهم وكتبت إلى نابليون تعتذر من عدم تلبية رغبته بسبب بعد ابنها عنها . وحالما تتمكن من إحضاره معها سوف تحضر على الفور .

وأخذت مارى تقضى وقتا طيبا مع « نوبرج » الذى اختار لها منزلا جميلا فى سويسرا للإقامة فيه . وقد تحقق ما كان يهدف إليه أبوها من انفصالها عن نابليون ، وأحب كل منهما الآخر .

ولم يمض وقت طويل حتى تزوجت « نوبرج » وقضيا معا ثلاثة وثلاثين عاما أنجبا خلالها طفلين .



مارى لويز



وهكذا خلدت الملهمات فى الأذهان والوجدان ، وتألقت صورهن فى



أطر من ذهب بأروقة المتاحف ومجمعات التراث وصفحات التاريخ !

فهرست

صفحة